الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التّعليم العالي و البحث العلمي

جامعة محمّد خيضر – بسكرة –

كلّية الآداب و اللّغات

قسم الآداب و اللّغة العربية

البعد التّداولي في الخطاب الدّيني
ديوان خطب ابن نُباتة "أنموذجا"

أطروحة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الآداب و اللّغة العربية
تخصّص اللّسانيات و اللّغة العربيّة

إعداد الطّالب :
مهدي مشتة

إشراف الأستاذة الدّكتورة :
نعيمة سعدية

السّنة الجامعيّة : 1440/1439هـ
2019/2018 م

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

الشّكر لله عزّ وجلّ الذي أنار لي الدّرب، وفتح لي أبواب العلم ،و أمدّني بالصّبر، والإرادة لإتمام هذا البحث.

ثمّ أتقدّم بخالص الشّكر، و فائق الامتنان إلى التي حبتني باهتمامها، ولم تبخل عليّ بتوجيهاتها، فصوّبت أخطائي وقلّلت هناتي أستاذتي المشرفة الأستاذة الدّكتورة **نعيمة سعدية** لها منّي جزيل الشّكر، وعظيم التّقدير.

مقدّمة

يتأسّس الخطاب الأدبي بمختلف أجناسه على خلفيّة الاستفادة من مبادئ ،وإجراءات الدّرس اللّساني اللّغوي؛ فيتأثّر بما يحصل فيه من تغيّر وتطوّر دائمين ،ولكن كثيرا من تلك الدّراسات اعتنت بالجانب الشّكلي والسّياق الدّاخلي التّركيبي فقط ،فهي دراسات لا تتّسم بالشّموليّة ؛لأنّها تدرس الخطاب بمعزل عن منتجه ،وبعيدا عن سياقه الخارجي ،وما يحيط به من ظروف ؛وهذا لا يمكّننا من الوصول إلى المعنى المراد من الخطاب بفكّ شفراته وترميزاته أو الوقوف على ما فيه من تلميحات ،وإشاريات.

ونتيجة لهذا الإغراق في عزل الخطاب عن ظروفه الخارجيّة؛ بل حتّى عن مؤلّفه اتّجهت الدّراسات –وبظهور النّظريّة التّداوليّة في اللّغة– نحو تحريره من هذه الصّرامة في التّحليل إلى الانفتاح على أفق رَحِبٍ يضع في حسبانه تحليل نوايا المتكلّم ،وقصده والظروف المحيطة بإنتاج الخطاب وتلقّيه ،وقد أجرى الكثير من الدّارسين المقاربة التّداوليّة على الخطابات الأدبية سواء الشعرية منها أو النثرية، والشفوية أو المكتوبة.

ومقاربة هذه الخطابات تداوليّا تفرض علينا تجاوز حدود النّظر إلى نصوصها على أنّها مجرّد دلالات ،ومضامين لغويّة ؛بل هي نشاط لغويّ يحاول أصحابه التّعبير من خلاله عن أغراض ،ومقاصد تهدف إلى تصوير مواقف شخصيّة واجتماعيّة بالألفاظ والعبارات، والتّأثير في المتلقّين بأيّ شكل من الأشكال باعتبار أنّ اللغة ليست وسيلة للتّواصل الاجتماعي فحسب ؛وإنّما هي أداة لتغيير الوقائع، والتّأثير في العالم وصنع أحداثه.

والخطاب الدّيني بمختلف صوره التّعبيريّة ،وباعتباره يمتلك كلّ المواصفات النّصيّة كغيره من الخطابات الأدبيّة الأخرى ليس بمنأى عن هذه المقاربة ؛لأنّه وعلى غرار الاستعمالات اللّغوية العديدة يحمل قصد ، وهدف مُنشِئِه الذي يسعى لتأسيس علاقة بالخطاب مع المتلقّي من جهة، والمحافظة على هذه العلاقة ؛ باستغلال الاختيارات اللّغوية التي يقوم بها من جهة أخرى ،كما يأخذ هذا الخطاب طابعا براغماتيّا حينما ترتبط مضامينه بحاجات الأفراد وفق احتياجاتها ،ووفق أولويّاتها باتّصال مقاصده بمعالجة التّحديات التي تواجهها الأمّة.

وللخطاب الدّيني أشكال عدّة منها: الدّروس الوعظيّة ،وحلق العلم ،والوصايا ،مجالس الفتوى الشّريط السّمعي ،والمرئي ....وتعدّ الخُطبة فنّا رئيسا في إنتاجه ؛لأنها تخاطب الجماهير بطريقة إلقائيّة شفويّة بغية استمالتهم ،ومن ثمّ إقناعهم فالإقناع ،والتّأثير هما غاية

الخطابة ،ومحورها الأساسي ،وهذا ما تسعى إليه التّداولية في مقارباتها التحليلية للخطاب .

فالخطبة هي الفن النّثري المقصود بهذه الدراسة في هذا البحث ؛باعتبارها وعاء يحتوي الخطاب الدّيني بشكل ناجح ،ففيها يجد الخطيب ضالّته ؛لأنّه يندب نفسه ليلقيَ في النّاس كلاما يتوخّى أن يكون بليغا ،ومؤثّرا ليحقّق من ورائه غاية من الغايات باستغلال كلّ ما من شأنه أن يجعل خطبته مقنعة ومؤثّرة ،ومن هذا المنطلق حاولت هذه الدّراسة الاقتراب من مقاصد هذا العالم الرّبّاني من خلال استحضار المنهج التداولي –الذي يُعنى بلغة التّواصل– لما تقتضيه طبيعة الموضوع ؛ولما يمتلكه هذا المنهج من مفاهيم إجرائيّة قادرة على فكّ شفرات الخطاب فوقع الاختيار على ديوان "**خطب ابن نباتة الفارقي(335هـ– 374هـ)**" أنموذجا للدّراسة التّطبيقية ، ليجيء البحث موسوما بـ:

"**البعد التّداولي في الخطاب الدّيني ،ديوان خطب ابن نُباتة أنموذجا**".

واجتمعت مجموعة من الأسباب لاختيار هذا البحث وهي :

– قيمة الموضوع وأهميّته ، فالبحث في هذا الحقل له من الأهمية ما له، فالتّداوليّة بإجراءاتها التّحليليّة تُعدّ مدخلا هامّا من المداخل التي تحيلنا إلى مقصد الخطاب ؛فهي تولي أهميّة كبرى لأقطاب العمليّة التّواصليّة اللّسانية حين تهتمّ بالمتكلّم ،ومقاصده وتمنح أهميّة للظّروف السّياقيّة بوصفها عناصر تُساعد في تأدية هذه المقاصد ،وتعوّل كثيرا على استغلال المستمع للظّروف السّياقيّة في سبيل الوصول إلى المعنى الذي قصده المتكلّم.

– جدّة الموضوع ،وقلّة الدراسات المتخصّصة فيه ؛إذ أنّ الدّراسات التي عنيت بتداوليّة الخطاب الدّيني عموما قليلة ،فجاءت بحوث الدّارسين في هذا الميدان مركّزة على القرآن الكريم ،والحديث النّبويّ بشكل كبير ،ولم يولوا أهميّة كبيرة للأشكال التّعبيريّة التي يمكن أن يتجسّد فيها الخطاب الدّيني كالخطبة مثلا التي اتّخذناها أنموذجا لهذه الدراسة ببحث في ديوان خطب ابن نباتة الفارقي ،فميولنا لهذه المدوّنة التّراثيّة كان لسببين الأول: يتمثّل في أنّ هذه المدوّنة لم تحظ بدراسة متفرّدة مما جعل الموضوع – في ظني– جدير بالدّراسة والبحث فأحببت أن أنال شرف دراسته، والثّاني جاء نتيجة لتميّز لُغتها لما تمتّعت به من

عناصر تداوليّة تستحقّ الدّراسة متمثّلة في أفعال لغوية ، وغير لغويّة ،ومضامين ظاهرة وأخرى مضمرة ،ووسائل إقناعيّة متنوّعة ،وذلك راجع لما شهده عصر ابن نباتة من اضطرابات مسّت جميع مناحي الحياة.

– كما أنّ وفرة المصادر ،والمراجع الخاصّة بالتّداولية كانت دافعا للاختيار ،فلئن كانت المؤلّفات المتخصّصة في الموضوع قليلة– تداوليّة الخطاب الدّيني– فإنّ الكتب والمصنّفات التي وُضعت لمعالجة مباحث الدّرس التّداولي كثيرة.

و يسعى هذا البحث إلى محاولة إقامة جسر للتّواصل بين التّراث العربيّ ،والدراسات التّداولية من خلال :

*التّأكيد على نجاعة المنهج التّداولي في الوقوف على مقاصد الخطاب ،وذلك باستقراء كُنْهِ النّصوص التّراثيّة العربيّة .

* تسليط الضّوء على التّراث العربيّ من خلال خطب ابن نباتة ،وإعادة قراءتها من زاوية أخرى ،وذلك بالاعتماد على المنهج التّداولي في تبيّن المقاصد المضمرة ،والوقوف عندها.

ونطمح أن تكون هذه الدّراسة مساهمة جديدة ،وتأكيدا لإمكانيّة تطبيق المنهج التّداولي على الخطاب الدّيني ،والضّفر بمحاولة مقاربة مباحث الدّرس التّداولي عليه.

لذا يتأسّس هذا البحث على مشكلة بارزة هي:

– ما هي الأبعاد التّداولية التي يحتويها الخطاب الدّيني عند ابن نباتة الفارقي؟ .

ويتفرّع عنها ما يأتي :

– كيف عمل ابن نّباتة على استغلال السّياق الوجودي في التّواصل مع متلقيه؟ ،وما الطّريقة التي استغلّ بها الإشاريّات في الخطاب للتعبير عن مقاصده، وغاياته ؟.

– ما هي طبيعة الافتراضات المُسبقة التي بنى عليها ابن نباتة خطابه؟ ،وما هي المعاني المتضمّنة في خطب الديوان من خلال خرق قواعد مبدأ التعاون عند الخطيب؟.

– كيف استطاع ابن نُباتة التّعبير عن مقاصده التّخاطبية في الدّيوان من خلال تصنيفات أفعال الكلام؟ .

– ما هي طبيعة الآليّات الحجاجيّة التي اعتمد عليها ابن نباتة الفارقي في ديوان خطبه

للتّأثير في مخاطبيه؟.

وانطلاقا من هذه الإشكاليّات جاءت خطّة البحث مكوّنة من مقدّمة ،ومدخل ،وأربعة فصول ،وخاتمة.

أمّا المدخل الموسوم **بالمجال المفاهيمي لمصطلحات الدّراسة** تضمّن ثلاثة مباحث أساسيّة الأوّل يتعلّق بالتّداولية النّشأة ،والتّطور ،والثّاني بماهية الخطاب ،والخطاب الدّيني والثّالث عُنون بابن نُباتة الفارقي خطيبا.

خصّص **الفصل الأوّل للإشاريّات التّداولية في ديوان خطب ابن نباتة** ،وقد تطرّقنا فيه إلي تعريف الاشاريّات ،وأهمّيتها في التّحليل التّداولي للخطاب ،ثمّ بينّا في هذا الفصل أنواعها، وهي:الإشاريّات الشّخصية ،والإشاريّات المكانيّة ،والإشاريّات الزّمانية ،فقد تمّ الوقوف على تعريف كلّ نوع ،وإبراز تجلّياته في الدّيوان من خلال تحليل خطبه.

في حين جاء **الفصل الثّاني** موسوما **بالافتراض المُسبق ،والاستلزام الحواري في ديوان خطب ابن نُباتة** ، وقد تمّ الوقوف فيه على تجليات الافتراض المسبق في الديوان ،وذلك بتحديد مفهوم الافتراض المسبق مع إبراز أهميّته التّداولية من خلال الوقوف عليه في خطب الديوان ،لننتقل فيما بعد إلى الاستلزام التّخاطبي كمبحث تداوليّ وذلك بعرض مفهومه ،وأسسه الّتي تضمن للخطاب نجاحه (مبدأ التعاون) ،وإمكانيّة ممارسته في الخطاب الديني من خلال انتهاك قواعد التّعاون في خطب ابن نباتة (خرق قاعدة الكم ، انتهاك مبدأ الكيف، انتهاك مبدأ العلاقة ،انتهاك مبدأ الطريقة).

أمّا بالنّسبة للفصل الثالث فقد جاء بمثابة دراسة تطبيقيّة لثالث درجات التحليل التّداولي على حدّ تقسيم (hanson) وهي نظريّة أفعال الكلام ، وعليها تمّت عنونة الفصل **بـالأفعال الكلاميّة في ديوان خطب ابن نباتة،** حيث عالجنا نظريّة أفعال الكلام من خلال التّطرّق إلى مفهوم الفعل الكلاميّ ،وتطوّره عند كلّ من "جون أوستين(J.L.Austin) ،وتلميذه سورل(J.R.Searle) ،لنأتي للمجال التّطبيقي لهذه النظريّة من خلال الوقوف عليها في خطب الدّيوان من أجل استخراج أفعال الكلام فيه بمقترح "سورل" ،وبالتّالي إخضاع الخطاب الدّيني لابن نُباتة الفارقي في هذا الدّيوان لآليّات هذه النظريّة، واكتشاف مقصديّتها الخطابيّة المختلفة.

وسُطِّر **الفصل الرابع** تحت عنوان **الحجاج ،وآليّاته الإقناعيّة في خطب ابن نباتة** وتضمّن أربعة مباحث رئيسة الأوّل يتعلّق بمفهوم الحجاج لغة واصطلاحا ،والثّاني بآليّات الحجاج الإقناعيّة ،وتطبيقاتها في خطب ابن نُباتة حيث تناولنا فيه بالتّطبيق مقدمّات الحجاج ،وتقنيّاته ،وطرائقه في خطب الديوان ،ثمّ عرّجنا في الثّالث إلى آليّات الحجاج البلاغيّة ،وبنياتها الإقناعيّة في خطب ابن نُباتة إذ تمّ استحضار فيه بعض الأساليب البلاغيّة التي أسهمت في إثراء مسالك الفهم،والإقناع ،والمتمثّلة في الصّور البيانيّة وفنون البديع ،وفي الرّابع تمّ الوقوف على السّلم الحجاجي ،وأدواته في خطب الدّيوان،نظرا لما يطّلع به من أدوار فعّالة في انسجام الخطاب من ناحية ،وفي توجيه الخطاب من ناحية أخرى.

وفي الأخير تأتي الخاتمة التي تعدّ بمثابة تسجيل لأهمّ النتائج المتوصل إليها في البحث.

وقد اعتمد البحث على المنهج الوصفي الذي ساعدنا على رصد أهمّ المعلومات الخاصّة بتأسيس مباحث التّداولية كجانب نظري يسبق الدّراسة التّطبيقية ،التي اتّبعنا فيها المنهج التّداولي الذي يعدّ مستوى تصنيفي إجرائيّ في الدّراسات اللّغوية المعاصرة يتجاوز المستوى الدّلالي ،ليبحث في علاقة العلامات اللّغوية بمؤوّليها ،وعلاقتها بالسّياق الذي وردت فيه من خلال دراسة ما يعنيه الخطاب في سياق معيّن ،ومعرفة أثر هذا السّياق على لغة الخطاب عند انتاجه مع إيلاء عناصر هذا السّياق أهميّة ،وهي المتمثّلة في مقاصد المرسل ،وظروف الخطاب الخارجيّة ،والعلاقة بين طرفي الخطاب أي البحث في خصائص تداول الخطاب الديني بين المتكلّم ،والسّامع .

في حدود بحثنا عثرنا على مجموعةٍ من الدّراسات الهامة، التي تعلقت بالخطاب الديني ودراسته لسانيا، و لعلّ من أهمّها:

– دراسةٌ للدّكتور بومنقاش الرحموني معنونةٌ بـ: الضّوابط التّداولية للنّص الدّيني "التّفسير أُنموذجا".

– ومقال للدّكتور اليامين بن تومي المعنون بـ التّسييق والتّاريخانية الجديدة في الخطاب الديني .

– الدكتورة ناجية الوريمي حول: خطاب التجديد الديني وأزمة المنهج .

–أطروحة دكتوراه بعنوان : "تداوليّة الخطاب واستراتيجيّة التّواصل اللّغوي في الخطاب الدّيني"؛ إعداد الطالبة أحلام بن عمرة .

–أما فيما يخص الديوان فقد وجدت دراسة فنية حوله بمقال معنون بخطب ابن نباتة الفارقي الرؤية والفن لصاحبه خالد بن محمد الجديع .

استندنا في هذا البحث على مراجع عدّة أهمّها:

– آفاق جديدة في البحث اللّغوي المعاصر لـ:محمود أحمد نحلة ،

–إستراتجيات الخطاب– مقاربة تداولية لغوية– لـ:عبد الهادي بن ظافر الشّهري.

–التّداوليّات علم استعمال اللّغة لـ:حافظ إسماعيل علوي.

–اللّسان، والميزان أو التّكوثر العقلي لـ: طه عبد الرحمن.

–النظرية البرجماتية اللسانية ، لـ : محمود عكاشة

– نظرية أفعال الكلام لـ:جون أوستين .

ومن أهمّ الصّعوبات التي واجهت البحث:

–جدّة الموضوع ، كما أنّ اتّساع مباحث الدّرس التّداولي بسبب تعدّد مصادره المعرفيّة وطغيان الجانب الفلسفي في بعض الدّراسات التي تناولت هذه النّظرية حال دون الإلمام الكلّي بمباحثها ناهيك عن ندرة الدّراسات التي تناولت الخطاب الدّيني بلغته العادية على وفق المنهج التّداولي.

– قلّة الدّراسات التي تسلّط الضّوء على حياة الخطيب ،وخطبه فكلّ ما وجدناه عبارات متناثرة في بعض الكتب الأدب والتّراث ،ولكن بعون الله تعالى تمّ تخطّيها ،ويرجع الفضل الكبير لذلك بعد الله عزّ وجلّ ،لأستاذتي المشرفة على البحث الأستاذة الدّكتورة الفاضلة "نعيمة سعديّة" التي تحمّلت عبء الإشراف على هذا البحث بصبر جميل وسعة صدر لكل ما يصدر عنّي ،فقد عملت على تشجيعي في لحظات الإحباط التي كانت تنتابني أحيانا حيث منحتني من وقتها وجهدها ما يعجز اللّسان ،والقلم عن القيام بشكرها ،فكانت نعم

الأستاذة المشرفة وخير عون لي بتوجيهاتها الدّقيقة ،وتوصياتها السّديدة ،ولفتاتها الطيّبة الرّشيدة فجزاها الله عنّي كريم الجزاء .

وفي الختام نسأل الله تعالى سداد الرّأي و الرّؤية، فقد بذلت في هذا البحث ما بوسعي فما كان من خير ،وحسنة فمن توفيقات ربّي جلّ جلاله ،وتوجيهات مشرفتي حفظها الله ،وما كان فيه من زَلل وخطأ فمن نفسي ،وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

المدخل:

المجال المفاهيمي لمصطلحات الدّراسة

أوّلا : التّداولية النّشأة ، و المفهوم

ثانيا : في ماهية الخطاب والخطاب الدّيني

ثالثا: ابن نُباتة الفارقي خطيبا

أوّلا : التّداولية النّشأة والمفهوم :

لم تكن ولادة التّداولية (Pragmatique)* دفعة واحدة ؛بل كانت على دفعات بسبب اختلاف العلوم التي انبثقت منها ؛إذ تعاقبت عليها تيّارات حتى نضجت ،واستوى عودها إذ أنه،وقبل ظهورها كعلم مستقّل خاص له كينونته ،ومفاهيمه الإجرائيّة تعالقت مع كثير من العلوم متأثّرة بالدّراسات الفلسفيّة والمنطقيّة والقانونيّة والاجتماعيّة وغيرها،ويرجع أوّل استعمال لهذا المصطلح إلى الفيلسوف تشارلز موريس (Wliam Mouris CHarls) سنة 1938 من خلال تقسيمه الثّلاثي بين حقول علم العلامات النّحو،والدّلالة، والتّخاطبيّة أو التّداولية واعتبر هذه الأخيرة«جزء من السّيميائيّة التّي تعالج العلاقة بين العلامات،ومستعمليها» [1] ،إلاّ أنّ هذا التّعريف يتّسم بالشّساعة ؛لأنّه يتعدّى المجال اللّساني إلى السّيميائي، أمّا الفيلسوف الأمريكي تشارلز سندرس بيرس (CH.S.Peirse)،فقد ميّز بين المواد الدّالة والمدلول، كما توجد صيغة لسانيّة تداوليّة أساسيّة تُلخّص فكره (أي فكر بيرس) ، تقول هذه الصيغة:« لكي تبلور دلالة فكرة ما، يجب علينا بكلّ بساطة تحديد العبارات التي تُولّد هذه الأدلّة، ذلك أنّ دلالة شيء ما إنّما تتمثّل ببساطة في العبارات التي تتولّد عنها.

إنّ السّمة المميّزة للعادة إنّما تكمن في الكيفيّة الّتي تحملنا على العمل ،لا في الظّروف المحتملة فحسب ؛ بل كذلك في الظّروف المُمكنة الحصول ؛بل حتّى في تلك الّتي يتعذّر تصوّرها» [2] ؛وبحديثه هذا يُركّز على أنّ العالَم بالنّسبة إليه يُدرَك بالممارسة ،والتّطبيق ،والفعل لمختلف الأفكار حتّى تتّضح مدلولاتها ،بعدها أسّس الفيلسوف فيتغنشتاين **(Wittgenstein)** اتّجاهاً جديداً سمّاه فلسفة اللّغة العادية من خلال الحديث عن طبيعة اللّغة ،وطبيعة المعنى في كلام الإنسان العادي،و«أهمّ ما يُميّز فلسفة فينغشتاين التّحليليّة بحثه في المعنى ،وذهابه إلى أنّ المعنى ليس ثابتا ،ولا محدّدا» [3]، فرُؤيته تدعو إلى تفادي البحث في المعنى المنطقيّ

*لتداخلها بكثير من العلوم فقد عرضت لها كثير من التّرجمات في اللّغة العربيّة منها: الذّرائعيّة،والمقصديّة،والمقاميّة،إلى جانب التّداولية،وأفضل هذه التّرجمات (التّداولية) إذ هي من تداول اللغة بين المتكلم والمخاطب، أي التفاعل القائم بينهما في استعمال اللغة،ينظر:محمود أحمد نحلة،آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر،دار المعرفة المصرية،2006م،ص 52

[1]–فرنسواز أرمينيكو،المقاربة التداولية،ترجمة:سعيد علوش،الرباط،المغرب،1986م، ص 12.

[2]– الجيلالي دلاش،مدخل إلى اللسانيات التداولية،ترجمة:محمد يحياتن،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،1992م،ص08

[3]– مسعود صحراوي،التداولية عند العلماء العرب،ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر،بيروت،لبنان، 2005م،ص 20

الصّارم للغة في حديثها ،ويعرض فكرة (ألعاب اللّغة) ،و«هي تعبير يوضّح كم هو مهمّ أن تأخذ بعين الاعتبار سياق الملفوظيّة إذا تعلّق الأمر بفهم دلالة التّعبير اللّغوي أو شرحه»[1] .

غير أنّ التّداولية «لم تُصبح مجالا يُعتدّ به في الدّرس اللّغوي إلّا في العقد السّابع من القرن العشرين؛ بعد أن قام على تطويرها ثلاثة من فلاسفة اللّغة هم أوستن(Austin) وسيرل (Searle) ،وجرايس(Grice)،وقد كانوا جميعا مهتمّين بطريقة توصيل معنى اللّغة الإنسانيّة من خلال إبلاغ مرسل رسالة إلى مستقبل يُفسّرها،وكان هذا من صميم عملهم ،وهو من صميم التّداولية أيضا»[2] .

وقد برزت التّداولية بشكل خاص بنظريّة الأفعال الكلاميّة التي تبنّاها أوستن (Austin)،وطوّرها من بعده سيرل (Searle)،وبعض فلاسفة اللّغة من بعده ما ؛ لتتضّح فيما بعد المحاور الأساسيّة للدّرس التّداولي(الاشاريّات،الافتراض المسبق،الاستلزام التّخاطبي أفعال الكلام) .

هذا تصوّر بسيط لأهمّ النّظريات الّتي أسهمت بشكل بارز في إرساء معالم التّداولية ويبقى استعراض مَنشئها ليس بالأمر الهيّن لا سيما ،وأنّها مدينة لعديد من التيّارات الفكريّة .

اكتسبت التّداولية طابع التوسّع ،والثّراء في دراستها لجوانب مختلفة للّغة ممّا جعل الوقوف على مفهومها صعب التّحديد«لأنّ هذا التّعبير يُغطّيه العديد من التّيارات من علوم مختلفة تتقاسم عددا من الأفكار ...واللّسانيون ليسوا وحدهم المعنيّين بالتّداولية ؛بل تعني الكثير من علماء الاجتماع إلى المناطقة ؛وتتجاوز اهتماماتها بمجموع الأبحاث المتعلّقة بالمعنى ،والتّواصل،وتطغى على موضوع الخطاب لتصبح نظريّة عامّة للنّشاط الإنساني»[3]

فاكتسبت التّداوليّة بذلك عدداً من التّعريفات، حسب اهتمام الباحث نفسه ،ومجال تخصّصه لذا سنحاول رصف ما جاء من تعريفات فمادّة "دول" لا تكاد تخرج في معاجمنا العربيّة عن معنى التّحول والتّبدّل،والانتقال،وقد وردت في معجم مقاييس اللّغة على أصلين: « أحدهما يدلّ على تحوّل شيء من مكان إلى آخر ، والآخر يدلّ على ضعف واسترخاء

---

[1] - خليفة بوجادي،في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ط 1،بيت الحكمة للنشر والتوزيع العلمة الجزائر، 2009م، ص51

[2] - محمود أحمد نحلة ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص09-10

[3] - خليفة بوجادي ، في اللسانيات التداولية ، ص 52

فقال أهل اللّغة: إندال القوم إذا تحوّلوا من مكان إلى مكان ؛ومن هذا الباب، تداولَ القوم الشّيء بينهم:إذا صار من بعضهم إلى بعض.والدَّولة والدُّولة لغتان.ويقال بل الدُّولة في المال والدَّولة في الحرب،وإنما سُمّيا بذلك من قياس الباب؛لأنه أمر يتداولونه فيتحوّل من هذا إلى ذاك،ومن ذاك إلى هذا»[1].

وجاء في لسان العرب لابن منظور (ت711هـ):«تداولنا الأمر أخذناه بالدول ...ودالت الأيّام أي دارت ،وتداولته الأيدي أخذته هذه مرّة وهذه مرة »[2]،ومجموع هذه المعاني:التّحول ،والتّناقل: الذي يقتضي وجود أكثر من حال ،ينتقل بينها الشّيء ،وتلك حال اللّغة؛ متحوِّلة من حالٍ لدى المتكلّم إلى حال أخرى لدى السّامع،ومتنقلة بين النّاس يتداولونها بينهم؛ولذلك كان مصطلح(تداولية)أكثر ثبوتا–بهذه الدّلالة–من المصطلحات الأخرى الذّرائعية النّفعية السّياقيّة وغيرها.

تعدّدت تعاريف التّداولية في مفهومها الاصطلاحي ،وذلك حسب ترجمتها ،ووظيفها وكانت ترتكز على أساس في ذلك :هو دراسة اللّغة أثناء استعمالها واستخدامها في سياق التخاطب،فـ«التّلفّظ هو النّشاط الرّئيس الّذي يمنح استعمال اللّغة طابعها التّداولي»[3]،ولا قيمة للمفردات أو العبارات بعيدة عن سياقها،إذ لا بدّ من دراسة المفردات ،والعبارات التي يوجّهها المتكلّم داخل السّياق ،ومن خلال الظروف المحيطة به ،وكذا زمان ومكان التّخاطب لكي تتّضح مقاصد المتكلّم ،والمعاني المطلوب إيصالها للمخاطب ،والّتي يرمي إليها المُتكلّم في حدّ ذاته ؛لأنّنا نُدرك أنّ اللّغة«كلام محدّد صادر من مُتكلّم مُحدّد بلفظ مُحدّد في مقام تواصلي مُحدّد لتحقيق غرض تواصلي مُحدّد» [4]،واهتمام التّداولية بالجانب التّواصلي أعاد الاعتبار للّغة بكونها كنزاً من المقاصد والمعاني، يستمدّ منه النّاس ما يكفي لتحقيق أغراضهم ،والإفصاح عن أفكارهم ،مع التّركيز على كلّ جوانب العمليّة التّواصليّة من

---

[1] – أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين ،معجم مقاييس اللغة، ط2،تحقيق:عبد السلام محمد هارون،دار الجيل، 1991م، ج 2، ص314(مادة دول)

[2] – محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري جمال الدين أبو الفضل ، لسان العرب، ط 3،دار صادر بيروت المجلد11، 1994م ،ص 252–253(مادة دول)

[3]–عبد الهادي بن ظافر الشهري،استراتيجات الخطاب مقاربة تداولية، ط1، دار الكتاب الجديدة المتحدة،بيروت، 2004م ص 27

[4] – مسعود صحراوي ، التداولية عند علماء العرب ، ص 26

مخاطب ومُتكلّم وسياق ،فتصبح اللّغة في النّهاية كائناً حيّاً حقيقيّاً له كلّ التّأثير ،والتّأثّر في إنتاج الخطاب التّداولي ،وتركز التّداولية أيضا على معنى المرسل« في كيفيّة قدرته على إفهام المرسل إليه ،بدرجة تتجاوز معنى ما قاله»[1]؛ فهي تُمكّننا من إدراك المعايير ،والمبادئ الّتي تُوجّه المرسل عند إنتاج الخطاب بما في ذلك «استعمال مختلف الجوانب اللّغوية، في ضوء عناصر السّياق،بما يكفل ضمان التّوفيق من لدن المُرسَل إليه عند تأويل قصده وتحقيق هدفه»[2] ،فهي فرع لغويّ يبحث في كيفيّة اكتشاف السّامع مقاصد المُتكلّم كأن يقول شخص(افتتحت الجلسة) فقد يعني الالتزام بالسّماع أو نحو قوله لمن يدخل عليه المكتب ويترك الباب مفتوحا:ألا ترى أنّ الجوّ بارد،وقصدُه في ذلك أن:أغلق الباب،وعلى السّامع أن يُدرك ذلك القصد لنجاح التّواصل،وإحداث التّفاعل فليس من الضروري أن يكون إخباراً بغلق الباب فكثيرًا ما يعني أكثر مما تقوله كلماته،وهي بهذا«تخصّص لسانيّ يدرس كيفيّة استخدام النّاس للأدلّة اللّغويّة في صُلب أحاديثهم خطاباتهم ،كما يعنى من جهة أخرى بكيفية تأويلهم لتلك الخطابات والأحاديث» [3] ؛ومن هنا فإنّ أشمل تعريف للتّداولية هو «دراسة اللّغة في الاستعمال أو في التّواصل ؛لأنّه يشير إلى أنّ المعنى ليس شيئاً مُتأصّلاً في الكلمات وحدها ولا يرتبط بالمُتكلّم وحده ،ولا السّامع وحده ،وإنّما يتمثّل في تداول اللّغة بين المُتكلّم ،والسَّامع في سياق محدد(مادّي، اجتماعي لغويّ) وصولاً إلى المعنى الكامن في كلام ما» [4]،ونتيجة فإنّه يُمكن حصر العناصر التي يهتمّ بها المُنظِّرون للتّداوليّة في«المرسل وقصده ونواياه والمُتلقّي ،والرّسالة ،والسّياق ،ثمّ أفعال اللغة».[5]

وأهمّ قضاياها التي تحاول الإجابة عنها ،وهي لُبّ وصميم موضوعها:«ماذا نفعل عندما نتكلّم؟ ،ماذا نقول عندما نتكلم؟،من يتكلم؟ ،ومَن يُكلّم المتكلّم إذن؟ ،ولماذا يتكلّم على هذا النّحو؟ كيف يمكن أن يُخالِفَ كلامُنا مقاصِدَنا؟ ما هي أوجه الاستخدام المُمكنة للّغة؟... ومن أجل تأويل العناصر التي ترد في خطاب ما ،من الضروري أن نعرف من هو المتكلّم

---

[1]–عبد الهادي ظافر الشهري،استراتيجات الخطاب مقاربة تداولية، ص22

[2]–المرجع نفسه ، ص ن

[3]– الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية ، ص01.

[4] – محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص14.

[5]– بوقره نعمان،التصور التداولي للخطاب اللساني عند ابن خلدون، مجلة الرافد، يناير، 2006م،ص83.

ومن هو المستمع ،وزمان ومكان إنتاج الخطاب»[1]؛«فمعتقدات المُتكلّم ومقاصده ،وشخصيّته وتكوينه الثّقافي ،ومن يشارك في الحدث الخطابي ،والمعرفة المشتركة بين المتخاطبين والوقائع الخارجيّة ،ومن بينها الظّروف المكانيّة والزّمنيّة ،والعلاقات الاجتماعية بين الأطراف هي أهمّ ما تركز عليه التّداولية».[2]

ويعني هذا أنّ المقاربة التّداولية الخطاب تقتضي دراسته في علاقته بالسّياق التّواصلي ،والتّركيز على أفعال الكلام،واستكشاف العلامات المنطقيّة الحجاجيّة ،والاهتمام بالسّياق التّواصلي ،والتّلفظي،وبتعبير آخر،تركز المقاربة التّداولية على عنصر المقصديّة والوظيفة في النّصوص والخطابات الأدبيّة الشّعرية أو النّثرية ؛وبهذا تكون التّداوليّات قد تجاوزت سؤال البنية،وسؤال الدّلالة،لتهتمّ بسؤال الوظيفة ،والدّور ،والرّسالة ،والسّياق الوظيفيّ،والبُعد التّداولي في النّصوص الأدبيّة ينبني على سلطة المعرفة ،والاعتقاد للمتكلّم والمتلقي.

ثانيا : في ماهية الخطاب ،والخطاب الديني :

حدّ الخطاب«أنّه كل منطوق به موجّه إلى الغير بغرض إفهامه مقصودا مخصوصا مع تحقيق أهداف معينة»[3] ؛وقد اشتق لفظ الخطاب من الجذر اللغوي(خطب) ،التي لها دلالات متنوعة في المعاجم العربية ومنها:

ما ذكره الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت170هـ)،في صيغة الخطاب:بأنّه مراجعة الكلام[4] وقال ابن دريد(ت231هـ):«وخطب الرجل خطابة فهو خطيبٌ بينُّ الخطابة،واسم الكلام الخطبة ...والخطاب مصدر خاطبته مخاطبة وخطاباً . والخطب الأمر العظيم»[5]، وجاء في في كتاب المفردات في غريب القرآن:« الخطب والمخاطبة والتخاطب المراجعة في الكلام ...وفصل الخطاب:ما ينفصل به الأمر من خطاب»[6]، أمّا ابن منظور فقال:«...والخَطب

---

[1]–محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب،ط1، بيروت، المركز الثقافي، 1991م ،ص297 .

[2] –عبد الحميد السيد،دراسات في اللسانيات العربية بنية الجملة العربية،ط1،دار الحامد،عمّان،الأردن،2004م،ص120 .

[3]– عبد الهادي بن ظافر الشهري استراتيجات الخطاب مقاربة تداولية ، ص39

[4]–ينظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي،العين،ط1، تحقيق:عبد الحميد هنداوي ،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،2003م ج1،ص 419 (مادة خطب).

[5]– أبو بكر بن دريد،جمهرة اللغة،ط1،تحقيق:مزي منير بعلبكي،دارالملايين،بيروت،لبنان،1987م، ص291 (مادة خطب)

[6]– الراغب الاصفهاني،المفردات في غريب القرآن،تحقيق:محمد سيد كيلاني،دارالمعرفة،بيروت، لبنان، ص150

أُلأمر الذي تقع فيه المخاطَبة...والخطاب والمخاطبة، مراجعة الكلام ،وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا وًهما يتخاطبان...»[1] ،هذا ولا يختلف مفهوم الخطاب في المعاجم العربية ،فهو تكرار للمعنى نفسه إلّا أنّ الزمخشري (ت538هـ) ذكر له معنى المحاورة؛وذلك في سياق تفسيره لقوله تعالى:﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ ﴾ -(الكهف :37)- ،فيحاوره بمعنى يراجعه الكلام[2].

ويتبيّن أنّ المعنى اللغوي يشير لما هو ملفوظ ،أيّ إلى الكلام المنطوق، كما يحمل معنى المشاركة ،والمواجهة.

وقد وردت صيغة(الخطاب) في القرآن الكريم ثلاث مرات وبدلالات مختلفة: ففي قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾-(النبأ :3)- تدل صيغة الخطاب على الكلام،أي لا يستطيعون تكليمه إلا بأذنه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ (ص:20) ورد (الخطاب) هنا بمعنى الكلام الذي يتبيّنه المخاطب دون لبس،وفصل الخطاب:البيان في الكلام فتكون الكلمات على قدر المعاني ،ليس بإيجاز مخل ،ولا إطناب ممل.

وقول ه تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾ -(ص : 23)- ، فالخطاب بحسب سياقه يدل على الحجاج والجدال[3].

أما في المعاجم الأجنبيّة فإنّ الخطاب « مصطلح ألسني حديث يعني في الفرنسية Discourse ، وفي الإنجليزية Discourse، وتعني حديث ، محاضرة ، خطاب خاطب ، حادث ، حاضر ، ألقى محاضرة، وتحدث إلى»[4].

وجدت للخطاب تعريفات في التّراث العربي القديم ،وخاصّة عند الأصوليّين ،وهو ما ذكره

---

[1]- ابن منظور ، لسان العرب،ص 361-362(مادة خطب)

[2]- ينظر:أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد،الزمخشري جار الله ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ط3، تحقيق : خليل مأمون شيحا ، دار المعرفة للطباعة للنشر، والتوزيع ، بيروت ، لبنان ،2009م،ص 620

[3]-ينظر: المرجع نفسه،ص 923

[4]- إلياس أنطون إلياس، قاموس إلياس العصري، دار الجليل، بيروت،1972م، ص191.

الآمدي(ت631هـ)بأنّ الخطاب هو« اللّفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه»[1] ،وهو ما ذهب إليه أبو البقاء الكفوي(ت1094 هـ)،فالخطاب عنده كلام موجّه لمن هو متهيّئ لفهمه،أما إذا لم يتهيّأ لفهمه،أولم يقصد به الإفهام فلا يسمى خطابا[2] ،وجاء في كشّاف اصطلاح الفنون والعلوم أنّه«توجيه الكلام نحو الغير للإفهام»[3] ،ومن هنا يغدو واضحاً بأنّ الخطاب هو لفظ مركب مفيد متواضع عليه ،فيشترك بذلك مع الكلام ؛لأنّ الكلام هو «اللّفظ المفيد فائدة يحسن السّكوت عليه»[4] ،إلّا أنّ الخطاب يشترط فيه الإفهام والتهيؤ له من المتلقي ،ويحمل القصدية التأثيرية ،وهو ما لا يشترط في الكلام ،وهذا يعني أنّ كل خطاب كلام ،وليس العكس.

ومن ثمّ لا يخرج مصطلح الخطاب عن عنصري اللغة ،والكلام «فاللّغة عموماً نظام من الرموز يستعملها الفرد للتعبير عن أغراضه ،والكلام إنجاز لغوي ،وفردي يتوجّه به المتكلّم إلى شخص آخر يدعى المخاطَب ،ومن هنا تولدّ مصطلح(خطاب) بعده رسالة لغوية بثّها المتكلّم إلى المتلقّي فيستقبلها ،ويفكّ رموزها»[5] ،ويتبيّن من تعريفات الخطاب أنّ تراثنا العربي لمس في تركيبة الخطاب دوراً تداوليّاً.

للخطاب تعريفات عدّة عند المحدثين ؛وذلك لكثرة الدراسات التي تناولتها،ومنها عند اللسانيين ،إذ عُرّف الخطاب بأنّه« مجموع الأقوال ،الملفوظات الكلامية أو غير الكلامية»[6] وجاء في تحليل الخطاب الروائي بأنّ الخطاب هو «اللغة في طور العمل أو اللسان الذي

1- علي بن محمد التغلبي الآمدي سيف الدين أبو الحسن ، الأحكام في أصول الأحكام، دار الكتب العلمية ، بيروت 1982م ، ص 136

2 - ينظر: أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي، الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية،،ط2،تحقيق،عدنان درويش،محمد المصري مؤسسة الرسالة ، بيروت،1998م،ص173

3- محمد علي التهاوني ،كشاف اصطلاح الفنون والعلوم،ط2، تحقيق :لطفي عبد البديع،عبد النعيم محمد حسين،المؤسسة المصرية للكتاب،مصر،القاهرة ،1982م،ج2،ص 158

4 - محمد محي آلدين عبد الحميد، شرح ابن عقيل ومعه كتاب منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل ، دار الطلائع للنشر والتوزيع، القاهرة،2009م، ج1، ص16

5- نورة قطوش،بنية الخطاب الشعري في العهد الحفصي خلال القرن السابع الهجري،رسالة ماجستير،بإشراف الدكتور كمال عجالي ، جامعة الحاج الخضر باتنة، الجزائر ،2010م، ص 10-11

6- أ.مولر،ك .زيلتمان ،ك .أوريكيوني، في التداولية المعاصرة والتواصل،ترجمة:محمد نظيف،ط1، فصول مختارة أفريقيا الشرق ، المغرب، 2014 م، ص 155

تتجزه ذات معينّة كما أنّه يتكوّن من متتالية مرسلة لها بداية ونهاية»[1] ،وذّكر في المصطلحات المفاتيح أنه:« كل وحدة تتجاوز حجم الجملة»[2] ،أمّا عند ديكرو فيشكّل: «تتابعاً لملفوظات تتقاسم المقتضيات نفسها»[3] ،وعرّفه أحمد المتوكّل بأنّه:« كل تعبير لغوي أيّاً كان حجمه أنتج في مقام معين قصد القيام بغرض تواصلي معين »[4] ،ويلاحظ بأنّ أحمد المتوكل لم يحدّد حجماً معيناً للخطاب،من ناحية الشّكل،فهو عنده تعبير مرتبط بالمقام وبالغرض التواصلي،ويستنتج ممّا تقدّم بأنّ الخطاب على مفهومين:

الأول: أنّه الملفوظ الموجّه إلى الغير ،لإفهامه قصدا مًعيناً،وهذا التّعريف يتّفق مع ما ورد عند العرب،وأمّا الثّاني: فيتّسم بجدّته في الدّرس اللّغوي،ويُعرّف:بالشّكل اللّغوي الذي يتجاوز الجملة[5] ،ويتّضح بأنّ الخطاب لم يعرّف تعريفاً محدداً جامعاً مانعاً:وإنّما جاءت تعريفاته على على وفق ثلاثة مناهج [6] :

الأوّل : منهج الشّكليّين : ووصف بأنّه الوحدة الأكبر من الجملة ،والثّاني :المنهج الوظيفي : وهو كل إنتاج لغوي يربط بين البنية الدّاخلية ،وظروف الخطاب المقاميّة الخارجيّة أمّا المنهج الثّالث : فإنّه جمع بين المنهجين ،وعلى هذا فالخطاب ينقسم على قسمين: ما يتعدّى الجملة إلى وحدات أصغر،أو يكون حاصل التّأليف من مجموعة من الجمل ،أي أكثر من كونه سلسلة اعتباطية[7]،ويمكن تقسيم الخطاب على وفق ثلاثة معايير:

أوّلا: معيار الغرض : إذ يميّز بين الخطاب الخبري ، والإنشائي.

وثانيا:معيار الفحوى : وبها ينظر في دلالة الخطاب ،أهي صريحة أم ضمنية؟.

---

[1]– سعيد يقطين ،تحليل الخطاب الروائي، ،ط 3 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ،1983 م ، ص46

[2] – ماري نوال غاري بريور، المصطلحات المفاتيح في اللسانيات ،ترجمة:عبد القادر فهم الشيباني ،ط1، سيدي بلعباس الجزائر ،2008 م، ص 49

[3]– المرجع نفسه ،ص ن

[4]–أحمد المتوكل،قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية.بنية الخطاب من الجملة إلى النص، دار الأمانات للنشر والتوزيع ، الرباط ، ص 18

[5] – ينظر: عبد الهادي ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية،ص 36–37

[6]– ينظر : المرجع نفسه، ص 37–38

[7]– أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية.بنية الخطاب من الجملة إلى النص،ص17

وثالثا : المجال : وهو الفاصل بين أنماط الخطاب ،إذا كان دينياً أو سياسياً أو ...،[1].

ويمكن أنْ يتنوّع بحسب ما يتعلّق بالغرض كالخطاب الحجاجي،والوصفي،والسّردي والاجتماعي ... ،أو بحسب نوع المشاركة،كالخطاب الحواري الداخلي أو الخارجي،أو على وفق طريقة الخطاب،مباشرة ،أوغير مباشرة ،أو بحسب نوع القناة ،شفويّاً، أومكتوباً[2].

يُعتبر الخطاب رسالة اتّصالية تتحوّل من مرحلة الملفوظيّة ،والتّمظهر اللّساني إلى مرحلة التّلفظ ،والتّفاعل مع المرسل إليه في غياب عوائق الاتّصال ،وحضور سياق الاستقبال وفهم الرّسالة فهما صحيحا ،ممّا يحقق البعد التّداولي ،وإعطاء القارئ سلطة للتأويل،وإسناد الخطاب إلى إحالاته المرجعيّة ،وتجاوز فكرة موت المؤلّف ،والقارئ ،والتّعامل مع الرّسالة منغلقة على ذاتها ،واعتبارها نسقا مقفلا أمام مشاركة المرسل إليه ،وقد أوضح بول ريكور: «أنّ الخطاب هو الواقعة اللّغوية»[3] ، وأضاف- بوصف الخطاب إسنادا- أنّه:«إذا نظرنا من من وجهة نظر المحتوى الخبري، فيمكن وصف الجملة بسمة واحدة متميزة ،ألا وهي أنّ لها محمولا (Predicate) أو مسندا»[4] تحمل الرسالة المتمثّلة في الخطاب أفعالا أدائيّة إنجازيّه تؤثّر في المرسل إليه، وتكون تهديديّة أو جملة من الوعود مثلا،ويتم استيعابها بإعمال سياق الكلام ،وإسناد الجمل الخبرية إلى إحالاتها،وبالتالي يكون الخطاب نصّا منجزا.

وبين الخطاب والنّص علاقة قويّة جدّاً « فالخطاب مجموعة من النّصوص ذات العلاقات المشتركة ؛أي أنّه تتابع مترابط من صور الاستعمال النّصي يمكن الرّجوع إليه في وقت لاحق ،وإذا كان عالم النّص هو الموازي المعرفي للمعلومات المنقولة ،والمنشطة بعد الاقتران في الذّاكرة من خلال استعمال النّص فإنّ عالم الخطاب هو جملة أحداث الخطاب ذات العلاقات المشتركة في جماعة لغوية أو مجتمع ما ... أو جملة الهموم المعرفيّة التي جرى التعبير عنها في إطار ما»[5]، وهذا كلّه يدلّ على غنى موضوع الخطاب وسعته،فهو يتعدّد

---

[1]- ينظر:أحمد المتوكل:المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي الأصول والامتداد،ط1 ، دار الأمانات،الرباط،2008م ص 200

[2]- أحمد المتوكل،قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية.بنية الخطاب من الجملة إلى النص ص20،21

[3]- بول ريكور،نظرية التأويل،ترجمة:سعيد الغانمي، لمرآز الثقافي العربي،ط1 ، الدار البيضاء، المغرب، 2003م، ص04

[4]- المرجع نفسه،ص35

[5]- روبرت دي بوجراند، النص والخطاب الإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، ط1، 1998م، ص6.

نسبة لما يوصف أو يقترن به ،باعتباره كلّ منطوق به موجه إلى الغير بغرض إفهامه مقصودا مخصوصا مع تحقيق أهداف معينة،وتسهم عدة عوامل في بلورة عملية توصيل الخطاب هي المرسل،والمرسل إليه،والعناصر المشتركة متمثلة بالعلاقة بين طرفي الخطاب والمعرفة المشتركة،والظروف الاجتماعية العامة بما تفرضه من قيود تؤثّر على عمليّة التّوصيل،ويقوم أيّ خطاب على هذه العناصر الأساسيّة،وما يحيلها إلى عناصر سياقيّة تجعل منه ممارسة تجري تداوليّا ممّا يحول دون ثبات سماتها فالمرسل متجدّد،والمرسل إليه متجدّد كذلك.

لذا تتعدد أنواع الخطاب العربي وتختلف باختلاف مرجعيتها، ويأتي على رأسها الخطاب القرآني،وهو خطاب إلهي، مطلق ولا نهائي في دواله ومدلولاته، وأهم ما يميزه هو مرجعيته فالله سبحانه وتعالى هو المرسل، والقرآن كلمة الله نزلت على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، فهو كلمته التي تحمل كل صفاته ولا نها يته،إنه «خطاب يميل إلى مرجعية ثلاثيّة فهناك مرجعيّة الدّال، ويكون النّص على مثال مرسله ،وهناك مرجعية المدلول، ويكون النص فيها على مثال متلقيه، وهناك أخيراً، مرجعية النص نفسه على نفسه ويكون النّص فيها دالّاً ومدلولاً خالقاً لزمنه الخاص ودائراً مع زمن المتلقين في كلّ العصور، وسم ة القراءة في كل ذلك، أنّ كلّ واحدة من هذه ال مرجعيّات تستقلّ بذاتها ،وتطلب الأخرى في الوقت ذاته »[1] .

النّوع الثاني: ويمكن تسميته " الخطاب الإيصالي " ونماذجه متعددة سياسية، وإرشادية ووعظيّة وقضائيّة وإقناعيّة، واجتماعيّة، وإعلاميّة، ولقد ذهبت بعض الدراسات الحديثة إلى دراسة هذا النّوع من الخطاب تحت اسم « Pragmatique– La– النّفعية أو التداولية وهذه الدّراسات كما تقول (فرانسواز آرمينغو) تدرس اللغة ظاهرة استدلالية، وإيصاليه واجتماعية في الوقت نفسه »[2].

والنوع الثّالث: ويمكن أن « نسمّيه الخطاب الإبداعي(الشّعري) ،ونماذجه متعدّدة هي الأخرى، ولكن يتميّز عن الأوّل بأنّه خطاب يقوم على مبدأ الأجناس الأدبية »[3] .

---

[1] – منذر عياشي، مقالات في الأسلوبية، اتحاد الكتاب العرب،سوريا،1990م، ص 220.

[2] – منذر عياشي، مقالات في الأسلوبية ، ص146– 147.

[3] – المرجع نفسه ، ص215.

والخطاب الديني محطّ البحث يعد من أنواع الخطابات ذات الطابع الإيصالي،وهو مركّب من الخطاب والدين فالأول تم الوقوف على معناه اللغوي ،والثّاني الدّيني نسبة إلى الدّين ،والدّال والياء والنّون أصلٌ واحد إليه يرجع فروعُه كلُّها،وهو جنسٌ من الانقياد، الطاعة وعليه : فإن الأمر الدّيني أمر مختص بالدّين متعلّق به؛ فهو مصطلح لم يخرج عن المعنى اللغوي لألفاظه[1].

والمراد بالدين عند إطلاقه في تعبيرات المسلمين :الإسلام، وأما غير المسلمين فقد يريدون عموم الأديان وقد يقصدون الإسلام دون غيره.

لذلك فالخطاب الديني يطلق على أحد المعنيين، أحدهما عام ،والآخر خاص.

«المعنى الأوّل: أنّ الخطاب الدّيني كلّ سلوك أو تصرّف يكون الباعث عليه الانتماء إلى دين معيّن سواء أكان خطابا مسموعا أو مكتوبا أو كان ممارسة عمليّة.

وهذا الإطلاق العام نجده في كتابات غير المسلمين ظاهرا، ولذا فهم يعدّون كلّ تصرّف من المسلمين يكون الباعث عليه دينيا لونا من ألوان الخطاب الإسلامي.

المعنى الثاني :أن الخطاب الديني يراد به ما يصدر عن رجال الدين من أقوال أو نصائح أو مواقف سياسية من قضايا العصر ويكون مستندهم فيها إلى الدّين الذي يدينون به،وهذا الإطلاق أخص من الذي قبله، وأقرب للمعنى اللغوي»[2].

وبما أنّ ميدان بحثنا يختصّ بالدّين الإسلامي ،وبحكم انتمائنا له فسنحصر مفهوم الخطاب الدّيني من هذه الزّاوية فيكون الخطاب الدّيني «هو ذاك الخطاب أو تلك الخطابات المتعدّدة التي تجمع بين أشكال متعدّدة ،ومختلفة من الخطابات ؛القرآن الكريم،الحديث النبوي ،تفسير القرآن،علوم الدين ،الفقه،الوعظ... ؛»[3] أي هو مجمل الخطابات التي عملت وتعمل على توضيح صورة الإسلام؛ لأنّ « الخطاب الدّيني هو البيان الذي يوجّه باسم الإسلام إلى النّاس مسلمين وغير مسلمين لدعوتهم إلى الإسلام أو تعليمه لهم أو تربيتهم عليه عقيدة وشريعة ،عبادة ومعاملة ،فكرا وسلوكا ؛ لشرح موقف الإسلام من قضايا الحياة

[1] – المرجع نفسه ، ص 319

[2] – عياض بن نامي السلمي، تجديد الخطاب الديني(مفهومه وضوابطه)، مركز التميز البحثي في فقه القضايا المعاصرة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية،مجموعة من المحاضرات ، ص 06

[3] – محمد مشبال،بلاغة الخطاب الديني،ط1،منشورات الاختلاف،الرباط، 2015م، ص 289

والإنسان والعالم فرديّا أو اجتماعيّا روحيّا أو ماديّا نظريّة أو عمليّة»[1].

وهناك من يرى أنّ الخطاب الدّيني الإسلامي«هو الخطاب الذي يستند إلى مرجعيّة دينيّة من أصول الدّين الثابتة:القرآن والسّنة ،سواءً كان منتج الخطاب منظّمة إسلاميّة ،أم مؤسسة دعويّة رسميّة أو غير رسميّة أو أفراداً متفرقين،سعياً لنشر دين الله عقيدةً وشريعةً ،وأخلاقاً ومعاملات ،وبذل الوسع في ذلك»[2]، فهدفه إذن هو بذل الجهد لخدمة الدّين الإسلامي وتعريف النّاس به ،كما يعدّ الخطاب الدّيني تلك « الأقوال والنّصوص المكتوبة التي تصدر عن المؤسّسات الدّينية أو عن رجال الدّين،أوالتي تصدر عن موقف إيديولوجي ذي صبغة دينية أوعقائدية ،والذي يعبّر عن وجهة نظر محدّدة إزاء قضايا دينية أو دنيوية»[3] ،ويتميّز الخطاب الدّيني،«بعودته إلى منهج السّلف الصّالح،وتنقيته من الشوائب البدعية والخرافات»[4] ويمكن القول أيضا« بأن الخطاب الدّيني لاسيما المختص بالدّين الإسلامي يتمثّل بالرسالة التي نزلت من فوق سبع سماوات عن طريق الوحي، لتنظيم علاقات البشر مع خالقهم وأنفسهم وغيرهم ،هذا الخطاب هو الذي يحدّد المصلحة من المفسدة؛فهذا هو الخطاب الإسلامي المقدس الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه»[5].

ومن الجدير بالذّكر أنّ«المكوّن الأساسي للخطاب الدّيني هي:الرّسالة من حيث المحتوى والمضمون ،والمرسل ،وهو الفرد الذي تقع على عاتقه مسؤولية توصيل مضمون الخطاب الدّيني، والمستقبل وهو الجمهور الذي توجه إليه الرسالة»[6] ؛لأنّ عمليّة الإيصال لا تكون إلّا بوجود الأقسام الثّلاثة: المرسل، والمرسل إليه، والرسالة.

---

[1]–خالد رُوشه،الخطاب الإسلامي .. مقاربة منهجية، مقال منشور على موقع المسلم ، 20 محرم 1428، تاريخ الزيارة 2018/04/12،في الساعة 15:29 :http://almoslim.net/node/83776

[2]– عبد السلام حمود غالب،مفهوم الخطاب الديني،مقال منشور على موقع السكينة،2013/09/11، تاريخ الزيارة 2018/04/06، في الساعة 18:31 :https://www.assakina.com/news/news1/27831.html

[3]–إلهام المتمسك،الخطاب الديني عند الدكتور عباس الجراري المرجع و البنية، ط1،منشورات النادي الجراري، الرباط 2008م، ص 33

[4]– أحمدمحمد هليل، تحديات الخطاب الديّني في ظل التحوّلات المجتمعيّة والدوليّة الراهنة،المملكة الأردنية الهاشمية 2003م، ص 08

[5]– أبو الرشتة عطا، تيسير الوصول إلى الأصول،ط1،دار الأمة،بيروت،لبنان،1990م،ص 08

[6]– أحمد محمد هليل، تحديات الخطاب الديّني في ظل التحوّلات المجتمعيّة والدوليّة الراهنة، ص 09

وإنّ مقاربة هذا الخطاب مقاربة تداوليّة، تفرض علينا تجاوز حدود النّظر إلى نصوصه على أنّها مجرّد دلالات ومضامين لغويّة إلى ما فوق ذلك؛ إنّها نشاط لغوي يحاول أصحابه التّعبير من خلاله عن أغراض ،ومقاصد تهدف إلى تصوير مواقف شخصيّة ،واجتماعيّة بالألفاظ والعبارات،والتّأثير في المتلقّين بأيّ شكل من الأشكال ؛باعتبار أنّ اللّغة ليست وسيلة للتّواصل الاجتماعي فحسب ،وإنما هي أداة لتغيير الوقائع ،والتّأثير في العالم، وصنع أحداثه ،وعنوان مشروعنا يندرج ضمن المقاربة التداولية للخطاب الديني باعتباره يمتلك كل المواصفات النصية كغيره من الخطابات الأدبية الأخرى .

ويأخذ هذا الخطاب طابعا براغماتيّا ؛حينما ترتبط مضامينه بحاجات الأفراد وفق احتياجاتها ،ووفق أولوياتها باتّصال مقاصده بمعالجة التّحديات التي تواجهها الأمة ، فتعبر عنه «كل الخطابات الدينية البشرية ؛سواء أنتجها أصحابها في معرض تفسير القرآن ،أم في معرض الاجتهاد في إصدار الأحكام الدينية ،أم في معرض توصيل مبادئ الدين وتعاليمه واستلهامها»[1] ،ولذلك يتّخذ أشكالا عدّة منها الدّروس الوعظيّة وحلق العلم والوصايا ومجالس الفتوى على غرار الشّريط السّمعي والمرئي ....،وتعدّ الخطب فنّا رئيسيّا في إنتاجه.

والخُطبة لغويّا «مصدر الخطِب،وخَطَبَ الخَاطِبُ على المنبر ،وأختطب يخطب خطابة واسم الكلام:الخُطبة.قال أبو منصور :والذي قال الليث:إن الخُطبة مصدر الخطيب لا يجوز إلا على وجه واحد،وهو أن الخُطبة اسم للكلام الذي يتكلّم به الخطيب ؛فيوضع موضع المصدر »[2]

أمّا اصطلاحا فقد عرفت الخطابة بتعاريف كثيرة،لا يتباعد بعضها عن بعض ولكن منها ما ليس جامعاً لكل أنواع الخطبة وجزئيّاتها ،ومنها ما ليس مانعاً من دخول أشياء معها مثل الوصايا والدّروس ،والإعلانات وهكذا.

وأوضحُ وأدقّ ما عُرفت به الخُطبة أنّها « فنّ مشافهة الجمهور ،وإقناعه،واستمالته،فلابدّ للخطبة من مشافهة ،وإلّا كانت كتابة أو شعرا مدويا،ولابدّ من جمهور ،وإلّا كان الكلام حديثا أو وصية، ولابدّ من الإقناع ،وذلك بأن يوضّح الخطيب رأيه للسّامعين ،ويؤيده بالحجج

[1]– محمد مشبال،بلاغة الخطاب الديني،ص8

[2]– ابن منظور، لسان العرب ، ج1، ص 361

والبراهين، ليعتقدوه كما اعتقده،ثم لابدّ من الاستمالة ،والمراد بها أن يهيّج الخطيب نفوس السّامعين أو يهدئها ، ويقبض زمام عواطفهم يتصرّف فيها كيف شاء سارّا أومحزنا ضاحكا أو مبكيا،داعيا إلى الثّورة أو إلى السّكينة،فأساس الخطبة: مشافهة،جمهور ،إقناع،استمالة »[1]

وهكذا نجد أنّ الإقناع والتّأثير هما غاية الخطابة ،ومحورها الرّئيسي ،وهو ما تسعى إليه التّداولية في ممارستها التّحليلية للخطاب .

والخطبة تعدّ فنّا نثريّا،و وعاء يحتوي الخطاب الدّيني بشكل ناجح ففيها يجد الخطيب ضالّته ؛لأنّه يندب نفسه ليلقي في الناس كلاماً يتوخّى أن يكون بليغاً ومؤثراً، ليحقّق من ورائه غاية من الغايات فيحتاج لآليّات تحقّق هذه الغاية من استشهاد لآيات من الذكر الحكيم وأحاديث نبويّة بالإضافة إلى أبيات شعرية، أقوال فقهاء مفسّرين ،حكماء ،وكل ما من شأنه أن يجعل خطبته مقنعة ومؤثرة ،ويبدو أنّ المتصفّح لخطب ابن نباتة في ديوانه يجده قد وظّف كلّ ما من شأنه أن يجعل خطبه كذلك ؛إذ تُعدّ صورة صادقة عن حالة مجتمعه بوجه عام فقد عاين ابن نباتة أحوال الناس ونظر إلى أمورهم فعالج أمراضهم الاجتماعية والنفسية ،ووعظهم من ناحيتها ،وقد امتلك ابن نباتة الفارقي الموهبة الخطابية الرّاقية والقوّة الفائقة لإدراك خفايا النّفوس ،وتوجيه العواطف ،والمشاعر ،وجودة التّعبير الفنّي ،فوصل إلى مراده من الجمهور ،وتمكّن من التّواصل معهم والتّأثير فيهم ،وهذا ما سيسفر عليه التحليل التّداولي لخطبه .

ثالثا: ابن نباتة* الفارقي خطيبا :

الخطيب أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباته الحذاقي الفارقي وحُذاقه : بطن من قضاعة وقبيلة من إياد،والفارقي نسبة إلى بلده ميافرقين[2].

قال ابن خلكان:«هذا الخطيب لم أر أحداً من المؤرخين ذكر تاريخه في الميلاد والوفاة

---

[1]– أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة،ط3، دار نهضة، مصر ،القاهرة،ص05

*اشتهر بابن نباتة في الأدب العربي ثلاثة رجال: أولهم عبد الرحيم بن محمد بن نباتة الخطيب،والثاني محمد ابن محمد بن نباتة المصري الشاعر وصاحب "سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون" وهو من ذرية ابن نباتة الخطيب ،والثالث عبد العزيز بن نباتة السعدي أحد الشعراء المجيدين الذين مدحوا سيف الدولة ابن حمدان. ينظر: زكي مبارك،النثر الفني في القرن الرابع،ط2،مطبعة السعادة، مصر ،ج2، ص 59

[2]– ينظر: أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان،وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس دار صادر بيروت،1397هـ،ج3،ص 156 –157

سوى ابن الأزرق في تاريخه، فإنه قال :ولد في سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، وتوفى في سنة أربع وسبعين وثلاثمائة بميافارقين ودفن بها»[1]، أما نشأته فلا تكاد مظانّ ترجمته تسعفنا بشيء من ذلك،أو تحكي طرفا من أخبار طفولته وصباه،أو بعضا من شيوخه و تلامذه،وكل ما عثر عليه فيها أنه كان يحفظ(نهج البلاغة) المنسوب إلى الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه،وأنه اجتمع في حلب بأبي الطيب المتنبي وسمع عليه بعض ديوانه[2].

تتناثر في مصادر ترجمته ألفاظ الثّناء عليه، وعبارات التّقريظ لخطبه،وفي أثناء ذلك ذكر طرف من صفاته وأخلاقه،فمن ذلك «ما جاء عند أبي البقاء العُكبري حيث قال: كان رجلا جليل القدر،ذا دين وفصاحة وبلاغة ،ولقد أتى في هذه الخطب بنظم بديع ،ومعنى لطيف »[3]،ويقول ابن خلكان« كان إماما في علوم الأدب،ورزق السعادة في خطبه التي وقع الإجماع على أنّه عُمِلَ مثلها،وفي دلالة على غزارة علمه،وجودة قريحته »[4] ،وقال فيه الذهبي:«الإمام البليغ الأوحد،خطيب زمانه...صاحب الدّيوان الفائق في الحمد والوعظ(...) وكان فصيحا مفوّها ،بديع المعاني،جزل العبارة ، رزق سعادة تامّة في خطبه، وكان فيه خير وصلاح»[5] ،وقال عنه ابن كثير «لم يسبق إلى مثل ديوانه هذا، ولا يلحق إلا أن يشاء الله شيئا،لأنه كان فصيحا بليغا دينا ورعا »[6]، وفيه يقول ابن العماد الحنبلي: «خطيب الخطباء...وفي خطبه دلالة على قوة علمه و سَعته،وقوة قريحته »[7].

أما عن أخبار هذا الخطيب المِصقع، لم يرد فيها سوى نُتف قليلة عنه تدل على زهده وتقاه وتفصح عن ورعه وصلاحه.

---

[1]- المرجع نفسه،ص 158

[2]- ينظر: أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان،وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ،ج3، ص 156

[3]- ينظر:طاهر بن صالح الجزائري شرح خطب ابن نباتة،ط1، دار الكتب العلمية ،بيروت ، لبنان ،2007م،ص86

[4]- ينظر: أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان،وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ،ج3، ص 156

[5]- ينظر: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي ،سير أعلام النبلاء ،تح قيق: جماعة من العلماء بإشراف:شعيب الأرناؤوط ،ط3، مؤسسة الرسالة ، بيروت،1985م،ج16 ،ص321

[6]- ينظر: يوسف بن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، 1963م ،ج4،ص 146

[7]- ينظر: عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، أبو الفلاح ،شذرات الذهب في أخبار من ذهب،ط 1، تحقيق : محمود الأرناؤوط ،دار الفكر، بيروت،1986م،ج 3، ص83

فقد جاء فيها أنه كان خطيب (حلب) ،و بها اجتمع بأبي الطيب المتنبي في خدمة سيف الدولة بن حمدان،وكان سيف الدولة آنذاك كثير الغزوات،ولهذا أكثر ابن نباتة من الخطب الجهاد، ليخص الناس عليه،ويحثهم على نصرة سيف الدولة [1] .

توفي ابن نباتة ،وله دون الأربعين سنة،وقد نص من جاء بعده على سنة وفاته فقد أشار ابن خلكان إلى أنها كانت سنة 374هـ، أما عن مكان وفاته فقد كان بميافرقين [2] .

والمتأمّل لخطب ابن نباتة الفارقي في ديوانه يجد أنّه كان يلقيها ارتجالا ،وشفاهة ،وذلك استنادا لما عُرف عنه من قدرة خطابيّة مرتبطة بالارتجال أكثر من ارتباطها بالكتابة،لما اشتهر به من فصاحة وبلاغة ،وبيان ؛لأنّ العمل الشّفاهي «يترك علامات من السّهل اكتشافها في أثناء تمعّن العمل ،وقد برز التكرار –على اختلاف مستوياته– بوصفه مظهرا من مظاهر تلك الشفاهية ذلك أن العمل المكتوب يستغني عنه،لعلم الكاتب أن القارئ يمكن أن يعود إلى قراءة ما لم يدركه ،وهذا ما لا يحصل مع ما يُلقى، ممّا يجعل العمل الشّفاهي يعيد تصنيع بعض الكلمات أو الجمل ،وربما الفقر داخل العمل الواحد ،وهذا ما لمسناه في خطب ابن نباتة »[3].

ومهما يكن من أمر فإنّ النّاظر في ديوان خطب ابن نُباتة ؛يجد أنّ موضوعات تلك الخطب تدور حول التّذكير بتقوى الله عزوجل ،وبالموت ،والبعث ،والحثّ على طلب رضوان الله بالعمل الصّالح،والزّهد في الدنيا ،واحتقارها،والسّرور بالآخرة،كما يلحظ أن بعض هذه

---

[1]– ينظر: أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان،وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ،ج3، ص156

[2]– المرجع نفسه، ص 157

[3]– خالد بن محمد الجديع،خطب ابن نباتة الفارقي:الرؤية والفن،العدد5، عالم الكتب،مصر،2006م،المجلد27،ص 458

الخطب تحمل مسميّات*: كالخُطبة المناميّة،الخُطبة الصّوفية ،والخطبة القعسرية.

وقد كان ابن نباتة يستمدّ هذه الموضوعات من الزّمن الجاري،فلكلّ أسبوع من كلّ شهر خطبة خاصّة،ولكلّ مناسبة دينيّة: كعاشوراء،ورمضان وعيد الفطر ،وعيد الأضحى خطبة وغيرها فجاءت وفق التقسيم الآتي [1]:

1- خطب الشّهور: وتضمّ تسع وعشرون خطبة ،ويتحدّث فيها الخطيب عن فضائل شهور السّنة ،وما فيها من أوقات وجب على المؤمن استغلالها حتى يضاعف أجره.

2- خطب الميعاد:وتبلغ ثماني وثلاثين خطبة،وفيها استفاضة في الحديث عن الموت ،والمعاد وذكر تصرف الزمان بأهله،و القيامة و أهوالها .

3- خطب المواقيت: وتحوي اثنين وأربعين خطبة،وقد خصها بالمناسبات الدينية كاستقبال السنة وفصل يوم عاشوراء،وفضل شهر رمضان ووداعه،وفضل عشر ذي الحجة ويوم عرفة....

4- خطب الجهاديات:وتبلغ خمس خطب،يخص فيها قتال العدو،ويذكر أجر المجاهدين في سبيل الله ،وما أعدّه لهم من المغفرة ،والرحمة ،ونحو ذلك.

5- الخطب المختصرة: وهي خطب تصلح مقدّمات بين يدي الخطيب،وعددها أحد عشر خطبة ،وهي متنوّعة الموضوعات ،وقد جاءت مغايرة لطبيعة الخطابة المتّسمة بالإطناب عند عرض ما يرغب الخطيب في إيصاله،وأحسب أن ابن نباتة كان يهدف من خلالها إلى

---

* ومعنى مسميات هذه الخطب كالآتي:

1- الخطبة المنامية :هذه الخطبة خلّدت ذكر هذا الخطيب في طروس التاريخ ،فقد روي أن الخطيب رأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه ، ولما استيقظ الخطيب من منامه كان على وجهه أثر نور وبهجة لم تكن قبل ذلك، وقص رؤياه على الناس وقال: سماني رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا، وعاش بعد ذلك ثمانية عشر يوما لا يستطعم فيها طعاما ولا شرابا من أجل تلك التفلة وبركتها، وهذه الخطبة التي فيها هذه الكلمات تعرف بالمنامية لهذه الواقعة ، ينظر: أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان،وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،ج3، ص 157

2- **الخُطبة الصّوفية:** هي خطبة تحدث فيها الخطيب عن الزهد في الدنيا،وسميت كذلك ؛لأن القاريء لها يجد الخطيب يستخدم فيها مصطلحات المتصوفة ويستحسن طريقهم ويثني عليهم في حديثه عن عبادتهم ومجاهدتهم وزهدهم ،وفضلهم ومآلهم، ويمكن الرجوع إلى نص الخطبة في الديوان ص 259

3-**الخطبة القَعْسَرِيَّة:** هي خطبة ذكرها الخطيب عند ختم القرآن في شهر رمضان وذكر فيها دعاء الختم ، سميت بهذا الاسم إشارة إلى قوله في وصف الله بأنه ذو العز القَعسرِيِّ أي القويِّ الشّديد ،والخطبة موجودة في الدّيوان ص 396

[1] - هذه التقسيمات الخاصة بالخطب وردت في فهرس الديوان وقد تم الوقوف على مضامينها من الخلال قراءتها.

إظهار براعته في الاختصار فهي أشبه بالحكم المركّزة البليغة .

6- الفصول: وفي هذا القسم سبعة فصول ،يدور غالبها حول تولّي السّلطة ،والتهنئة بالانتصار على الأعداء،والحث على شكر اله تعالى على نعمة تحقيق الأمن ،والطّمأنينة لعباده.

7- الخطب الثواني:وهي ثلاث خطب ،وفيها يقدّم ابن نباتة نماذج لما ينبغي أن يقال في الخطبة الثانية،وتدور هذه الخطب التي أنشأها في هذا القسم حول حمد الله والصلاة والسلام على رسوله،وتتضمّن الدّعاء للمسلمين بالنصر ،والتمطين،والدعوة لأميرهم وإمامهم .

8- فصول الأدعية: يقدّم ابن نباتة في هذه الخطب الفصول تسعة عشر دعاء ،مابين دعوة عامة للمسلمين ، ودعوة خاصة لأمير البلد، وأهل الثغور والمجاهدين، بالإضافة إلى بعض الأدعية التي تقال عند التوجه إلى الحرب والدّعاء ،وعلى الرّغم من أنّ نُباتة قد بذل جُهدا في محاولة تغيير صيغ الأدعية ومعانيها، لكنّها لا تكاد تخرج عن معاني الأدعية التي تضمّنتها الخطب السالفة ،ثم ألحق بآخر الديوان خطب ولده أبي طاهر محمد بن عبد الرحيم الذي توفي سنة 390هـ تقريبا.

هذا وقد امتازت خطب ابن نباتة بألفاظها الصّحيحة الأصيلة، وعباراتها الجزلة البليغة الخالية من الألفاظ العامية الدّخيلة ، تحمل في طياتها صورا إبداعية ، وتقوم على الصنعة البديعية،ومع هذا فقد كانت واضحة الأفكار والمعاني، قريبة التناول في أذهان المتلقين ولعلّ تمرّس ابن نُباتة ،وتفانيه في هذا الفن جعله قادرا على إيصال ما يريد من أفكار بيسر وسهولة.

الفصل الأوَّل:

الإشاريّات التّداوليّة في دّيوان

خطب ابن نباتة

أوّلا : تعريف الإشاريّات

ثانيا : أنواع الإشاريّات

2-1 :الإشاريّات الشّخصيّة

2-2 :الإشاريّات الزّمانيّة

2-3 :الإشاريّات المكانيّة

أوّلا: تعريف الإشاريّات:

تعدّ الإشاريّات * من العلامات اللّغوية الغير دالّة في ذاتها إلّا من خلال السّياق الخطابي الذي تردّ فيه ؛لأنّها على حدّ تعبير النّحويّين من المبهمات، وا لتي لها تأثير«هام في تكوين بنية الخطاب من خلال القيام بدورها النّحوي ،ووظيفتها الدّلاليّة ،ويستثمر المرسل هذه الصّفات في الخطاب الذي يجري بينه ،وبين المرسل إليه، عندما يمدّه في نسيج يتجاوز في كلّيته الجملة ،فتصبح فائدة الإحالة إلى المعلومات القديمة التي تلفّظ بها أحدهم»[1].

وعليه يتبيّن أنّ الإشاريّات ألفاظ لا يتّضح مدلولها،إلّا أثناء التّلفظ بالخطاب فهي« توجد في المعجم الذهني،ولا ترتبط بمدلول ثابت»[2] ،وبنفنست (Benveniste) يرى « أنّ اللّغة بوصفها نظاما مجرّد لا تتحوّل إلى كلام حقيقيّ أو إلى نصّ أو خطاب إلّا بواسطة عمليّة القول ذاتها ،وهي ليست جوهريّة في صيغة النّص ودلالتها؛ بل إنّها أيضا وراء بنية وحدات لغوية تعبّر عن مفاهيم إنسانيّة أساسيّة كمفهوم الشّخص والزّمان والمكان» [3]؛ وأرمينيكو (F. ARMINIKO) أيضا تؤكّد في الاتجاه نفسه أنّه«لا يمكن للاستعمال التّواصلي للّغة العادية أن يتخلّى عن التّعابير الإشاريّة ،ولضرورتها من الأجدى معالجتها ،أي إبراز كيفيّة دخول السّياق الذّي توجد فيه مرجعيتها ضمن تحديد مرجع الجملة » [4]، وقد بيّن(لفنسون) أهمية الإشاريّات موضّحاً أنّها تذكير دائم للباحثين النّظريين في علم اللّغة بأنّ اللّغات الطّبيعيّة وُضعت أساساً للتّواصل المباشر بين النّاس وجهاً لوجه ،وتظهر أهميّتها حين يغيب عنّا ما تشير إليه فيسود الغموض ويستغلق الفهم [5] ،فالإشاريات : كلمات وتعبيرات تعتمد اعتماداً تاماً على سياقها الذي قيلت فيه.

والسّياق (Contexte) كأحد أهم المرتكزات التي تستند عليها التّداولية أداة إجرائيّة تؤدّي« دورا هامّا في كشف مقاصد المتلفّظ بالخطاب ،وتوضيح نواياه الظّاهرة والخفيّة من

*بيرس أول من أطلق تعبير الإشارة أو الإشاريات اللغوية من المحدثين،ينظر:فرنسواز أرمينكو، المقاربة التداولية ،ص 41

[1]– عبد الهادي بن ظافر الشهري،استراتيجيات الخطاب مقاربة تداولية ، ص 81

[2]– المرجع نفسه ، ص 79

[3]– مريم فرنسيس،في بناء النص دلالته "محاور الإحالة الكلامية" منشورات وزارة الثقافة ،دمشق 1998م، ص 18–19 .

[4]– فرنسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص 44

[5]– ينظر : محمود أحمد نحلة ، أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ص 18

أجل إفادة السّامع معنى يتوخّاه من خطابه»[1] ، ولا يمكن تفسيرها بمعزل عنه.

وقد خلص (باخ) إلى عدم إمكانيّة تحديد معناها الحقيقي من حدود الجملة فقط؛لأنّها تتعلق باستعمال المتكلّمين لهذه الحدود، فقيمتها التّداولية تتحدّد من مفهوم إحالة المتكلّم[2] وهنا تكمن أهميّة الإشاريّات في أنّها تدرس كيفيّة استعمال الإحالة ذلك أنّ« العناصر المحيلة كيفما كان نوعها لا تكتفي بذاتها من حيث التأويل ،إذ لا بدّ من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها،علما بأنّ كلّ لغة طبيعيّة تتوفّر على عناصر تملك خاصيّة الإحالة»[3]،ويصطلح على الإحالة في الدّرس اللّساني بالمرجعيّة (Référence)،وقد أولت اللّسانيات التّداولية أهميّة بالغة للوظيفة المرجعيّة لا لشيء إلّا؛لأنّها تربط بين السّياق اللّغوي،وسياق الموقف ،أي الواقع الاجتماعي فـ«حركة المعنى نحو المرجع مهمّة جدّا في عمليّة التّأويل،ومهارة النّاقد تتبلور في قدرته على البحث في العلاقة اللّغوية ومرجعها ...لأنّ اللّغة هي الوسيط الأساس لفهم الفكر والواقع /المجتمع والأخيران يرتبطان بالثّقافة ارتباطا وثيقا »[4]، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ « النص المرافق يمثل فقط جزءا لغويّا من البنية التي تستعمل فيها تعبير الإشارة ،ومن البديهيّ أن يكون المحيط اللّغوي والسّياق تأثير فعّال على كيفيّة تفسير تعابير الإشارة »[5] ؛ لذلك عُدّت الإشاريّات من أكبر الإشكاليّات الإشكاليّات التي تعترض النّزعة الحرفيّة؛لأنّها لا تملك محتوى محدّداً إلّا داخل التّلفّظ مرتبطة بالسّياق وهو ما يؤمن به اتّجاه فلاسفة اللّغة الطّبيعيّة،وسُمّي هذا الاتّجاه بالنّزعة السّياقية»[6] فتُمثّل سياق يشترك به المتكلّم والمستمع ،وهو ما يمكن إبرازه من إيماءة أوغيرها كإشارة الإصبع إذا كان الخطاب منطوقا ،ويمكن أن يستدلّ عليها من الخطاب نفسه،من خلال الإحالة لتلك المؤشّرات اللّغوية من أسماء إشارة ،وظروف زمانية ومكانية ،أزمنة

---

[1]– باديس لهويمل ،السياق ومقتضى الحال في مفتاح العلوم –متابعة تداولية – ،مجلة المخبر،أبحاث في اللغة و الأدب الجزائري ،جامعة بسكرة ، العدد 9، 2013م، ص165

[2]– ينظر: حافظ إسماعيل علوي ، التداوليات "علم استعمال اللغة" ، عالم الكتب الحديث ،الأردن، 2011م ، ص 449

[3]– محمد خطابي،لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ،ص16 –17

[4]– عبد الفتاح يوسف،التداولية و تنوع مرجعية الخطاب ،جامعة المنصورة،مصر، أعمال مؤتمر النقد الدولي الثالث عشر –جامعة اليرموك– الأردن ،2010م، ص679.

[5]– المرجع نفسه، ص ن.

[6]– حافظ إسماعيل علوي ، التداوليات "علم استعمال اللغة" ، ص442

الفعل؛إذ تعدّ من معايير المجال المرجعي في كلّ من الخطاب الشّفوي أو الخطاب المكتوب[1] ذلك؛لأنّها خالية من أيّ معنى في ذاته فـ«هذه التي عندما تكون خارج الاستعمال اللّغوي لم يكن لها معنى محدّد في ذاتها،ويتحدّد معناها عند تضامها مع ضمائم أو قرائن في سياق تركيب أو نصّ معيّن،وتتحدّد إشاريّتها بمعرفة المرجع الذي تحيل إليه» [2]،فهي إذن عبارة عن وقوعات انعكاسيّة ؛لأنّها تعكس ظروف سياقها من خلال الإحالة الضّمنيّة التي تحملها.

ولا يقف دور الإشاريّات في السّياق عند الإشاريّات الظّاهرة فقط ؛بل يتجاوز هإلى الإشاريّات المستقرة في البنية العميقة للخطاب ،وتكون ذات حضور أقوى أثناء التّلفظ الذّي يصدر من ذات بسمات معيّنة ؛وعليه تكون«الإشاريّات هي تلك الأشكال الإحاليّة التي ترتبط بسياق المتكلّم مع التّفريق الأساس بين التّع ييوات الإشاريّة القريبة من المتكلّم مقابل التّعييوات الإشاريّة البعيدة عنه» [3]،ونُلفت الانتباه إلى أنّ المرجع الذّي يرتبط بتأويل هذه المبهمات كما اصطلح عليها النّحاة العرب تتغيّر بتغيُّير السّياق الذي ترد فيه ،إذ أنّ علماء العرب القدماء اعتنوا بالإشاريّات « من خلال عنايتهم بأدوات الرّبط بين الجمل ،وأجزائها وبالجوانب الصّرفية،والنّحوية،والدّلالية،فكانت هذه العناية الأساس،والمرتكز الذي انطلق منه علماء التّداولية ليعنوا بها حديثاً ملتفتين إلى عدم خلوّ أيّ نصّ منها،فضلاً عن دورها في تحقيق الانسجام، وإيجاد التّماسك ،وإقامة العلاقات داخل البنية التّركيبية»[4].

وتجدر الإشارة إلى أنّ هـ انسون (hanson)[1] قد جعل الإشاريّات أولى درجات التّحليل التّداولي.

ثانيــا أنواع الإشاريّات :

---

[1]– ينظر : بول ريكور، نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى ،ترجمة :سعيد الغانمي، ط 2 ، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب ، ،2006م، ص 68

[2]– لطيف عبد الصاحب الزاملي ،إشارية البنى المطلقة ،مجلة القادسية في الأدب و العلوم التربوية ،العدد 1، المجلد 8 2009م، ص 21–22

[3] –عبد الهادي ظافر الشهري،استراتجيات الخطاب مقاربة تداولية،ص 81

[4]– عبد الحكيم سحالية، التداولية امتداد شرعي للسيميائية ، ، المركز الجامعي الطارف، الملتقى الدولي الخامس السيمياء والنص الادبي،جامعة محمد خيضر بسكرة،15–17نوفمبر2008م، ص 431

للإشاريّات أنواع رئيسة ،ولكل نوع دوره في الخطاب ،و«إنّ تعيينها كخُصيصة لغويّة جاءت من أمرين : أحدهما معناها المعجمي الذي استقرّ في الاستعمال ؛فصارت تعرف بمعان خاصّة ،والآخر قصد المتكلّم والمعرفة والخبرة المشتركة بين المتكلّم والمخاطب »[2].

وعمليّة التّلفظ لا تتمّ دون حضور الأدوات الإشاريّة الثّلاث ،وهي : (الأنا،الهنا ،الآن) ويمثّل كلّ صنف نوعا من الإشاريّات وهي: الإشاريّات الشّخصيّة ، الإشاريّات المكانيّة الإشاريّات الزّمانية ،وهي موجودة أصلا في كفاءة المرسل اللّغوية باعتبارها «أولى الصيغ التي ينطق بها الأطفال ،وتستعمل للإشارة إلى الأشخاص من خلال التّأشير الشّخصي person dixis(أنا،أنت) أو إلى المكان من خلال التّأشير المكاني spasutal dixis (هنا ،هناك) أو إلى الزّمان من خلال التأشير الزّماني temporal dixis (الآن ،أنذاك) ،وتعتمد جميع هذه التّعابير في تفسيرها على المتكلّم ،ومستمع يتشاركان في السّياق ذاته»[3] ،وهذا ما يُكسبها صبغتها التداولية؛ أي إلى العلاقة التي تربط الإشاريّات بالسّياق حيث أنها«تنتسب –الإشاريّات– إلى حقل التّداوليات ؛لأنّها تهتمّ مباشرة بالعلاقة بين تركيب اللّغات ،والسّياق الذي تستخدم فيه»[4].

والإشاريّات بأنواعها الثّلاث تعبيرات تُحيل إلى مكوّنات السّياق الاتّصالي ،وهي المتكلّم والمتلقّي ،وزمن المنطوق ،ومكانه فإذا«أردنا أن نفهم مدلول هذه الوحدات،إذا ما وردت في مقطع خطابي اسـتوجب منّا ذلك معرفة هويّة المتكلّم والمتلقي والإطار الزّماني والمكاني للحدث اللّغوي» [5].

و«يعتمد اختيار نوع معيّن من تعابير الإشارة دون غيرها بشكل كبير على مقدار ما

---

[1]– «هانسون أول من جرب التوحيد بطريقة نظامية، وتجزئة مختلف المكونات التي تطورت إلى الآن بطريقة مستقلة ويتمثل هذا التوحيد ، وهذه التجزئة في تقسيم التداولية إلى ثلاث درجات متتابعة : تداولية من الدرجة الأولى تتمثل في الرموز الإشارية ، تداولية من الدرجة الثانية هي دراسته لتقنية تعبير القضايا في الجملة المتلفظ بها ،تداولية الدرجة الثالثة تتمثل في نظرية أفعال الكلام » للتوسع ، ينظر، فراسواز أرمينكو ، المقاربة التداولية ،ص38

[2] – لطيف حاتم عبد الصاحب ، إشارية البنى المطلقة ،ص22.

[3] – جورج يول ، التداولية ، ترجمة: قصي العتابي ، ط1، دار العربية للعلوم ،الرباط ، 2010م، ص27.

[4]–عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص82.

[5]– المرجع نفسه ،ص ن

يفترضه المتكلّم من أنّ السّامع يعرف ذلك الشّيء المشار إليه في إطار بصريّ مشترك »[1]

وهذا ما سيسفر عنه هدف التّحليل التّداولي لديوان خطب ابن نُباتة الفارقي في استجلاء العلاقة التّواصليّة بين المرسل ،وهو الخطيب في حدّ ذاته من خلال خطبه التي حبلت بمواضيع ،وسياقات متنوّعة فكانت تجسيدا للأحداث والوقائع التي تبوأت مكانة مهمّة في حياة النّاس في عصره بما فيها من تأثير في الأوساط المتلقّية،وتقريب للفهم والاستعاب الجيّد لدلالتها ،وغالبا ما تُعبّر عن مناسبة طارئة ،أو حالة نفسيّة تَنبُع من أعماقه ؛حين يتأثّر بحدث معين أو قد تكون أيضا محطّة يُعبّر فيها ابن نباتة عن مجموعة رُؤى أو مواقف تجاه قضيّة ما مُبديا رأيه الصّريح استحسانا أو استهجانا ترهيبا أو ترغيبا ؛ و ذلك باعتبارهفردا يتفاعل مع أشخاص آخرين ضمن مجموعة من المعطيات السّياقية بنقل خطابه المتعدّد الأبعاد إلى المرسل إليه بجعل شعور المتلقين في بوتقة واحدة هي « وعظ الناس وإرشادهم و دعوتهم إلى التّمسك بطاعة الله،وحثهم على العمل للآخرة،والتزام آداب الإسلام وأخلاقه وتحذيرهم من الغفلة ،والمعاصي ،ودعوتهم إلى الجهاد في سبيل الله »[2] ،وقد تضمّنت خطبه « ذكرا لأحداث عصره، ومناسبات عدّة عاشها الخطيب باعتباره أحد أفراد المجتمع ، فأشار إليها في خطبه ،وكان هدفه من وراء ذلك النهوض بالأمة وإصلاحها لما فيه خيرها في الدنيا والآخرة »[3] ، وبالرّغم من تنوّع خطبه إلّا أنّها انتظمت في اتّجاهات ثلاثة هي: الاتجاه الديني ،والاتجاه السياسي ،والاتجاه الاجتماعي،وكان الاتجاه الديني هو السائد في خطب الديوان، وقد شغلت موضوعاته الحيز الأكبر منه ،وتشابكت في سلسلة متّصلة يؤدّي بعضها إلى الآخر كما ارتبطت بموضوعات الدّيوان في الاتجاهات الأخرى (السياسية والاجتماعية) ولم يعدم الخطيب وسيلة أو فرصة إلا وأشار إليها في سياق كلامه ،وقد حملت مواضيع وسياقات تتعلّق بهذه الاتّجاهات الثّلاث فكانت تجسيدا للأحداث والوقائع التي تبوّأت مكانة ذات أهمية خاصّة في حياة الناس عامة بما فيها من تأثير في الأوساط المتلقية وتقريب للفهم ،والاستعاب الجيد لدلالتها لذلك عُدّت خطب الدّيوان أداة فاعلة في وعظ الناس

[1]– جورج يول ، التداولية ،ص 39 .

[2]– خالد بن محمد الجديع،خطب ابن نباتة الفارقي:الرؤية والفن ، ص 102

[3]– خالد بن محمد الجديع،خطب ابن نباتة الفارقي:الرؤية والفن ،ص102

وإرشادهم ،ودعوتهم إلى التّمسّك بطاعة الله ،وحثّهم على العمل للآخرة ،والالتزام بآداب الإسلام ،وأخلاقه ،وتحذيرهم من الغفلة ،والمعاصي، ودعوتهم إلى الجهاد في سبيل الله وتضمّنت أيضا ذكرا لأحداث معاصرة ومناسبات عدّة عاشها الخطيب باعتباره أحد أفراد المجتمع ،يؤثّر ،ويتأثّر فيعبّر.

2-1: الإشاريّات الشّخصيّة :

تعدّ الإشاريّات الشّخصيّة صنفاً من أصناف الإشاريّات وهي عناصر لغويّة يؤشّر بها على شخص ما ،ويدخل في تصنيفها كلّ ضمائر* الحاضر ،وهي«الضّمائر الشّخصية الدّالة على المتكلّم وحده مثل أنا أو المتكلّم ،ومعه غيره مثل نحن،والضّمائر الدّالة على المخاطب مفردا أو مثنّى أو جمعا مذكّرا أو مؤنّثا ،وضمائر الحاضر هي دائما عناصر إشاريّة؛لأنّ مرجعها يعتمد اعتمادا تامّا على السّياق الذي ترد فيه »[1] ،وهذه العناصر الإشاريّة اللغويّة تُحوّل دائما اللّغة إلى خطاب تحادثي آني ،وهذا علّة تسميتها بضمائر الحضور أي وجود صاحبها وقت الكلام سواء حاضر بكلمة غيره فالمتكلّم ،والمخاطب حاضران في سياق الموقف، و«الحضور قد يكون حضور المتكلّم كأنا ،ونحن وقد يكون حضور خطاب كأنت وفروعها أو حضور إشارة كهذا،وفروعها.»[2] ،وأضاف فلاسفة اللّغة إلى الإشاريّات الشّخصيّة بعدا يتمثّل بشرط الصّدق ، فإذا قالت امرأة مثلا: أما أمّ نابليون فهذا ليس بكاف أن يكون مرجع الضمير هو تلك المرأة ؛بل لابدّ من التّحقّق من مطابقة المرجع للواقع ، بأن تكون

*«الضمائر المستترة في النحو العربي ضرب من الإشاريات التي تدرك الإحالة عليها من السياق ، فلا يتلفظ بها المرسل لدلالة الحال عليها ، ويتطلب البعض منها حضور أطراف الخطاب حضورا عينيا» ، ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري استراتيجيات الخطاب مقاربة تداولية ، ص 83 ، و « حسب أركيوني تكون ضمائر الشخص قبل أي حالة تلفظية ذات صفة دلالية يتراوح مرجع كل وحدة لغوية من حديث إلى آخر، وبالرجوع إلى مصطلحية (جون ليونز) فالوحدات اللغوية غير الضميرية non-déitique UnitéLinguistique تحتوي معنا حقيقيا ثابتا بينما الوحدات اللغوية الضميرية باستقبالها و تقبلها لمرجع خاص (في حالة الحديث) لا تملك معنى حقيقيا محدّدا في اللغة » ، ينظر : ذهبية حمو الحاج ،لسانيات التلفظ و تداولية الخطاب، ط2،دار الأمل،تيزي وزو 2012م،ص108

[1]- محمود أحمد نحلة ، أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ص 18

[2]- تمام حسان ، اللغة العربية معناها و مبناها ، ط1،دار الثقافة ،الدار البيضاء المغرب،1994 م ،ص 108.

هذه المرأة هي أمّ نابليون فعلا ،وأن تكون الجملة قيلت في الظّروف التّاريخية المناسبة ، فإن لم يتحقّق شرط الصدق كانت الجملة كاذبة [1].

وللضّمائر دور بارز في العمليّة الخطابيّة ،فبالرّغم من كونها مبهمة لكنّها تعدّ ضربا من الإيجاز ،وتمنع الالتباس على المخاطب[2] ،وتنجز وظيفتها داخل السّياق فهي ليست أشكالا فارغة مثلما أشار بعض الباحثين فمن الممكن ألّا يكون للضّمائر موضوعا لكنّه من المستحيل ألّا يكون لها مفهوم ،فلولا الضمير لاستحالت التّرجمة من لغة إلى أخرى.

وللإشاريّات الشّخصية بأنواعها كلّها دور حيويّ في خطب ابن نباتة الفارقي ،وإنجاح عمليّة التّواصل بين المتكلّم ،والمتلقين ،وتحقيق الإنجازيّة ،والتأثير في نفوسهم فضلا عن التّرابط النّصي الذّي تحقّقه الضّمائر داخل النّص .

2-1-1: ضمائر المتكلّم :

ضمير المتكلّم المفرد "أنا" تداوليّا «يعبّر عن منشئ الخطاب،ومنتجه ،ويدل على ذاتيّته فهو مركز المقام الإشاري باعتباره المتلفّظ به إلى مخاطب يقابله في مقام التّخاطب »[3] وبضمير المتكلّم المفرد يدرك المتلقّي سلطة المتكلّم ،وتمكّنه من النص، فالتّعبير عن الذّاتيّة في اللّغة أهمّ دور تقوم به الضّمائر من منظور تداوليّ ؛ لأنّها تمنح الشّخص القدرة على امتلاك ناصية الحديث ؛ لأنّ « ممارسة التّلفظ هي التي تدلّ على المرسل في بنية الخطاب العميقة ممّا يجعل حضور الأنا ترد في كلّ خطاب ،ولهذا فالمرسل لا يُضمنّها خطابه شكلا في كل لحظة ؛لأنه يعوّل على وجودها بالقوّة في كفاءة المرسل إليه ،وهذا ما يساعده على استحضارها لتأويل الخطاب تأويلا مناسبا» [4] ،فالأنا تُحيل على المتلفّظ ؛بل هي محوره في الخطاب من منظور تداوليّ ، لذا فلبن نباتة يُعبّر في بداية مطلع خطبه دائما باستعمال ضمير المتكلمّ الذي تظهر شخصيّة الخطيب (المتكلم) من خلاله ،وه و ضمير كاشف يعبّر

---

[1]– ينظر : محمود أحمد نحلة ، أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ص 17

[2]– ينظر: أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش موفق الدين ، شرح المفصل،عالم الكتب ، بيروت، مكتبة المتبني – القاهرة، المجلد الأول،ج 2،ص292

[1]– سعد محمد علي التميمي،الإشاريات الشخصية في نهج البلاغة الضمائر أنموذجا، مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد،العدد 47، 2016م، ص 320

[4]– عبد الهادي بن ظافر الشهري،إستراتيجيات الخطاب مقاربة تداولية، ص82.

عن إيمانه بالله عزّ وجلّ ،وبالنّبي محمّدا عليه أفضل الصلاة ،والتسليم يقول :« **أَحمدُه حَمدَ من أوليَ جَميلًا فَشكرَ ،وأُنزِّهُه عَن قولِ مَن جَحَد بِه ،وَكفَر ،وأَشهدُ أن لا إلَه إلّا الله وَحدَه لا شَريكَ له تَعالى فَقدَر ،ومَلكَ فَقهرَ ،وعُصِيَ فَغفَر ،وجُوهِر بالقَبيحِ فَستَر ،وأَشهدُ أنَّ مُحمّدًا عبدُه ورسُولهُ أَرسلَه مَحجّة لمَن اسْتبصَرَ ،وحُجَّة عَلى مَن اسْتكبَر ،فَأَقَامَ بِأمرِ رَبِّه ،وأَنذَر** »[1].

فما نلحظه من استعمال ضمير المتكلّم في المقاطع السّابقة ،والذي جاء مستترا مع الأفعال **(أحمده،أنزّهه،أشهد)** يعود مرجعه على الخطيب في أنّه عكس عقيدة الخطيب الدّينية ذات الطّابع الإسلامي ،وذلك من خلال الثّناء على الله تعالى بما هو أهل له ،وذكر الرّسول صلى الله عليه وسلّم ،والصّلاة عليه على اعتبار أنّ العقيدة الإسلامية «هي الإيمان الجازم بالله سبحانه وتعالى ، وما يجب له في أُلوهِيتِهِ وربوبِيتِهِ، وأسمائه وصفاته والإيمان الجازم بقضايا الغيب ومنها :الملائكة، والْكتب، والرسل، واليوم الآخر، والقدر خيره وشرّه ،وبكلّ ما جاءت به النصوص من قضايا الاعتقاد ،وما أجمع عليه السلَف،والتسلِيم لله في الحكم والأمر والشرعِ ،ولرسوله صلى الله عليه وسلم بالطّاعة والتّحكيم والأتباع»[2] ،ويقول في المقام نفسه: «**أحمده حمدا قاضيا لحقّه ضامنا لرزقه ،وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له كلمةً أُومن بها إقراراً ،وأشهد بها إعلانًا وإسرارًا ،وأشهد أنّ محمّدا عبده القائم بحججِه ،ورسوله الدّاعي إلى منهجه ،أرسله إلى أهل خلف وشتات ،وإحنٍ وَتِرَاتٍ** »[3]،

فضمير المتكلّم"أنا" المستتر مع الأفعال **(أحمده،أُومن،أشهد)** ،يعود مرجعه من خلال سياق النّص على الخطيب ،وتضمّن هذا الضّمير مبدأً تعبديّا عقديّا يهدف لتحقيق ،وتأكيد أفكاره التي تعبر عن عقيدته الإسلامية الجازمة ،وإدراكه لها تسليما ،ويقينا بحمد الله تعالى والحديث عن صفاته ،ووحدانيّته ،وغير ذلك ممّا فيه ثناء على الله ،وتمجيد له كما في الكلام عن تنزيهه عن الشركاء أو الظّلم ،وتفرّده بالحكم ،والأمر بالإضافة إلى الإشادة برسول الله الذي كان بالمؤمنين حفيّا ،ومبعوثا إلى خير الأمم بشيرا ،ونذيرا وداعيا إليه بإذنه ،وسراجا

---

[1]– عبد الرحيم بن محمد بن نباتة،ديوان خطب ابن نباتة، ط 1، تحقيق: ياسر محمد خير المقداد، مجلة الوعي الإسلامي الكويت، 2012م، ص 23

[2]– ناصر بن عبد الكريم العقل، مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة موقف الحركات الإسلامية المعاصرة منها،ط 1،دار الوطن للنشر، .1992 م، ص 9

[3]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 149

منيرا،وقد سار الخطيب في مقدّمات خطب ديوانه جميعها على هذا المسلك القائم على حمد الله ،والحديث عن ذاته وصفاته وأسماءه ،والشهادة بأنّ محمّدا رسول الله ،وتعدادا لمآثره وصفاته ،وأخلاقه وشفاعته ،وتأييد رسالته ،وانتشارها ،وغير ذلك ،وقد عبّر عن ذلك كلّه باستخدام ضمير المتكلّم الذي يعود على منتج الخطاب نفسه ابن باتة الفارقي ،وهذا ما نجده في مواضع مختلفة من الدّيوان نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قوله :« **أَحمدُه على جَزيلِ إرفادِه، وأَعُوذُ بِه مِن وَبيلِ وَعيدِه ،وَأشهَد أنَّ لا إله إلّا الله وَحدَه لا شريكَ له شَهادةً أَكملَ اللهُ بِها الفَرضَ ،وأقَام بها السَّماواتِ و الأرضِ**»[1] ،«**أَحمدُه حَمدًا يَستفرِغ وِسعَ الطَّاقة ،وأشهد أنّ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شَريكَ له ذَخيرةً ليَوم الفَقرِ ،والفَاقة** »[2] ،« **أَحمدُه عَلى صُنوفِ النِّعمِ حَمدًا تَضيقُ بِإحصَائهِ حُروفُ الكَلِم ،و أَشهدُ أنَّ لا إلَه إلا الله وَحدَه لا شَريكَ لَه شَهَادةً تَشفِي القُلوبَ مِن السَّقمِ ،وتَكفِي المَوهُوب مِن النِّقمِ، و أَشهَد أنَّ مُحمَّدًا عَبدُه ورَسُولُه نقَلهُ فِي أَطهَرِ صُلبٍ ،ورَحِم ،وخَصَّه بِأحمدِ الأخلاقِ ،والشِّيَمِ** »[3] .

ففي النّماذج السّابق ذكرها نجد أن ضمير المتكلّم "أنا" بصيغته المستترة مع الأفعال التي تكرّرت في كل مقطع من مقاطع الخطب السّابقة ،والتي تحتها سطر يعود مرجعه من خلال السّياق على الخطيب نفسه ،وقد تضمّن مقصدا تداوليّا ذو بعد دينيّ تجلّت فيه العقيدة الإسلاميّة بمقدّساتها بشكل واضح من خلال إيمان الخطيب بالله عزّوجلّ وأسمائه وصفاته وبرسوله الكريم مبعوثا إماما للناس أجمعين ،وقوّته الإنجازيّة تكمن في رغبة الخطيب في التّأثير في سلوك مخاطبيه ؛حيث رأى الخطيب أنّ ترسيخ العقيدة الإسلاميّة في أذهان متلقّيه ضرورة حتميّة ؛على اعتبار أنّها تمثّل العمود الفقري للدّين الإسلامي ،وهي في الوقت نفسه تشكّل ذهنيّتهم ،فكلّ القيم تكتسب منها سلوكية كانت أو أخلاقية ، كما أنّه لا يخفى على أحد ما للدّين من أثر في الحفاظ على المجتمع ومقدساته وضبط السّلوكات ،وحملها على الانسجام فهو قادر على تنظيم الحياة تنظيما فعّالا من أجل التّأثير والتّأثّر .

وعليه يتّضح أنّ ابن نُباتة يُدرك قيمة المقدّمة،وأثرها لدى المتلقّي في خطبه فطعّمها ببعد

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ،ص 60

[2]– ديوان خطب ابن نباتة ،ص 79

[3]– ديوان خطب ابن نباتة ،ص 227

ديني إسلامي ؛إذ أنّه لا أحد ينكر الدّور الذي تلعبه مقدّمة الخطبة في التّمهيد لموضوعها فـ«الغرض منها تنبيه السّامعين إلى موضوع الخطبة ،وترغيبهم في الاستماع ،وإعداد أذهانهم للاقتناع ،واستجلاب خواطرهم،وتأليف قلوبهم حول الخطيب ،ما يريد منهم »[1] ،كما إنّ استهلال الخطب بعبارات التّحميد،والتّمجيد تقليد ورثه الخطباء عن الرّسول الكريم صلّى الله عليه وآله وسلم ،وألزموا أنفسهم به ،حتى صار من أوصافها.

و نجد في نصوص الخطب أنّ ابن نباتة قد جمع بينه ،وبين المتلقّي باستعمال ضمير المتكلم الجمعي" نحن " التي تدلّ في بنيتها العميقة على العنصرين (أنا+أنت) ؛ليجعل من المتلقي مشاركا معه في العمليّة الخطابية ،فهي تعبّر عن ذات المتكلّم والمتلقّي معا.

فاستعمال المرسل للضمير(نحن) يعد برهانا على استحضار الطّرف الآخر حتّى ،وإن كان غائبا ،وهو ما يعبّر عن قصد المتكلّم من الخطاب فدلالة «نحن في " نحن نسارع للخيرات " نجد أنّها لفظة واحدة في تكوينها ،وصبغة مستقلّة بنفسها في أداء الغرض منها هو المتكلّم مع الدّلالة على الجمع ،أو على تعظيم الفرد ، ولم يتّصل آخرها اتّصالا مباشرا بما ساعدها على ذلك الغرض»[2] ،وهنا تتّضح قيمته التّداولية التي تتجسّد في اعتماده على مبدأ المشاركة بين طرفي العملية التواصلية ،وما يساعد الخطيب على ربط علاقة متينة ،وتوطيدها مع مخاطبيه ،والتّضامن معه هو أنّ هذا الضّمير يحمل مشاركة بين المتكلّم ،والمخاطب قبل الكلام نفسه ،وكما أنّ «الدّق بهذه الضّمائر المتوالية بصيغة الجمع على أذن المخاطب ليكاد ينسبه نفسه» [3].

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أنّ دلالة "نحن" « تنقسم إلى قسمين رئيسين هما :

1- نحن الشّاملة .

2- نحن القاصرة أو الحاضرة ؛حيث يدخل المرسل إليه في إطار الصّنف الأول ،وهي تعادل أنا وأنت أو أنتم ،أما نحن في الصّنف الثّاني فهي تستبعد المرسل إليه ،لذا فهي تعني

---

[1]- حسين عبد العالي اللهيبي، الخطابة العربية في العصر العباسي الأول دراسة موضوعية فنية،مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية ،العددان 3،4، المجلد 7، 2008م، ص 103

[2]-عباس حسن، النحو الوافي ، ط3،دار المعارف،مصر،ج1، ص212.

[3]- عز الدين علي السّيد ،التكرير بين المثير والتأثير ، ط1،دار المحمدية ، 1978م،ص178 .

أنا وآخرون »[1] ،وجميع ما ورد في الدّيوان من نصوص كانت تخصّ النّوع الأوّل (نحن الشّاملة) ،وذلك راجع لمقصد الخطيب ،وهدفه من وضع خطابه ألا وهو إصلاح حال الأمة وتغيير سلوكها مع ما يرتضيه الدّين الإسلامي ،ولما فيه صلاح للفرد والمجتمع في الدّنيا والآخرة يقول الخطيب:«**أيّها النّاس: إنّا قد أصبحنا في دهرٍ مذيق مَحضُه، مضيقٍ خفضُه سريع نقضُهُ ،مَنيعٍ قرضُهُ ،ثَقيلٍ عَلينَا فَرضُهُ كأنَّا فيه زَرع قد قلّبته أرضُه ،نَقولُ مَا لا نَفعلُ ،ونَفعلُ ما لا نَعقِلُ ،ونَتبعُ مَن يجهل،كأنّا فيه عن الأعمالِ،والأقوالِ لا نسأَل قد أبطَرَنَا الرِّيُّ ،والشَّبَعُ ،وعَدَا على السُبَع فينا الهُبَعُ ،والرّبع،وأهملت بيننا المواقيت والجمع**»[2]

يعدّ النّداء «ضميمة اسميّة تشير إلى المخاطب لتنبيهه أواستدعائه»[3] ،وصيغة النّداء " **أيّها النّاس**" في مقطع الخطبة أعلنت عن مرجع ضمير المتكلمين "نا" ، وهو عنصر إشاريّ بديل عن الضمير "نحن"، وبهذا الإعلان يُفهم من خلاله الإشارة الشّخصيّة للضّمائر في النّص فمرجع الضّمير فيه يشير إلى المتكلم (الخطيب) مع المتلقي (النّاس) في صورة تضامنيّة تعاونيّة ؛حيث باستعمال الضّمير نحن بصورته الشّاملة كما في نصّ الخُطبة يحمل في طيّاته قيمة تداوليّة حينما جعلت من المتلقّي (النّاس) يرقى إلى مستوى الإمام ،ويتخلّق بخلقه ؛لأنّه أصبح مشاركا له في العمليّة التّواصلية ،فضلا عن ذلك سرعة الاستجابة من قبل المتلقّي لنداء المتكلّم ،وقد أخذ الإمام بعين الاعتبار طبيعة حال المتلقّي حينما افتتح خطبته باستعمال الضمير"نا" المُتّصل بحرف التوكيد (إنّ) ؛لأنّ المقام يقتضي ذلك ،فالخطبة قِيلت في موقف إنكار من قبل المتلقّين ،فالكلام إذن يحتاج لأداة توكيديّة لدفع الإنكار حتّى تتحقّق بذلك مقصديّة المُتكلّم ،ويتأكّيد مضمون الخطاب في أذهان المخاطبين المتردّدين وفحوى هذا الخطاب الذي عُبّر عنه بضمير جمع المتكلّمين "نحن" الذي ورد متصلا تارة(**إنّا أصبحنا،علينا،فينا بيننا**) ،ومستترا تارة أخرى (**نقول،نفعل،نعقل،نسأل**) في الخطبة هو وصف لحالة غفلة لابّد أن تجد اليقضة إليها سبيلا ،والتي يعيشها أفراد مجتمع الخطيب الذي يعتبر نفسه جزء لا يتجزّأ منه ،وهو ما بيّنه مرجع الضمير "نحن" من خلال سياق النّص ،فالخطيب مارس من خلاله نقدا اجتماعيّا ،وأخلاقيّا ،ودينيّا لأفراد مجتمعه ؛بالإشارة

[1]– عبد الهادي بن ظافر الشهري،استراتيجات الخطاب مقاربة تداولية ،ص 293

[2]– ديوان خطب ابن نباتة ،ص 121–122

[3]– محمود أحمد نحلة ، أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 19

إلى مآخذه عليهم ،وذكره لمواطن الخلل فيهم ،والتّنبيه إليها فقد شاع فيهم الرّياء ،والنّفاق ونقض العهود ،واتّباع النّاس للجاهل ،وغلب فيهم الحقير على الرّفيع ،وأضاعوا حقّ الله بأداء فروضه... .

وعلى أساس ذلك تتبيّن مقصديّة الخطيب ،وهدفه السّامي الذي سعى إليه والمتمثّل في الإصلاح الاجتماعي لأمّته ،بغية النّهوض بها ؛حتى تتبوّأ المكانة التي تستحقّها باعتبارها خير أمّة أُخرجت للنّاس ،وعليه يبدو أنّ الخطيب قد بحث في خطبه موضوعات تتعلّق بمجتمعه ،وكان مشاركا فيها يقول: « **أيُّها النّاسُ: أَضلَلنَا القُلوبَ فَلا دَليلَ عَليهَا مُرشد وأَهمَلنَا النُّفوسَ فَكلٌّ إلى عَطبِه مُخلِد،وأَثقَلنَا الظُّهور بمَا لَيسَ لَنا على حَملِه مُسعِدً وأَعملنَا الجَوارِح فيما هو لها على الرَّافعَة مَبعد،فَلا العِبُر عَن الفَسادِ نَاهيةٌ ،ولَا الِفكر إلى الرَّشادِ دَاعيَة ،ولا الهِمَم إلى الثَّوابِ سَاميَة ،ولا الذِّممُ على الأَحسَابِ مُحاميةً** »[1]

إنّ حضور ضمير جمع المتكلمين "نا" في هذا المقطع من الخطبة الذي هو عنصر إشاريّ من بدائل الضّمير "نحن" جاء مرتبطا مع الأفعال: **(أضللنا،أهملنا، أثقلنا، أعملنا)** يعود مرجعه من خلال السّياق على الخطيب ،الذي عزّز انتماءه بالجماعة (النّاس) ، وثقته بها بعد أن تتماهى أنا الخطيب مع نحن الجماعة ؛فيعبّران معا في صورة تضامنيّة تعاونيّة عن الهمّ الاجتماعي العام الذي آل إليه حال المجتمع ،وما يبرز أهمية ما يريد الخطيب نقله هو توظيف المُشير المقامي **(أيّها النّاس)** الذي يراد به استدعاء التنبيه « فبالنّداء يُعلن المتكلّم للمنادى إرادة اختصاصه من بين أمّته بتوجيه الكلام إليه »[2] في إشارة إلى أهميّة الموضوع ،كما وجد فيه الخطيب متنفّساً له في إبراز فكرته ؛إذ يعرض لنا من خلال استخدام الضمير" نحن" الذي حمل طبيعة إخباريّة وجهة انتقد من خلالها مجتمعه ،بتعداد الأعراض المرضيّة التي يعاني منها أفراده على تباينهم ،فقد ضلت قلوبهم عن جادة الصواب ،وانتشرت الفاحشة والفسوق بينهم ،وانغمست نفوسهم فيها بجوارحهم،وركنوا إلى الشّهوات ،والملذّات وتناسوا الموت ،وأصبح القابض على دينه كالقابض على الجمر ....

وما يلحظ في هذا المقطع من الخطبة أنّ ضمير جمع المتكلّمين عبّر عن مقصدية تداولية

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 208

[2]– نرجس باديس ،المشيرات المقامية مركز النشر الجامعي،2009م ، ص 247

متتمثلة في أنّ الاتّجاه الاجتماعي الذي أخذه الضمير قد جاء مُسَيّسا بالاتّجاه الديني ،ولا عجب في ذلك فالدّين ،والأخلاق جزء من حياة المجتمع ،وهما بمنزلة الرّوح من الجسد من خلال الدّفع إلى العمل والطاعة ،والابتعاد عن الشّرور ،والمعاصي حتى ينال الخير الوافر في الدّنيا والآخرة.

وقد كان حُضور ضمير جمع المتكلّمين "نحن" مكثّفا في نهاية خطب الدّيوان ،وذلك فلا يخفى على أحد من النّاحية الفنيّة للخطبة أنّ الخاتمة تلعب دورا هامّا في إيصال مقاصد الخطيب عموما باعتبارها «آخر ما يعيه السّمع ،ويرتسم في النّفس من الخطبة ،وبها يدرك الخطيب مراده»[1] ؛لذا تكون قويّة في تعبيرها ،وتأثيره فما يبقى يَرِنّ في آذان المستمعين هو الكلمات التي ربّما تبقى عالقة في أذهانهم ،والخطيب كان كلّ مرّة يختمها بدعاء مناسب وكان يستعمل الضّمير "نا" فيه ،وهو من بدائل الضّمير "نحن" الدّال على الشّموليّة ليعبّر عن مقاصده التي تأخذ بعدا دينيّا ،ونذكر على سبيل المثال لا الحصر بعض النّماذج ،والتي جاء فيها ضمير جمع المتكلّمين متّصلا مع الأفعال التي تحتها سطر : في قوله :«**جَعلَنَا الله ،وإيَّاكُم مِمّن آثَر الدَّار الآخرة ،واسْتقصَر عُمر الحَياة الدّنيا ، وأَحسنَ الاستِعدَادَ للمِعادِ والرَّجعَى**»[2] .

في هذا الدّعاء رغبة للعمل ليوم الآخرة ،والاستعداد ليوم الحساب بأداء جميع العبادات على وجهها الصّحيح ،وفي ذلك علامة على إيمان الخطيب ؛لأنّ الإيمان بالغيب ركن أساسي من عقيدة كلّ مسلم ،أمّا في قوله:«**حَصَّننَا اللهُ ،وإيَّاكُم مِن الدُّنيَا ،وحُتُوفِها وسَلَّمنَا وإيّاكُم مِن مَوارِد خُسُوفِهَا ،وأَمنَنَا وإيَّاكُم مِن قَوارِع صُرُوفِها ،و جَنَّبنَا ،وإيَّاكُم خُدعَ غُرورِها وتَسوِيفِها** »[3] ،ففيه يذمّ الدّنيا بعدم اتّخاذ الحياة فيها متاعًا عن طريق هجر ملذّاتها والانصراف إلى العبادة انصرافا كّليا ؛لأنّ اللّذة تُفسد الطّبع ،وتفقد الإنسان الذّوق السّليم وتبعده عن الأخلاق ،والقيم الرّوحية للمجتمع.

وعبّر في قوله:«**جَعلنَا اللهَ ،وايَّاكَم مِمّنْ أَعَدّ للقِيامَة عُدّتَه ،وأَنفَق في جِدّتِه،وأَخذَ للمَوتِ**

---

[1]– حسين عبد العالي اللهيبي،الخطابة العربية في العصر العباسي الأول،ص 105

[2]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 186

[3]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 247

قَبلَ حُلولِه أُهبتَه»[1] عن الاستعداد ليوم القيامة بزاد العمل الصّالح ،ولأُهبة الموت أيضا ،ذلكم الزّائر الذي لا يفوته مطلوب ،ولا يهرب منه مرغوب ،مفرّق الجماعات ،وهادم اللّذات وكاسر الشّهوات ،وهالك الرّغبات .

أمّا في قوله: «**زَحزَحَنا اللهُ ،وإيَّاكُم عَن دار البَوارِ ،و أَحلَّنا وإيَّاكُم دَارَ القَرارِ ،وحَمانَا وإيَّاكُم مِن حُطامِ هَذه الدَّار** »[2] ،فقد أكّد على أنّ الدّنيا دار معبر ،وممرّ ،لا دار مقرّ ومستقرّ ،ودار عبور لا دار سرور ، جديدها يبلى ،وملكها يفنى ،وعزيزها يُذلّ ،وكثيرها يقلّ وحيّها يموت ،وخيرها يفوت ،وذلك لأجل التّرغيب بالدّار الباقية ،والتّرهيب من الرّكون إلى الدّار الفانية ،وذلك بالعمل بسعي وجِدّ حتى ينال المسلم مرضاة الله ،وقد حثّ الخطيب النّاس في قوله:« **جَعلنَا اللهُ وإيَّاكُم مِمَّن نَفَى لَعبَه بِجدّه ،وجَعلَ أَربهُ في انحِرافِه عَن الدُّنيَا وزُهده** »[3] على ترك الدنيا والزهد فيها ،والاعتبار من الموت فالتعلّق بالدّنيا ،وحبّها ،وعشقها الدنيا هو سبب الكسل ،والتّقاعس عن النّفور في سبيل الله .

وعليه نجد أن الضّمائر باعتبارها أحد العناصر الإشاريّة بالرّغم من أنّها مُبهمَة لكن باستعمالها داخل السّياق ؛يصبح لكل واحدة منها قيمة تداوليّة تختلف عن الأخرى باختلاف المقام ،والحال التي يكون عليها المتلقّي.

2-1-2: ضمائر المخاطب :

تعدّ ضمائر المخاطب أحد العناصر الاشاريّة ، وتأتي بعد ضمائر المتكلّم من حيث قوّة الحضور والمشاهدة ؛لأنّ كلّ خطاب لابدّ له من متلقّ يشار إليه بالضمير الخاص به(أنت) أو(أنتم) ،وهي تأخذ بُعدا تداوليّا ؛لأنّها محطّ اهتمام المتكلّم ؛بل هي وجهته ومقصده وحضورها أمر ضروري ؛لأنّها طرف مشارك في عمليّة انجاز الخطاب ،وتوجيه مختلف مناحيه ،إذ أنّ ما يتلفّظه المتكلّم يستمدّ معناه بفضل نيّته في إحداث تأثير مُعيّن لدى المخاطب ،وبتبليغ مقصد مُحدّد ،وضمائر المخاطب تقابل المرسل إليه في الدّائرة التّواصلية أثناء التخاطب ، و« يقوم المرسل إليه بعملية " décodage" التفكيك لكلّ أجزاء الرّسالة

[1]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 126

[2]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 144

[3]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 267

سواء كانت كلمة ،أم جملة أم نصّا» [1] ،ويشير استعمال (أنت) إلى أنّ المشاركين في الخطاب يعتبرون أنفسهم ذوي علاقة حميميّة من الناحية الاجتماعية » [2] ،ويُمكن تعريف العلاقة الحميميّة بـ «أنّها التّعابير عن القيم المشتركة ،والقرابة والجنس والجنسية ، والموقع الوظيفي،وتكرار التّواصل...»[3]؛ لذا استعمل الخطيب ضمير المخاطب استعمالا إشاريّا لافتا في ديوانه لتحقيق التّواصل بين المتكلّم بوصفه مرسلا ،والمخاطب بوصفه مرسلا إليه لغرض تحقيق التّبليغ ،وتفعيل عمليّة التّواصل على اعتبار أنّ الخطاب هو «كلّ منطوق به موجه للغير بغرض إفهامه مقصودا مخصوصا »[4]،وهذا يدلّ على وجود علاقة اتّصاليّة تبتدئُ بالمتكلّم ،وتنتهي بالمتلقّي غايتها الإبلاغ ،والإنجاز ،والتّأثير.

وقد ارتبط هذا الضّمير بالاتّجاه الذي تبنّاه الخطيب الذي أخذ طابعا دينيا ألا وهو الإصلاح من خلال نشر الوعي وتنبيه الإنسان يقول :«**أَيُّهَا الإنسَان علا نَسبُكَ في المَنسيِّين فأَعرَق ،وقَارعَت جسمك نُوَبُ السّنين فَأخلِق، وأنتَ على حِرصكَ تُصرُّ ،ومِمَّا يُقرِّبُك إلى الله تَفرُّ،تَطلبُ من الدُّنيَا مَالا تُدركُه ،وتَتّقُ مِن الحَياة بِما لا تَملكُه ،لا أنتَ بمَا قسمَ اللهُ مِن الرِّزقِ وَاثِق ،ولا لِما حَذَّرَك من الذَّنبِ مُفارقِ ،فلا المَوعِظةُ تَنفعُك ،ولا الحَوادِث تَردعُك ،ولا الدَّهر يُزعجكَ ،ولا دَاعي المَوتِ يَسمَعكَ ،كأنَّك لَم تَزل حيًّا مَوجُودًا أو كأنَّك لا تعود نِسيًا مَفقُودا** »[5].

يخاطب الإمام في هذا النّص ذالك الإنسان الذي ألهته الدّنيا عن جادّة الصّواب ،وقد دلّ عليه مرجع العنصر الإشاري "أنت" الذي ورد متّصلا مرّة (**نسبك، جسمك**) ،وأخرى منفصلا وتارة مستترا مع الأفعال (**تصرّ، تفرّ، تطلب، تتق...**) ،وقد جعل بذلك من المتلقّي الذّات المركزيّة التي يعود عليها الخطاب ،فرسَم لنا ضمير المخاطب في هذا النّص من خلال السّياق صورة ذلك الإنسان الذي أسرف على نفسه بالذّنوب ،والمعاصي ،وأغرق نفسه في اللّهث وراء تحقيق شهواته وملذّاته ،فغرّه التّسويف وطول الأمل ،وأغرّته الدنيا ،ونسي آخرته

---

[1] – الطاهر بومزبر ، التواصل اللساني و الشعرية ، ط1، مشورات الاختلاف، الجزائر، ص25.

[2] – عبد الهادي بن ظافر الشهري،استراتيجات الخطاب مقاربة تداولية ، ص 288.

[3] – عبد الهادي بن ظافر الشهري،استراتيجات الخطاب مقاربة تداولية، ص 288.

[4] – طه عبد الرحمن اللسان والميزان والتكوثر العقلي،ط1،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،بيروت، 1988 م،ص215

[5] – ديوان خطب ابن نباتة ، ص 30

وجعلها آخر همّه غير آبه بنوائب الدّهر ،وغدر الزّمان ناسيا الموت بطول الأمل الذي أورثه الغفلة ،والغفلة أورثته التّهاون ،وغرست في نفسه التّعلّق بالدّنيا، وحبّ البقاء ،وإنّ حرص الخطيب على مصلحة المُتلقّي في كلّ مرّة ،ورغبته الجامحة في دعوته لما فيه صلاح له في الدّارين يقودنا إلى مبدأ تداوليّ هامّ يتمثّل في مبدأ الإخلاص الذي« يقضي من المتكلّم أن يُقدّم حقوق المخاطب على حقوقه ،وليس هذا التّقديم حطّ من قدر المتكلّم،ولا إضاعة لحقوقه فلا يحطّ هذا التّقديم من قدر المتكلّم» [1] .

يضيف الخطيب واعظا: «**فيَا مَغرُورًا ،والخِطابُ للجَماعَة وَاقعٌ ،يدخُل فيه الوَاعِظ والسَّامِعُ ،مَاذَا تَزوّدْتَ مِن عُمرِك المُضمَحِلّ ؟،أم مَاذَا أَعدَدتَ لأَجلِكَ المُضِلّ ،كأنَّكَ بِغطائِك قد كُشفَ ،وبِفنَائِكَ قد أَزِفَ ،وبِرُوحِك قد اختُطِفَ ،وبِضرِيحكَ عَليكَ قَد وُصِف،وبِبابِ عُمرِكَ قَد رُتِجَ ،وبِروحِك إلى السَّماءِ قد عُرِجَ ،فَبَعُدتَ وإن حَللتَ قَريبًا ،وجُفيتَ ،وإن كُنتَ حَبيبًا** »[2].

استعمل الخطيب العنصر الإشاري أنت الذي حمل معنى الوعظ للمخاطب ،وقد اكتسب هذا المعنى من السّياق الذي ورد فيه ضمير المخاطب "التّاء" مع الفعلين (**تزوّدتَ،أعددت)** والكاف المتّصلة في قوله: **(عمرك،أجلك)** ،وهما من بدائل الضّمير المفرد المخاطب "أنت" وهذه الضّمائر«تقوم بحسب أدبيّات التّداوليّة بوظيفة تنبيهيّة ،وتأثيرية ،وتبليغية »[3] إذ خاطب ابن نباتة من خلالها منبّها ذلك الغافل بدعوة ووقفة للتّأمّل عندما يسافر سفرا بلا رجعة ،ومن غير عُدّةً لهذا السّفر ،ثم يزيد في جُرعة الوعظ ، فيدعوه للتّخيّل عندما يأتيه الرّحيل إلى دار ويل ،وهو لم يقدّم لها صالح الأعمال في ذلك اليوم ،والسّاعة الأخيرة في حياته حينما تنزل الملائكة لقبض روحه ،وهي غافلة، ويشرب كأس المنيّة فيفارق به أهله وخلّانه.

وتجدر الإشارة أيضا في النّصين السّابقين أنّ الخطيب فيهما افتتحهما بصيغة النّداء – **(أيّها الإنسان)** في الخطبة الأولى و(**يا غافلا)** في الخطبة الثانية – و «أكّد النّحاة أن

[1] – طه عبد الرحمن، اللسان و الميزان و التكوثر العقلي ، ص252

[2]– ديوان خطب ابن نباتة ،ص 112

[3] – كاظم جاسم منصور العزاوي ، التعبير الإشاري في (الخَصيبيّ) مقاربة تداولية،مجلة العلوم الإنسانية، جامعةبابل/ كلية الآداب، العدد 01، 2016م،ص 77

النّداء يفيد الاختصاص بالمخاطب فلا يكون إلّا للحاضر»[1] ،وهذه الصّيغة قد أسهمت من خلال السّياق في تحديد مرجع الضّمائر ،ومن ثمّ تُصبح ضمائر المخاطب التي وظّفها ابن نباتة قبل الإعلان معلومة المرجع ،ومفهومة لدى المتلقّي فيتحقّق من خلالها التّواصل المنشود بشكل ناجح .

أمّا في قوله : « **أعجبَكَ العجبُ ،وأنتَ أَعجبُ مِمَّا أَعجبَك ،وأَطرَبكَ منال مَا إذا أَدركتَ غايتَه أعطبَك ،وأَعتبَك من الأيّام إذا استحكمت ثِقتَك به أَغضبَك ،وأتعبكَ عمرانُ ما كلّما عَمرْته أخربَكَ ،فأنتَ تدَّخِر مَا يُنفقُك، وتجدُّ ما يخلقُك ،وتُكذّب مَن يصدِّقك ،وتتّهم من يرزقك** »[2] .

نجد في هذا المقطع أن الخطيب استعمل ضمير الكاف مع الأفعال:(**أعجبك أطربك،أعطبك،أعتبك،أغضبك،يخلقك،يصدقك،ويرزقك)** ، وهو عنصر إشاريّ من بدائل الضّمير أنت الذي عبّر به عن حالة من عتب على ذلك الذي أغرّته الدنيا،ومطالبها ونسي الموت، ويلاحظ أن مرجعيّة الضّمير أنت التي هي في الأصل للمخاطب المفرد في النّص مبهمة لا يعرف مرجعها ،وقد ولّد هذا الغموض في المتلقّي حالة ترقّب لمعرفة من المخاطب فهي غير محدّدة مطلقة ،ولم تُوجّه لشخص بعينه فالمتلقّي في هذا النّص غير معيّن ،ولا مخصّص ،وإنّما المرجع يعود عامّا على كل ابن آدم ،مهما كان جنسه أو رتبته في الحياة فاستعمال الضمير أنت بإحالته المطلقة دون تحديد المرجع إلى متلقّ بعينه «يعطي بعدا تداوليّا أوسع حيث يصوغ استعمالها لمخاطبه كل من تنطبق عليه سمات المرسل إليه العام أي المفترض ،ولا تتّجه إلى واحد بعينه »[3] ،وبذلك نجد أنّ استعمال هذه الضّمائر ضمن الخطاب يخضع إلى مقصديّة المتكلّم ،وحسب الموقف الذي قيل فيه النّص.

وكان لاستعمال العنصر الإشاري ضمير المخاطب للجماعة "أنتم" حضور واضح في هذا الديوان ،والذي يُؤشَّر به إلى مجموعة من المتلقّين يكون لهم حضور فعليّ أثناء العمليّة الخطابيّة ،ونجد هذا العنصر في قول الخطيب:« **أَيُّها النَّاس: مَاهَذهِ السِّنة ،وأَنتُم مُنتَبهُون ،و مَا هَذهِ الحيرة، وأَنتُم تنظرُون،مَا هَذهِ الغَيبَة ،وأَنتُم تَنظُرون،ومَا هَذهِ السَّكرَة ،وأنتُم**

[1]– نرجس باديس ،المشيرات المقامية ،ص 247

[2]– ديوان خطب ابن نباتة ،ص 225

[3]– عبد الهادي بن ظافر الشهري،استراتيجات الخطاب مقاربة تداولية ، ص 289

صَاحُون ،وما هذه الطُّمأنِينَة ،وأَنتُم مطلوبون ،و مَا هَذهِ الإِقامَة،وأَنتُم رَاحلُون »[1]

هذا الخطاب وجّهه الإمام للمسلمين ،وقد خاطبهم باستعمال العنصر الإشاري "أنتم" الذي ورد في سياق النّصح ،وقد تكرّر في النّص عدّة مرّات للتّأكيد على المرجع المشار إليه ،وهم جماعة المتلقّين ،وحمل في الوقت نفسه بعدا تداوليا إنجازيا ،وهو وجوب الاستيقاظ ،والتّفكّر والاتّعاظ ،والاعتبار،وممّا ساعد في صياغة هذا البعد التداولي الانجازي هو الاستفهام الاستنكاري بأداة الاستفهام **(ما)** ،وبعده اسم الإشارة **(هذه)** الذي سبقا الضّمير أنتم في هذا النّص ،وكما هو معلوم فلأسماء الإشارة * في عمومها مرتبطة جليّا« بأهداف المتكلّم(مثلا تعريف شيء ما)،وبمعتقدات المتكلّم(أي فعل يتوقع من المستمع مرعرفة ذلك الشيء بالتّحديد) في استعمال اللغة» [2].

وقد خلق هذا التّركيب حالة من الاستنكار عن حال المسلمين الذين هم عليه ؛من خلال حالة النّعاس ،وهو لا يقصد النّعاس الحقيقي ،وإنّما المجازي أي ذهاب الانتباه عن حقائق ثابتة الوجود ،وهي كون الإنسان فانيا إلى الزوال ،ومصيره الموت ثم عن سبب حيرة الإنسان واضطرابه مع أنه منتبه لحقيقة الوجود وفلسفة الخلق والحياة ،وكذا عن غيبة الإنسان الرّوحية والفكريّة على الرّغم من حضوره الجسدي ،وأيضا عن سبب سكرة الإنسان وذهاب عقله مع أنّه صاح لم يتناول المسكرات ،ناهيك عن سبب طُمأنينة الإنسان مع أنّه مطلوب إلى حساب عسير على ما اقترفه في حياته الدنيا.

---

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ،ص 139–140

* يدخل هذا النّوع من الأشكال (العناصر) اللغوية تحت إطار المبهمات ،أو كما يسمّيها النحاة العرب بالأسماء المبهمة وهذا ما يشير إليه ابن يعيش قائلا « اعلم أنّ هذا الضّرب من الأسماء هو الباب الثاني من المبنيّات،وهي الأسماء التي يشير بها إلى المسمّى ، و فيها من أجل ذلك معنى الفعل،ولذلك كانت عاملة في الأحوال ، وهي ضرب من المبهم ويقال لهذه الأسماء مبهمات؛لأنّها تشير إلى ما بحضرتك أشياء فتلبس على المخاطب فلم يدر أنّها تشير فكانت مبهمة،ولذلك لزمها البيان بالصّفة عند الالباس» **ابن يعيش، شرح المفصل،عالم الكتب ، بيروت، مكتبة المتبني – القاهرة، المجلد الأول، الجزء الثالث ص 126** وأسماء الإشارة تصنف ضمن ضمائر الحضور؛ لأنّها تحيل على حاضر في وقت الكلام كما تدل على استحضار الذوات أثناء الخطاب، و« يرى بعض الباحثين أنّ (أل) التي للتعريف تدخل في العناصر الإشارية؛ لأنّها تقوم بالوظيفة التي يقوم بها اسم الإشارة ، و الفارق بينهما أنّ اسم الإشارة يزيد عليها بالدلالة على القرب أو البعد فهو موسوم بالقرب أو البعد أما (أل) التي للتعريف فهي غير موسومة بقرب ولا بعد، ويرى هؤلاء أنّ التّعريف في أساسه مفهوم إشاري» **محمود أحمد نحلة ، أفاق جديدة في البحث اللغوي ص 22–23**

[2] – جورج يول ، التداولية ، ص 40

وكلّ تلك الحقائق التي عرضها اتّصف بها ضمير جمع المتكلّمين أنتم المسبوق بواو الحال ليؤكّد للمتلقّين على حالة الغفلة التي أصبحوا عليها ،والتي تستدعي صحوًا قبل فوات الأوان ،وعليه يتبيّن أنّ استعمال الضّمائر ضمن الخطاب يخضع إلى مقصديّة المتكلّم وحسب الموقف الذي قيل فيه النّص ،ومن ذلك قوله: « **أَيُّهَا النَّاس: إنَّ اللهَ أَيَّه بِكُم ،فهَل أَنتُم سَامعُون؟،ونَدبَكُم إلى طَاعتِه فهَل أَنتُم إلَيْهَا مُسارِعُون ،وزَجرَكمُ عَن مَعصِيتِه ،فهَل أَنتم عَنهَا رَاجعُون وسَاومَكُم بنُفوسِكم فهَل أَنتُم لَها بَائعُون ،وجَعلَ أَثمَانهَا جَنَّتهُ فهَل أَنتُم إليها نَازعُون؟(...)، ألا وإنَّ الجِهادَ كَنزٌ وَفّرَ اللهُ مِنهُ أَقسَامَكُم ،وحِرزٌ طَهّرَ بِه أَجسَامكُم وعَزٌ أَظهرَ اللهُ به إسلَامكُم ،فإن تَنصُروا اللهَ يَنصركُم ،ويُثَبِّت أَقدامَكُم** »[1].

خطب الإمام هذه الخطبة في استنفار النّاس بحثّهم على الجهاد في سبيل الله ،وبالعودة إلى السّياق التّاريخي ،والظروف المحيطة بإنتاج النّص نجد أنّ ابن نباتة قد اجتمع مع سيف الدولة الحمداني وكان خطيبه المفوّه وشاهدا على حروبه ضد أعدائه ،وفي ذلك يقول يوسف بكار:« وكان من أشهر هؤلاء ابن نباتة الفارقي عبد الرحيم بن محمد (335هـ،374هـ) في الخطابة ،والوعظ كان خطيب حلب ،وواعظها في بلاط سيف الدولة ،وبها اجتمع بالمتنبي في خدمة سيف الدولة،وقد أكثر من خطب الجهاد* ليحضّ النّاس عليه ،ويحثّهم على نصرة سيف الدولة في غزواته الكثيرة »[2] ،لذا فالخطيب في هذا النّص يذكّر المؤمنين بنداء الله عزوجل لطاعته ،وسرعة الامتثال لأوامره ،وقد أشار إليهم باستعمال الضمير المخاطب الجمعي أنتم الذي جاء ضميرا متصلا "الكاف" في كلمات **(بكم، ندبكم ،ساومكم ،أقسامكم أجسامكم،إسلامكم،ينصركم،أقدامكم)** تارة ،وأخرى منفصلا "أنتم" والحقيقة أن هذا الضمير أشّر به على أنّ الجهاد في سبيل الله ،وبذل المال ،والنّفس فيه نيل لرضا الله تعالى ،ودفاع عن العرض ،والممتلكات ،والجهاد ضدّ الأعداء لطالما كان وسيلة لإعلاء شأن الإسلام فوق الأديان بإحراز النّصر على الأعداء لتحقيق الأمن والسعادة في الدنيا والآخرة ،ومنزلته سامية فهو السّبيل الذي يكون الموت فيه حياة والهلاك فيه نجاة ،وهو نصرة لله ؛لذا راح الخطيب

---

[1]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص299-300

* شكل موضوع الجهاد في سبيل الله قسما معتبرا من الديوان و قد جمعت في الديوان تحت عنوان خطب في الحث على الجهاد توزعت في الديوان بدءا من الصفحة 297 إلى غاية الصفحة 311

[2]- يوسف بكار،عصر أبي فراس الحمداني، مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطين للإبداع الشعري،2000 م، ص187

يحثّ عليه مرغّبا فيه قائلا : « **فانْفُروا –رَحمَكُم الله– جَميعًا ،وثُباتٍ ،وشُنّوا عَلى أَعدَائكُم الغارات ،وتَمسّكُوا بعِصَمِ الأقدام،ومَعاقِل الثّباتِ ،وأَخلصُوا في جِهادِ عَدوِّكم حَقائقَ النِّياتِ** »[1]

فضمير "الواو" المتّصل مع الأفعال :(**انفروا، شنوا، تمسكوا،أخلصوا**) بيّن أنّ الجهاد في سبيل الله لا يكون إلّا بالاستعداد الجيّد ،والثّبات يوم الوغى ،والصّبر مع إخلاص النّية لذلك وهي أسباب النّصر التي يتحتّم الأخذ بها لمقارعة الأعداء ،ويضيف الخطيب العوامل والشّروط التي يتوجّب على المسلمين الأخذ بها لتقوية أنفسهم ،وتحقيق ما يصبون إليه من نصر مؤزّر على عدوّ الله ،وعدوهم ،ومنها قوله:«**واعلَمُوا أَنَّه لَا يَصلُح الجهادُ بغيرِ اجتهاد كَما لا يَصلُح السَّفرُ بِغيرِ زَاد ،فقَدِّمُوا مُجاهدَة القُلوبِ قبلَ مُشاهَدةِ الحُروبِ ،ومُغالبَة الأهواءِ قَبلَ مُحاربَة الأَعدَاءِ ،وبَادِرُوا بإصلَاح السَّرائرِ ؛فإنَّها مِن أنفَس العدَد والذَّخائِر** »[2]

وضّح ضمير جمع المتكلّمين "الواو" المُتّصل مع الأفعال: (**اعلموا،قدّموا،بادروا**) هذه العوامل المتّمثلة في إصلاح السّريرة ،واليقين بحسن الثقة في الله عزوجل ،ثم لزوم الطّاعات وكبح جماح النفس عن شهواتها ،واتّباع هواها ،وارتكاب المعاصي ،وتقوى الله تعالى مطلوبة في كل الأحوال سرّا وإعلانا ؛لأنّها أقوى أسباب النصر ،وأوكدها ،وهو ما دلّ عليه ضمير المخاطب "الواو" وهو عنصر إشاري نائب عن الضمير أنتم في قوله: «**أقطعُوا بتَقوَى اللهِ أَوديةَ الأَعمارِ،و أرفَعُوا فِي جِهادِ عَدوّ الله أَلويَة الأبرَار**»[3] إذ بيّن لنا ضمير جمع المتكلمين "الواو"المتصل مع الفعلين: (**اقطعوا،ارفعوا**) أنّه لن تُغلَب فئة جعلت من تقوى الله شعارا لها لأنّه تعالى مع المتّقين،وبذلك نجد أنّ العنصر الإشاري الضمير على الرّغم من أنّه يُعدّ من المبهمات ؛إلّا أنّه بوجوده داخل السّياق أكسب المعنى قوّة وتأثيرا.

2-1-1: ضمائر الغائب:

ضمير الغائب عنصر إشاري من أكثر الضّمائر إبهاما صاحبه غير معروف؛ لأنّه غير حاضر ،ولا مشاهد فلابدّ لهذا الضّمير م ن شيء يُفسّره ،ويوضّح مراده ،وهو «يدخل في الاشاريّات؛إذا كان حرّا أي لا يُعرف مرجعه من السّياق اللّغوي،فإذا عُرف مرجعه من السّياق

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص300

[2]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص300

[3]– ديوان خطب ابن نباتة ،ص 302-303

اللّغوي خرج من الإشاريّات »[1]، ويَتَبيَّن مرجعه وقد اختير الضمير المتصل"الهاء" ليدلّ على الغائب الذي يكون غائبا عن المشاهدة حاضرا في النفس والعقل ،ومن شواهده في الديوان قول الخطيب: «**أَيُّهَا النَّاسُ: فَضَحَ المَوتُ الدُّنيَا فازدَرُوها لفَضيحَتِها ،ونَصحَتكُم حَوادثُها فاحذَرُوهَا لِنصِيحَتهَا،فكفَاكُم بها مُنذِرا ،وبِسابِقِها عن لَاحِقَها مُخبِرا،أو مَا رَأيتُم إِفسَادهَا مَن أَصلَحهَا وغِشَّها مَن نَصحَها،مِمَّن اتّخَذَها وظَنَّ غِطاءَها غُنمًا ،فكانت أُمُومَتُها يُتما،وعادت غنيمتُها غُرمًا،حين أقصَدَتهُم بفجائِعها ،و أرصَدت لهُم الموت على طَلائِعها، وزَحَفت إليهم بنوَائبِها ،وأَعنَقت عَليهِم بنَيَارِبِها** »[2].

بدأ الإمام خطابه بنداء مؤثّر **(أيّها النّاس)** الذي يوحي بأنّ المنادي يريد أن يقول شيئا يستلزم الانتباه ،والإصغاء ،ويجعل السّامع متيقّظا لسماع ما يقال ،و في هذا النّص يحذّر الخطيب من الدّنيا ،وينهى عن التّمسّك ،والاغترار بها ،وقد تضمّن الخطاب مجموعة من العناصر الإشارية الدالة على المفرد الغائب المؤنث "هي" في: **(ازدروها،فضيحتها،حوادثها إحذروها ،نصيحتها،سابقها،لاحقها)** ،وهذا الضمير المتّصل "الهاء" مرجعه يعود على الدنيا التي سبق ذكرها مع بداية الخطاب ،وكأنّ المتكلم أراد من المتلقّي التّركيز على الدنيا وإبلاغه شيئا مهمّا ،وهذا العنصر الإشاري الضمير(الهاء) قد ورد في سياق الأفعال الكلامية التي تنتمي إلى صنف التوجيهيات،إذ كان الإمام ينهى عن التمسك بالدنيا في قوله: **(إزدروها،واحذروها)** وهذه النواهي كأنها أثارت تساؤلات في نفس المتلقّي لماذا هذا النّهي عن التّمسّك بالدّنيا؟ ؛لذا علّل الخطيب بيان سبب النهي في دعوة تأملية: **(أو ما رأيتم إفسادها مَن أصلحَها ، وغشّها من نصحها)** ، فضمير "الهاء" يعود على الدنيا ،وقد بيّن غدرها مع من يتّخِذُها مأمنا،ويستمرّ الإمام في تعليل هذا النهي لإقناع المتلقي ،فيشرع في تعداد صفات الدنيا الغدّارة ،وقد أشار إليها بضمير المتّصل "الهاء" في قوله: **(أمومتها... فجائعها... طلائعها، نوائبها،...نيرانها)** ،وهذا التّكرار لضمير الغائب العائد على الدّنيا يحمل بعدا تداوليا هو التّأثير في المتلقّي ،وإقناعه بهذا النّهي ،وهذه الصّفات التي اتّصفَت

[1] – محمود أحمد نخلة ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ص19

[2] – ديوان خطب ابن نباتة ، ص 33

بها الدّنيا في أنّها متاعُ الغرور؛ تَفتن بزُخْرفِها ،وتَخدَع بغرورها ،وتغرُّ بمحاسنها ،ولكن سرعان ما تضرم نيرانها ،وترحل بالموت فتفرّق الأهل والأحباب .

أمّا في قوله :« **أيُّهَا النَّاس:إنَّ الفِتنَة نَارٌ شَديدٌ ضِرامُها ،بعيدٌ مَرامُها،جَائرةٌ أحكَامُها ،دَامرةٌ أَعلامُها مَسمُومةٌ سِهامُها،مَذمُومةٌ أيَّامُهَا تُغيّرُ النِّعمَ ،وتُعجِّل النِّقمَ،وتَقطَع وَشايِج التَّواصُل فَتصِير بِأهلِها إلى البَغضَاء والتَّخاذُل ،يُطلِع فيها الشّيطانُ رأسَه ،ويبُثّ بها في القلوبِ وِسواسَه ،وهل هي إلّا نارٌ وقودُها الغضبُ ومُذكّيهَا الصَّخبُ،وقَادِحُها اللّعب ومُؤجّجُها الكَذبُ ،يَطمعُ العدوّ في أهلها،وتُقطَّعُ المودَّةُ بوَصلِها** »[1].

يصف الإمام الفتنة وخطرها ،وقد ذكرها لفظا صريحا وشبّهها بالنّار فأشار إليها بالضّمير المتّصل "الهاء" **(ضرامها، مرامها، أحكامها، أعلامها، سهامها، أيامها)** ،وقد وصف لنا هذا الضمير الفتنة عندما تُوقد نيرانها في المجتمع ،فهي تُعتَبَرُ من أخطَر الأُمور التي يُحذَّر منها ،وهي غايةِ المُخرّبين للوصول إلى الحياة المستقرة التي ينعم بها الأفراد ،والشعوب على حدّ سواء.

فما من مجتمع ضَربت أوصاله موجات الفتن ،واستجاب أبناؤُه لدعاوى الباطل ،والضّلال إلّا وهلك الجميع ؛لأنّ الفتنة كالقتل بل أشدّ ،ولا يسلم منها القريب والغريب ،ثم أشار إليها بالضمير المستتر مع الأفعال **(تغير،تعجل،تقطع،تصير)** ليبيّن نتائجها الوخيمة على الفرد والمجتمع فهي تبدّل النّعم نقما ،وتقطَع العلاقات ،وتنشُر بين النّاس التّناحر والاختلاف فيتحوّل المجتمع إلى فِرق وشِيع ،وأحزاب وجماعات متناحرة تتفازعُها الأهواء ،والعصبيّات الجاهليّة ،وقد يحصل بينهم من الشرّ ،والفساد ما الله به عليم

كما عكس لنا الضّمير الإشاريّ "الهاء" ،وهو من بدائل ضمير الغائب للمفرد المؤنث"هي" الأسباب التي من شأنها أن توقد نار الفتنة ،وتلهبها في قوله:(**وقودها،مذكّيها،قادحها ،مؤجّجها)**، ثم أكّد مرّة أخرى باستعمال ضمير الهاء **(أهلها، وصلها)** ضررها الكبير على الفرد ،والمجتمع الذي يصبح لقمة صائغة للأعداء ؛لأنّ الفتنة تُضعِف المجتمع ،وتهدّم دعائمه ،فتكثر بينهم الخيانات ومن ثم يكثر التّسلّط فيدخل العدوّ على صفته مصلح ومنقذ ،ومُخلِّص فيقضي على ما بقي من الخير في هذا المجتمع الملتهب بنار الفتنة ،فينهب

[1]– ديوان خطب ابن نباتة، ص 283–284

ثرواته وخيراته ويذلّ أفراده ،ويستغلّ وجوده في نشر الشرّ والفساد ؛بل يسعى لطمس هويّة الإسلام كما أنّها تقطع أواصر العلاقات بين أفراده بلختلال الجماعة ،وحدوث الفرقة.

إن هذا التّنوّع في نوعيّة الضّمائر يحمل بعدا تداوليا يتمثّل في لفت انتباه المتلقّي بشأن خطورة الفتنة ،وبذلك نُدرك أهميّة هذه العناصر الإشاريّة،والأثر الذي تتركه عند استعمالها في سياقات مختلفة.

وضمير الغائب هو الشخصية الثّالثة في الخطاب ، و تعدّ هذه الشّخصيّة عنصرا أساسيا فيه « ميزتها أنّها تبتعد عن الإبهام ، و يدعوها جون سرفوني (J.Cervoni) باللا–شخص(non personne) ،ولكن لا يمكن للضّمير أن يُعبّر عن اللاشخص بحيث لا يظهر إلّا إذا أراد المتكلم ذلك ...إنّه يمكن أن يطلق على (هو) الضمير الغيبي ،ولا يختلف عن (أنا) و(أنت) ، ولا يمكن تحديد وظيفة (هو) خارج أفعال الكلام حسب مانغو (Mainguenau) ،فالسّياق اللغوي هو الذي يسمح بترجمة (هو) ، وربطه بسياقه يقدّم له مدلولا ،والشيء نفسه بالنسبة لـ" أنا" و " أنت" اللّذان تفتقدان للمرجعية في حالة فقدان الاستعمال الواقعي لهما»[1]، ومن ذلك قوله: « **أيُّهَا النَّاس: إنَّه لَيسَ أَحدٌ أَكرمَ عَلى الله مِن نَبيِّه، ولا أَشرَف عِنده مِن مُحمّدَ نَجيّه ،وَصَفيِّه ،وإنّه لم يُؤخّر عِندَ انقِضاءِ مُدّتِه ،ولم يُعمّر عند حَضورِ مَنيَّته** »[2].

بحجة إقناعيّة دامغة أكَّد الخطيب في هذا النّص حتميّة الموت الذي لا يفرّق بين عام وخاصّ مهما كانت منزلته ،ولو كانت الدّنيا دائمة لكان رسول الله أشرف الخلق حيّا وباقيا ؛حيث بيّن لنا الضّمير المتّصل "الهاء" **(نبيّه،عنده،نجيّه،صفيّه)** الذي يعود مرجعه على الله عزّوجلّ المكانَة الرّفيعة التي يتبوّؤُها نبيّنا محمّد عليه أفضل الصّلاة والتّسليم عند الله عزوجل ،ومع ذلك لم يؤخّر أجله المسطّر له ،وهو ما بيّنه مرجع الضّمير"الهاء" في قوله:**(مدّته ، منيّته)** الذي يعود على محمد صلى الله عليه وسلم الذي سبق ذكره في النّص.

ويواصل في الخُطبة نفسها وصف الحال التي كان عليها نبيّنا محمّد بعد أَذِن الله بأجله يقول: « **فَاشتَدّ لذلك كربُه ،وأَنينُه ،وتَرادفَ قَلقُه ،وحَنينُه،واختلفَت بالانقِباضِ والانبِسَاطِ**

[1] – ذهبية حمو الحاج ، لسانيات التلفظ و تداولية الخطاب ، ص 113–114

[2]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 271

شِمالُه ويَمِينُه،وعَرِق لِهولِ مَصرعِه جبينُه ،فبكى لِمنظَره مَن أبصَره ،وانتَحب لمَصرَعه مَن حَضرَه ،فلم يَدفع الجَزعُ عَنه مَقدُورًا ،ولا رَاقبَ المَلَكُ فِيه أهلًا ،ولا عَشيرًا ؛بَل امتَثل مَا كَانَ به مَأمُورًا ،واتّبَع مَا وجدَه في اللَّوحِ مَسطُورًا »[1]

ضمير "الهاء" المتّصل يعود مرجعه على النّبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم ،وقد ذكره مرّة واحدة ،وعدل عنه بغية الاختصار،والإيجاز في قوله:(**كربه،أنينه،قلقه،حنينه،شماله،يمينه مصرعه،جبينه،منظره)** وبيّن لنا هذا الضّمير كرْب ،وهول سكرات الموت ،وغَمَرات الألم والأوجاع، وهي كرب يتغشّى المحتضر عند الموت من هول المفاجأة ، ولا ينجو منه أحد فللموت والأجل من قضاء الله ،وقدره الذي كتبه في اللّوح المحفوظ عنده سبحانه ،قبل أن يخلق الخلائق ،فلا يلحقه تغيير،ولا تبديل ؛ فقد كتبه سبحانه بعلمه الذي لا يخطئ،ومشيئته التي لا تتخلّف ، ومن هنا يتّضح أنّ توظيف العنصر الإشاري الدّال على الغيبة يحمل أبعادًا تداوليّة يكشف عنها السّياق الذي استعمل فيه.

وقد استعمل الخطيب العنصر الإشاري ضمير الغائب حاملا معنى الدعاء في قوله:

«**اللهم عُمّ بالصَّلاحِ والتَّوفيقِ رَعايَا المُسلِمينَ،ورُعاتَهم وأُمراءَهم ،ووُلّاتَهم وحُكّامَهم وقُضاتَهُم ،وعُلَماءَهُم وهُداتَهُم ،وعُمّالَهُم ،وكُفاتَهم ،وأَيِّد اللّهمَّ بِعونِكَ أَنصَارهُم وحُماتَهُم،واجمَع فِرقَهُم ،وأشتَاتَهُم، واحرُسِ اللّهمَّ فُرسَانهُم وكُماتَهُم** »[2].

يخاطب الإمام الله سبحانه وتعالى بالمناجاة والدعاء الذي استعمل فيه العنصر الإشاري" أنت" الدال على الذات الإلهية،وقد جاء مستترا مع الأفعال: **(عمّ،أيّد،اجمع،احرُسِ)** ،وهذا الدّعاء خاصّ لرعايا للمسلمين بمختلف طبقاتهِم،وهو ما دلّ عليه مرجع ضمير الغائب الجمعي"هم" الذي يعود على المسلمين ،وقد جاء متّصلا مع الكلمات التي تُبيّن الفئة التي تحرِص على خِدمة شؤون المسلمين **(رعاتهم،أمراءهم،ولاتهم حكامهم،قضاتهم،علماءهم،هداتهم،عمالهم ،كفاتهم أنصارهم حماتهم ،فرقهم،أشتاتهم،فرسانهم،كماتهم)**، وهذا الدّعاء الذي خصّه الخطيب لوُلّاة أمور المسلمين بالصّلاح والتّسديد،والأخذ بأيديهم إلى ما يصلح رعاياهم يأخذ بعدا دينيا،لأنه من الأمور التي

[1]- ديوان خطب ابن نباتة، ص 271

[2]- ديوان خطب ابن نباتة ، 379

حثّت عليها شريعة الله،إذ بصلاحهم تصلح أمور البلاد والعباد.

وفي موضع آخر يقول: «**اللّهمّ انصر جيوش المسلمين،وكثّر أنصارَهم،واحمِ حوزتَهم واعلِ منازلهُم،وآمن سُبُلَهُم،وأرْخِصْ أسعارهم،و افْكَكْ عناةَ المسلمين واحلل أسَارهُم،وبلِّغهُم في عَافيةَ دِيارِهم ،واهلِك اللهمّ أعدائَك ،وأعداءَ المُسلمينَ،وامحُ آثارهم،واسْتأْصِل شَأفتَهَم،وعَجِّل دَمارَهم، وأَسرِع اللهمّ هلاكهم وبوارَهم** »[1].

يختلف استعمال الإشاريّات الشّخصيّة بحسب اختلاف الحالة التي يكون عليها المتكلّم ،والقصديّة التي يُريدُها من كلامه ففي هذا الدّعاء يتوجّه الخطيب لله عزّوجلّ متضرّعًا تارة لجيوشِ المسلمين بأن يقوّيهم في الجهاد ضدّ أعدائِهم لنصرة الدين الإسلامي ،وقد ورد ذلك في بداية النّص ثمّ عدل عن ذكرهم باستخدام الضّمير الغائب للجمع "هم"،وقد ورد مُتّصِلا مع(**أنصارهم، حوزتهم، منازلهم أسعارهم أسارهم، ديارهم**) ،وتارة أخرى على أعداء المسلمين بأن يخذلهم ويدمّرهم ،وقد ذكرهم مرّة في النّص الذي بيّن فيما بعد مرجع ضمير الغائب "هم" حينما عدل عن ذكرهم في قوله: (**آثارهم، شأفتهم، دمارهم، هلاكهم ،بوارهم**) .

وقد حمل هذا الدّعاء بعدًا تداوليًّا يتمثّل في أنّ عصر الخطيب قد شهد حروبا ضارية مع الأعداء حيث الصّراع المستمر مع الرّوم و « مملكة سيف الدّولة كوّنت لها جيشا وطنيا ،خاض المعارك الطاحنة مع أعظم دول ذلك العصر فهزمها ،وهزمته ،وكانت الصّخرة التي تحطّمت عليها آمال الرّوم»[2] ،ومن هنا برزت النّزعة السّياسيّة ذات الطّابع الدّيني في خُطبِ ابن نُباتة في أدبه الجهادي ،الذي دعا فيه إلى الجهاد في سبيل الله ،واستنهاض الأمّة بكل طاقتها ،والدّعوة إلى الوحدة ،والتّضامُن ونبذ الفُرقة والاختلاف والالتفاف حول القيادة وتوطيد دعائم الأمن ،وفي أدبه الجهادي وصفَ الخطيب البطل سيف الدولة الحمداني ،وهو ما دلّ عليه ضمير الغائب "الهاء" في قوله: «**فكُونوا عباد الله ممّن يُؤازِرُه عَلى عَدوّ الله ويضافرُه بزمَاع المُعِدِّين ،وإسراع المجدّين ،وثُبات المُتحقِّقينَ ،ونيّاتِ المُتّقِينَ ،عند اغبرارِ الأُفُقِ ،واحمرار الحَدَق ،وانهمارِ العرَقِ ،وارتكاب طبقٍ على طبقٍ وازدلافِ الزُّحوفِ**

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 394

[2]– أحمد عدوان ، الدولة الحمدانية، ط 1، منشورات المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان والمطابع،الجماهرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية ، 1982م، ص227

والتفافِ الصُّفوفِ ،واختِلافِ السُّيوفِ والانصرافِ من الحُتوفِ إلى الحُتوفِ »[1].

يلاحظ في هذا النّص أنّ الخطيب وظّف عُنصرًا إشاريّا هو الضّمير المتّصل "الواو" في قوله **(كونوا)**، وهو يشير إلى مرجع ذكر داخل النص وهم عباد الله ،ونخصّ منهم المُجاهدين الذي يدعوهم لمؤازرة قائدهم في حربه بشجاعة ،وعزيمة نافذة حينما يُحمَى وطيسُ المعركة الذي أشّر عليه بضمير الغائب المتصل "الهاء" في قوله **(يؤازره، يضافره)** فمرجع هذا الضمير لم يذكر في النّص ،وإنما فهم من السّياق الخارجي ،وهو يعود على سيف الدّولة الحمداني،وما إضماره في النّص إلّا إيماء على حضوره في أذهان المسلمين لشدة ،وقوة بأسه في محاربة أعداء المسلمين إلى جانب عظمته ،وعلو شأنه بينهم فقد « حارب سيف الدولة الرّوم في عُقر دارهم ،وبلَغ مواطن لم يبلغها أحد من العرب والمسلمين لا قبله ،ولا بعده(...) وذاع اسمه في العالم الإسلامي لا بوصفه حاكم حلب فحسب ؛بل لأنّه البطل المُجاهِد ضدّ الرّوم ،وقد كان أقوى خصم ،وأعظم بطل وقف أمام الجيوش البيزنطية »[2].

وبذلك نجد أن للعناصر الإشارية دور في تبليغ مقصديّة المتكلّم التي تختلف حسب السّياق الذي ترد فيه،يقول الخطيب:« **فأَينَ الفِرارُ إذا لفَح هَجيرُها،واضطرَم سَعيرُها ،واقمطرَّ دمقُها وزمهريرُها ،وسَعت آفاتِها،ونَفخَت حيّاتها ،وصَعدت ذَوائبُها وعَقَّدت عَقاربُها ،وتَفرقَع شَرارها ،وارتفع غُبارُها وقَطّب،خُزَّانُهَا ،وكلَح أعوَانها ،وهمَّت بالصُّعُود ،وقَالَت: هَل من مزيد** »[3].

الضّمير "الهاء" في هذا النّص في قوله:(**هجيرها، سعيرها، دمقها ،زمهريرها ، آفاتها حيّاتها ، ذوائبها، عقاربها، شرارها غبارها ،خُزّانها، أعوانها)** كلها تعود إلى مرجع خارج النص لم يذكر صريحا،وهذا الضمير يشير إلى نار جهنم- أَعَاذَنَا اللهُ مِنهَا – وقد أضمر للتّأكيد على شدّتها ،وهولها لأنّ ما ذُكر من أوصاف هي مُختصّة ،ومقصورة عليهَا دون غيرها فهِيَ مُنتَهَى العَذَابِ ،وَشَرُّ المَآبِ،وَهِيَ الخِزيُ الأَكبَرُ ،وَالخُسرَانُ العَظِيمُ الَّذِي لا خِزيَ فَوقَهُ وَلا خُسرَانَ أَعظَمُ مِنهُ ،وما غرض الخطيب من ذلك الوصف المريب إلا لِيَزدَادَ المؤمن

[1]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 312

[2]- إحسان محمود سليمان ،شعراء ومفكرون حول سيف الدولة ، بحث مقدم لنيل شهادة دكتوراه،إشراف الدكتور :صالح آدم بيلو،جامعة أم درمان الإسلامية،2009م، ص 19

[3]- ديوان خطب ابن نباتة ،ص 280

حَذراً ،وخوْفاً ،وليكون ذلك الوصف دافعا للنّاس إلى اختيار الخاتمة السعيدة ،والسعي للوصول إليها ،وتجنّب الخاتمة السّيئة ،والابتعاد عن كلّ ما يقرّب منها.

وعليه يتبين أنّ الضّمائر تُصنّف ضمن الإشاريّات الشّخصية ،وتتّصف بصفة الإبهام لكنّها تكتسب معناها بواسطة السّياق الذي يجلو عنها هذه الصفة ،وعن طريق عملية التّواصل بين المتكلّم والمتلقي.

2-2: الإشاريّات الزّمانيّة:

هي أدوات تربط الزّمن بالفعل والفاعل ،ولها أثر كبير ،وأهميّة في تأويل الخطاب تأويلا صَحيحاً ،إذ يلزم المرسل إليه ليدركها ،وأن يحدد مرجعها ،وهو ما يتطلّب معرفته بلحظة التلفظ[1] لأنّها« كلمات تدلّ على زمان يحدّده السّياق بالقياس إلى زمان التكلم، فزمان التّكلم هو مركز الإشارة الزّمانيّة في الكلام، فإذا لم يعرف زمان التّكلّم أو مركز الإشارة الزّمانيّة التبس الأمر على السّامع أو القارئ»[2]، فمثلا": يتجاوز مدلول كلمة اليوم في عبارة " بنات اليوم" دلالة هذا العنصر الإشاري إلى الزّمن الكوني الذي يتحدّد بأربع وعشرين ساعة إلى أن يشمل العصر الذي نعيش فيه ،فهذه الدّلالة الإضافيّة موكولة إلى السّياق الذي ترد فيه هذه العناصر الإشاريّة.

كذلك صيغ الأفعال فإنّها تخضع لتفسير مرتبط بزمن المتكلّم، فالفعل الماضي يضع الحدث في نقطة زمنية سابقة على زمن المتكلّم ،بينما الفعل المضارع يضع الحدث في نقطة زمنية ليست سابقة لزمن المتكلم [3] ؛ لذلك فإنّ هذه العناصر الإشاريّة قد «تكون دالّة على الزّمن الكوني الذي يفترض سلفا ... وقد تكون دالّة على الزّمن النّحوي، وقد يتطابقان في سياق الكلام ،وقد يختلف الزّمن النّحوي عن الزّمن الكوني ،فينشأ بينهما صراع لا تحلّه إلّا المعرفة بسياق الكلام» [4] ؛ فتعتمد الإشاريّات الزمانيّة في تفسيرها على معرفة وقت الكلام فمن أجل تحديدها ، وتأويل الخطاب الذي وردت فيه تأويلا صحيحا« يلزم المرسل إليه أن

[1]- ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري،استراتيجات الخطاب مقاربة تداولية ، ص 73

[2]- محمود أحمد نحلة ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 19

[3]- عبد الهادي بن ظافر الشهري،استراتيجات الخطاب مقاربة تداولية ،ص 23

[4] - عبد الهادي بن ظافر الشهري،استراتيجات الخطاب مقاربة تداولية ، ص21

يدرك لحظة التّلفظ فيتخذها مرجعا تحيل عليه ،ويؤوّل مكونات التّلفظ اللّغوية بناء على معرفتها»[1] .

وقد أفضت دراسة بنفنست (Benveniste) للزّمن تقسيمه أقساما ثلاثة معتمدا على علاقة المتكلّم بالزّمن [2] :

1- **الزّمن الطّبيعي:** يحسّ به الإنسان ،ويدركه في حياته ،ويختلف انقضاؤه من بيئة لأخرى ويمتاز عن غيره من الأزمنة بالاستمرارية .

2- الزّمن التّاريخي : بما أنّ الإنسان جزء لا يتجزّأ من البيئة التي ينتمي إليها ،وبما أنّه كائن حي تتعاقب عليه مجموعة من الأحداث ،فيُمكنه أن يؤرّخ لحياته من بدايتها إلى نهايتها وذلك عن طريق الذّاكرة لتأليف ما يدعى بالسّيرة الذّاتية .

ومن اللسانيين من يحاول إبعاد الزّمن عن المرجعية ، إذ يؤكّد (بنفنست) (Benveniste) أنّ الأحداث ليست هي الزّمن ،لكنّها متضمّنة فيه ، بينما (أركيوني) تقول: «إن الزّمن هو حصر حدث ما في محور الأزمنة بالنسبة لوقت معتمد كمرجع »[3] ،ويعود هذا الزّمن إلى تاريخ أو فترة تاريخية في حضارة أو بيئة معينة.

3- زمن الحدث: وقد أطلق عليه (بنفنست) (Benveniste) مصطلح (زمن الحديث) أما تودوروف فقد أطلق عليه مصطلح زمن الخطاب ،وهو البحث عن تمثيليّة الزّمن في ارتباطه مع لحظة الحديث ،ويتجلّى زمن الحديث في الحاضر الذي يشكّل مرجعيّته أمّا الماضي والمستقبل فمتعلّقان به .

ويتجلّى الزّمن في اللّغة بواسطة القرائن التي تتحدّد بجوار الأفعال عند نهايتها أو بواسطة ظروف الزمان[4] مثل البارحة ، وفي الصباح، واليوم ، والآن ،وغدا ،أما لحظة الخطاب فتبقى المحورالذي ترتب بواسطته مبهمات الزمن ،ولتحديد هذه المبهمات تبعا لأزمنتها تقترح (أركيوني) التّصنيف الآتي[5] :

---

[1] – المرجع نفسه ، ص 83

[2]– ذهبية حمو الحاج ،لسانيات التلفظ و تداولية الخطاب ، ص 105-106

[3]– المرجع نفسه ، ص 105

[4]–ذهبية حمو الحاج ،لسانيات التلفظ و تداولية الخطاب ، ص 106

[5]– المرجع نفسه، ص 107

1 **المبهمات التّزامنية** : استعمالاتها ودلالتها يقترن بالحاضر.

2 **المبهمات القبليّة** : زمنها انقضى وفات.

3 **المبهمات البعديّة:** الزّمن الذي لم ينقض بعد.

4 **المبهمات الحياديّة:** زمنها غير محدّد، وسُمّيت كذلك ؛لأنها تخرج عن المبهمات المحدّدة بسبب اختلافها عنها.

وقد يحصل صراع في معرفة الإشارة الزّمانية ،فقد تكون كونيّة ،كالسّنة، والشّهر والأسبوع واليوم ،والسّاعة ،أو نحوية ،فيدّل الماضي على الاستقبال ،والحال على الماضي فلا يمكن التّمييز حينئذٍ إلّا بتحديد سياق الكلام،ومرجع الإشارة[1] ،وهو ما ينبغي على المتلقّي إدراكه لأنّ« الإشاريّات الزّمانية تعمل على تأطير عمليّة التّواصل داخل نطاقها الزّمني وتعبّر عن اندماج المتكلّم ،والمخاطب معا داخل الزّمن النّصي والتّلفظي والتّواصلي»[2].

ولتداوليّة المرجع الذي يصاحب هذه الأدوات ،فإنّ المرسل يلجأ في خطابه استعمال الألفاظ الدّالة على الزّمن،وهذا الاستعمال خاضع لما يقصده الخطيب في ديوان خطبه ؛لأنّه زمن مبهم ،ولا يمكن للقارئ أن يدرك دلالته إلّا بمعرفة السّياق الذي ورد فيه لذا استعمل ابن نُباتة الفارقي صيغا إشاريّة زمانيّة في خطب ديوانه،ارتبطت بمناسبات دينيّة ،وسمّيت بخطب المواقيت ،وعددها أربع عشرة خطبة «وهي خطب قصد ابن نباتة إلى جعلها أنموذجا يُحتذى به عند مرور بعض المناسبات الدينية ،وقد خصّ ابن نباتة بعض المناسبات الدّينية بأكثر من خطبة ،في حين لم يتّخذ مناسبات أخرى سوى خطبة واحدة»[3] ،وهي كثيرة ،وقد استعمل الخطيب فيها إشاريّات زمانيّة تدل على ما يسمّى بالزّمان الكوني الذي يشمل الفصول والسنوات ،والأيام ،والأشهر ،وقد جعل الخطبة الأولى من هذا القسم عن استقبال السنة وفضل يوم عاشوراء :«**وقَد استقبلتُم رحمكم الله عامًا جَديدًا ،وافتَتحتُم شَهرًا مُحرَّمًا حَميداً أوّلُ شُهورِ السَّنةِ فِي التَّحرِيم ،وأَحقَّها بالتّفضِيلِ ،والتَّقديمِ خَصّه اللهُ في اليومِ العَاشِر**

[1]– ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري،استراتيجات الخطاب مقاربة تداولية ،83–84، وينظر: محمود أحمد نحلة ، أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر،ص 21،وينظر: محمود عكاشة،النظرية البرجمانية اللسانية(التداولية)"دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ،"ط1،مكتبة الآداب،القاهرة ،ص75

[2]– كاظم جاسم منصور العزاوي ، التعبير الإشاري في (الخَصيبيّ) مقاربة تداولية، ص 79

[3]– خالد بن محمد الجديع،خطب ابن نباتة الفارقي:الرؤية والفن ، ص 463

بثَوابٍ جَزِيلٍ وافرٍ، أَتَت بفَضلِه الأَنبيَاء ،وصَامهُ الصّالِحُون ،والعُلماءُ ،فمَن رَغِب في اغتِنامِه ،وقَدَّمَ النّيةَ في صِيامِه ،فليَصم التّاسعَ والعاشرَ ،ولا تُعرضُوا عن تعظيمِه استكبارًا فإنَّ صِيام عَاشوراءَ يَعدلُ صيامَ سنةٍ مقبولةٍ »[1] .

استعمل الخطيب في هذا النّص صيغا إشاريّة زمانيةّ هي **(عام ،وشهرا)** وردت في بداية النّص ،وكان يحكمها الإبهام ،ولكن دلالته ا اتّضحت من خلال السّياق الذي ورد فيه ،وهو حينما عمد إلى تعريف هذا الشّهر بقوله:**(أوّل شهور السّنة في التّحريم)** فاتّضَحَت بذلك دلالته ،وهو شهر محرّم من كلّ سنة هجرية ،وقد بيّن الخطيب فضل هذا الشّهر ،حاثّا المتلقّي على ضرورة استغلاله خاصّة وأنّه خُصَّ بمناسبة دينيّة هي "عاشوراء" التي عبّر عنها بصيغة إشاريّة زمانيّة **(اليوم العاشر)** الذي يُعدّ صيامه مُعادلا لصيام سنة كاملة

ويبدو أن الخطيب في ديوانه استعمل صيغا إشاريّة زمانيّة ارتبطت بمناسبات دينيّة ،تضمّنت مقاصد تداوليّة بيّنت فضائل شهور السّنة عند الله عزّوجل من أجل المسارعة ببذل المزيد من الطّاعات ،واجتناب المعاصي للحصول على الأجر والثّواب ،والفوز بالجنّة والنّجاة من النّار يقول : « **ألا وإنّ شهركُم هَذا شَهرٌ حَرامٌ فَضَّلتْه الجَاهِليّة ،وشَرّفَه الإسلاَم ،افتَتَحَ الله به ثلاثةَ أشهر كِرام فَضّلَها عَن شهور السّنينَ ،والأعوامِ، فرجبُ أوّلُ شُهور البَركَة المنقذةِ من كلّ فتنةٍ وهَلكَة ،وهو شَهرُ الله الأصبَّ تصبُّ فيه البركاتُ على البَرايَا وتُضاعفُ فيه الحَسناتُ لِمن أقلعَ عن الخَطايَا،فعظّمُوا–عباد الله– ما عظَّم اللهُ من حُرمَة هذا الشّهر ،واستحيُوا من اللهِ في السِرِّ ،والجَهر واستَغفرُوا فيه ربّكُم للسّلف ،وكُونُوا على حَذرٍ منه في المُؤتَنف فإنَّ المُذنبَ في هذه الشُّهورَ لا يُمَهلُ ،وعُقوبَتُه تتقدَّم وتُعجَّل** »[2].

الصّيغة الإشاريّة الزّمانيّة "شهر" الواردة في بداية النّص، لم يتحدّد مرجعها أي الشّهر المقصود من الأشهر الحرم ،ولكنّ الخطيب بيّن منزلته بين الشهور ،وفضله على سائر الدّهور ،وتدرّج الخطيب في الإفصاح عن هذا الشّهر؛ ليخبر بأنّه فاتحة ثلاثة أشهر ،كرّمها الله عزّوجلّ ،ومرجعها من خلال السّياق هي: محرم ،وذو القعدة ،وذو الحِجّة ،وجعل الخطيب شهر رجب أولها بركة نهانا الله فيه عن ارتكاب المعاصي مع أنّ ارتكاب المعصية

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 24

[2]– ديوان خطب ابن نباتة ،ص 66

مُحَرّم ،ومنهيّ عنه في هذه الأشهر ،وغيرها إلّا أنّ الخطيب أراد تبليغ مقصديّتة التّداوليّة التي أخذت بُعدا دينيًّا ،وهي أنّ في هذه الأشهر يكون التحريم أشدّ ،وهذه الشهور مقاديرٌ للعباد وجب تعميرها بطاعته وبشكره تعالى على منته بها ،وتقييضها لمصالح العباد.

فمن رحمته تعالى بعباده أن جعل لهم مواسم في هذه الحياة تُزاد فيها الأجور، ومحطّات إيمانيّة لرفع معدلّ الإيمان ،وتغيير ما بالأنفس ،وهو ما حرص الخطيب على التّذكير بهذه الفضائل في خطبه الدّينية يقول: «**هَذا –عبادَ الله– شعبانُ ضاربًا بُجْرانِه ،قادمًا بمعروفِ ربِّكُم وإحسانه، تتشعَّبُ من السّماء عليكم بركاتُه ،وتُزَكّي أعمالَكم أوقاتُه وسَاعاتُه ،أطنبَ رسولُ الله صلى الله عليم وسلم في وَصفِه ،ورغَّب في قيامِ ليلة نِصفه.**

فَتأهَّبُوا– رحمكم الله– لقصدها ،وشمّروا لاغتنام وِردها »[1].

أشّر الخطيبُ في هذا النّص بصيغة زمانيّة كونيّة ،هي شهر شعبان وبيّن أنّ لهذا الشّهر منزلةً عظيمةً ،وللعبادة فيه مكانةً كريمةً ،فهو شهر تُرفَع فيه الأعمال إلى ربِّ العالمين وتحسن فيه الطّاعات ،وتعظّم فيه الحسنات ،شهر شعبان هو تطهير للأنفس من جميع الذّنوب ،والمعاصي ،وقد خصّه الله تعالى بليلة مباركة هي ليلة النّصف من شعبان في قوله **(ليلة نصفه)** ،حيث أكّد بهذا المؤشّر الزّماني على فضلها مسايرا ما شاع عند العامة من أحاديث في فضلها ؛لذا ينبغي على المؤمن أن يُجدّ فيها كما كان يفعل نبيُّنا عليه أفضل الصلاة والتسليم فيها بأن يزداد تشميره وحرصُه على الطاعة في هذه اللّيلة بقيامها، والعبادة والذكر.

ويفرد الخطيب في ديوانه لشهر رمضان خُطبًا يعرض فيها لفضله ،ومنزلته بين الشهور يقول:«**أَيُّها النَّاس: اقتحِمُوا حَلبةَ السِّباقِ إلى الفوزِ الأَكبرِ،واغتَنمُوا صُحبَةَ الرّفاقِ في الشّهر الأزهر ،وتسبّبُوا لادّخارِ الزّادِ في العمر الأقصر.**

فقد عَمّتكُم – رَحِمكُم الله– في شَهر رمضانَ النِّعمة السَّابغة ،ولزِمتكُم من الله الحجَّةُ البالغة ،ألا وإنّه شهرٌ جعلهُ الله مصباح العام ،وواسطةَ النِّظام،وأشرف قواعدِ الإسلام المشرقَةِ بنُور الصّيام والقيام »[2] .

---

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 80

[2]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 88

يدعو الخطيب في بداية نصّه بأفعال توجيهيّة مخاطبه الذي وضّحهُ ضمير المخاطَب للجماعة الواو المتصل مع الأفعال(**اقتحموا ،اغتنموا ،تسببوا**) الذي يعود مرجعه على الناس والمقصود بهم جماعة المسلمين إلى أن يُجهِد نفسه ليفوزَ بقصب السّبق لاغتنام الخيرات التي ارتبطت بصيغة زمنية (**الشّهر**) ،الذي اتضّح مرجعه المقصود عندما أورده الخطيب بشكل صريح في قوله (**في شهر رمضان**) ،فشهر رمضان كما بيّنه الخطيب في نصّه هو موسم عظيم خصّه الله بالفضل ،والكرامة وميّز أوقاته عن سائر الأوقات ،فِيه تُعظَّمُ شَعَائِرُ الإسلام بالصّيام والقيام ،وفي أثناء الحديث عن هذا الشّهر الفضيل يذكُر ليلة القدر فيُشير إلى عَظَمتِها مرغِّبا في تحرِّيها ،واغتنامها يقول: «**فيَا أيُّها العَاملُ هَذا أَوانُ ازدِيادِك واستمتاعِك ،ويا أيّها الغَافلُ هذا شَهر تَيقُّظِك ،وإقلاعِكَ ،شهرٌ فيه ليلةُ القدرِ التي هِي خيرٌ من أَلف شَهر، مَا سَألَ اللهَ فيها سَائلٌ إلَّا أَعطَاه ،ولا أَنابَ إليه مُنِيب إلا قَبلَه واجتَباهُ ولا تَعرَّضَ لمعروفِه طَالب إلّا جادَ عَليه،وحَباهُ ،ولا لَجأَ إليه لاجيء إلّا أجاره وأصلحَ بالَه** »[1]

إنّ لفظةَ " ليلة" في النّص مؤشّر زماني مبهم غير معروف تاريخُها ؛إلا أنّ السّياق وضّح ميعاد هذه اللّيلة ،وهو مادلّ عليها لفظة " القدر" ،فليلة القدر كما ذكرها الخطيب تكون في العشر الأواخر من شهر رمضان وهذا ما أوضحته الأحاديث الدّينية منها ما ورد في عن عائشةَ رضِيَ اللهُ عنها قالتْ: كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ يُجاوِر في العَشْر الأواخِر من رمضانَ، ويقول: تَحرُّوا ليلةَ القَدْر في العَشْر الأواخِر من رمضانَ »[2]

وقد بلَّغ الخطيب من خلال هذا النّص مقصديّته من إدراج ،وتذكير النّاس بها في أنّ العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ممّا سواها،وهذا فضل عظيم ورحمة من الله لعباده فجدير بهم أن يعظّموها ،وأن يحيوها بالعبادة ،وهي من أفضل النّعم التي وهبها الله لعباده وفضلُها لا يُوازيه فضل ،ومنّة لا يُقابلها شكر،قدرها جليل وليس لها مثيل ويضاعف الله فيها العمل القليل من أقامها إيمانا ،واحتسابا غفر له ما تقدّم من ذنبه ،وفيها تُقضى حوائجُه.

كما أفرد ابن نباتة في ديوانه خطبا تشمل الحديث عن يوم عيد الفطر ،وفضله يقول: « **يَا عبادَ اللهِ إنَّ يَومكُم هَذا يَوم عَظيمٌ ،وعيدٌ كريم فَرضَه ربٌّ رحيم ،خَتمَ به شهرَ الصّيامِ**

[1] – ديوان خطب ابن نباتة ،88

[2] – محمد بن إسماعيل البخاري أبو عبد الله، صحيح البخاري،ط1، دار ابن كثير – دمشق بيروت،2002م،ص 485

وافتَتح به شُهور حَجّ بَيتِه الحَرامِ ،أُحلّ لكُم فيه الطَّعامُ ،وحُرّم عَليكُم فيه الصِّيامُ ،يومُ تَسبيحٍ وتَهلِيلٍ وتَكبيرٍ ،وتَعظِيم وتَقدِيس ،وتَمجيد وتحميد »[1].

نلاحظ أنّ لفظة **(يوم)** في هذا النّص لا يمكن تحديد زمان المناسبة فيها على وجه الدّقة إذا لم يتمّ معرفة لحظة التلفظ بالخطابة ،وسياق النّص هو الذي حدّد مرجعيّتها الزّمانيّة وهو يوم عيد الفطر الذي يُصادِف الفاتح من شوال في كل سنة ،وما دلّ عليه الأوصاف التي نسبها الخطيب إليه ،في أنّه ختام لشهر رمضان ،أحلّ فيه الطّعام ،وحرّم فيه الصّيام وهو يوم مبارك عند الله عزّ وجلّ ،والشّيء نفسه للفظة "يوم" التي ارتبطت دلالتها الزّمنيّة بعيد الأضحى المبارك ،والذي دلّ عليها سياق النّص في قوله: «**هَذَا يَوم محضرهُ زَكاة ولِصالِح عَملِكُم مَنمَاةٌ ،ولِسوَالِف ذنوبكم مَمحاةٌ ،ومِن مُؤتَنَفِ آثامكُم منجاة ،فاتَّبعُوا فِيه السُّنَّةَ واستوجِبُوا فيه المِنّة ،بإراقَة دمٍ سائلٍ ،وإتمام نُسُكٍ كامل ،فإذا انصرَفتُم إن شَاء اللهُ إلى مَنازِلِكُم ،فمَن كَانَت له أُضحيَة فَليبْدأ بها ،وليَستَقبِل بها القِبلة ،وليُكبّر الله ،وليذكر اسمه وليَنحَرها نَحرًا ،ولا ينخعُها نَخعًا** » [2].

فالمُؤشِّر الزّماني "يوم" في هذا النّص مُبهَم لم تتّضح مرجعيّتُه في البداية ،ولكن سياق النّص حمل في طيّاته توصيفات ؛جعلت منه يوما مباركا لدى المتلقّي خاصّة ،وأنّ المتكلّم " الخطيب" بلغّ الخير الذي يحمله هذا اليوم في أنه زكاة للنّفس ،ومَاحٍ للذّنب يربُو فيه العمل الصّالح ،وتنجى منه الآثام والخطايا،وبعدها راح الخطيب يُعدِّدُ شعائر هذا اليوم ،وجعل أعظم شعيرة نتعبّد الله بها في هذا اليوم العظيم ،هي التّقرّب بأضحِية من طيّب الكسبِ وحلال المال ،وهذه الشّعائر حدّدت مرجعيّة هذا اليوم ،وهو يوم عيد الأضحى المبارك الذي يوافق العاشر من ذي الحجّة من كلّ سنة هجريّة.

كما تضمّنت خطب الديوان بعض الإشاريّات الزّمانيّة التي خالفت معناها المعجمي ووُظِّفت توظيفًا تداوليًّا منها قوله: « **فيَا أيُّهَا الغَفلَة المُقصِّرونَ ،بمَاذَا إلى المَلِك الدَّيَّان غَدًا تَعتذِرون ، أم مَاذا تَقولُون، إذ قال:** ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾(الصافات: **24**) »[3]

---

[1]– ديوان خطب ابن نباتة،ص 320

[2]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 329–330

[3]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص222

تجاوز الملفوظ الإشاري الزّماني **(غدا)** دلالته الزّمنيّة الكونيّة ،ليشمل وعْدَ الله ووعيدَه بيوم الحساب ،وما أعدّه لمن أطاعه ،ولمن عصاه ذلك اليوم الذي يعجز المسلم الغافل فيه عن جواب الله عزوجل ؛حينما يسأله عمّا اجترحه في حياته الدنيا ،وهذه الدّلالة الإضافيّة موكولة إلى سياق التّلفّظ الذي ساعد على تحديد مرجعها إلى جانب المعرفة المشتركة بين طرفي الخطاب ،فالمُتكلِّم يتلفَّظ بالعنصر الإشاري الزّماني **(غدا)** ،وهو يعلم بأنّ المتلقّي يستطيع تأويله تأويلا مناسبا .

واستخدم الخطيب الإشاريات الزّمانيّة استخداما مزدوج الوظيفة بحيث تحيل إلى مرجعها الزّماني ،وأشياء أخرى حسب حاجة الخطيب ومنها قوله: «**واعلَمُوا –عبادَ الله– أنَّ مَمرَّ اللّيالي ،والأيّام ،ومَكرَّ الشُّهور ،والأعوامِ يُنذران بانقضابِ الأعمارِ ،ويُؤذِنَان بخراب الدّيار ويُقرِّبان البعيد ،ويُبلِيَان الجديد ،ويَهدِمانِ المشيد ويُوهِنان الجليد** »[1].

تضمّن هذا الخطاب ملفوظات إشّارية زمانيّة هي:(**اللّيالي،الأيّام،الشّهور،الأعوام**) ،وهي لم تقتصر على إحالتها الزّمنيّة فقط ؛بل تعدّت لدلالات أخرى تُفهم من السّياق ،وهي أنّ مُرور هذه الملفوظات الزّمانيّة يتبعُها مرور الأعمار ،وهي تترك آثارا على الناس والديار فالجديد فيها يُبلى ،والمشيد يهدم ،والقوي يضعف ،والمعمور يخرّب ،والموت يقرب ، وعلى هذا فالواجب الاعتبار من حوادثها للنّهوض من الغفلة المعاشة ،وأن لا يكون المتلقّي صُمًّا بُكمًا تمرّ عليهِ الحوادث ،وتنصرم أمامه الأعوام ،والأيّام من غير أن يُدرك لها معنى أو يتّعظ بها وأن يُعِدَّ العِدَّة ليوم القيامة باستغلال الوقت بعمل الخيرات ،واستثمارها لهذا اليوم ؛لأنّ الإنسان لا يدري متى يأتيه الموت والموت حقّ لا مفرّ منه ،وكذلك الحساب يقول: «**أيُّهَا النَّاسُ: مَا الاعتذَار بَعد الإنذَارِ،ومَا الوَسيلَة يومَ العَرضِ عَلى النَّارِ ،ومَا الحُجّةُ عند مسألة الجبّار**»[2] ،ويقول في موضع آخر:« ...**وحُصِّلَت أعمالكم غيبا كأشهادٍ عُصبَا كآحادٍ هُمُودا في ظُلم الإلحَاد إلى يوم التّنَاد ،يومِ المِعادِ ،والجمعِ ،يومِ حصادِ الزّرع يوم السّؤال العَتِيد، يوم الخجل من التّعديد ،يوم يقولُ الله لجهنّم هل امتلأتِ ،وتقُول هل من مزِيد** »[3]

نجد أنّ الملفوظ الإشاري الزّماني(**يوم**) في كلا النّصين يحمل معنى البعدية ؛لأنَّ

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص24

[2]– ديوان خطب ابن نباتة ،ص 362

[3]– ديوان خطب ابن نباتة ،ص 179–180

المقصود به يوم يرث الله تعالى الأرض وما عليها؛ أي يوم تقوم السّاعة التي لا ريب فيها والتي لا يعلم وقت قيامها سوى الله عزوجل ،ولهذا صُنّف الزّمان **(يوم)** حسب أركيوني من الظّروف الحياديّة التي يصعب تحديد زمنها، والخطيب من خلال هذا المؤشّر الزّماني عبّر عن مقصديّته التي أراد تبليغها لمخاطِبِه ،وهي أهميّة الزّمن في حياة المسلم ؛لأنّه محاسب على ما اقترف فيه ،ومطالب باستغلاله ،والتزوّد فيه لمآله بالجدّ والاجتهاد ،وبذل المزيد من الاستعداد ليوم الحساب .

تعتمد الإشاريّات الزّمانية أيضا على سياق الموقف حيث لا يمكن فكّ إبهامها وإحالتها على مراجعها الحقيقية ،إلا إذا علمنا زمن التّلفظ بها من ذلك قوله: «**أيّها النّاس: إنّه ليس أحد أكرمَ على الله من نبيّه ،ولا أشرَف عنده من محمّدَ نجيّه وصفيّه ،وإنّه لم يؤخّر عند انقضاء مُدّتِه ،ولم يعمّر عند حضور منيّته ،ولقد أتاه في مثل شهركم هذا من رُسُل ربّه الكرام الموكلون بنفوس الأنام،فجدّوا بروحِه الزّكيّة لينقلُوها** »[1].

يستحضر الخطيب في هذا المقطع لحظة وفاة سيّد الأنام محمّد عليه أفضل الصلاة والتسليم ،وذلك بُغية الاتّعاظ ،والاعتبار ،والاقتناع بحتميّة الموت وانقضاء الأجل حينما تُدقّ ساعة الرّحيل، ولإحالة العنصر الزمني **(شهركم)** في هذه الخطبة إلى مرجعه الحقيقي ،لابدّ من معرفة «زمن التّكلم أو ما يُسمّى بالمركز الإشاري »[2] ،ومن خلال سياق الخطبة الذي حدّد دلالة التّلفّظ الإشاري الزمني ،وهو الشّهر الذي توفي فيه نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وسلم ،والموافق لشهر ربيع الثاني .

ويقول الخطيب في موضع آخر من ديوانه: «**أيُّها النَّاسُ: وَجبَ شُكرُ مَن لَم يزَل شُكر نِعمِه وَاجبًا،وغَلبَ حِزبَ مَن كان حِزبُه أبَدا غَالبًا ،فليَكُن كُلّ امريء مِنكُم لِربِّه حَامدًا ولِيَبعَث إليه مِن إخلَاصِه وَافدًا عَلَى مَا أَنعَم بِه عَليكُم مِن بَركَة هَذا الشَّهرِ مِن جَميلِ الصَّبرِ ،ومَنحِهم من جَليلِ الفَتحِ والنَّصر،وأَدالَ لَهم مِن الكَفرة أَهلَ العِنادِ والغَدرِ،بَعد تَفاقُم الأمر ،وتَطاوُل الكَرّ والفَرِّ**»[3] .

سياق الخطبة هنا يُفهِمُ الغرض الحقيقي من إنجازها ،وهو أنّ الخطيب يرى أن نصر الله

---

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 271

[2]– كاظم جاسم منصور العزاوي ، التعبير الإشاري في (الخَصيبيّ) مقاربة تداولية ، ص 70

[3]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 271

تعالى نعمة ورحمة لأوليائه من المسلمين ومنّة منه ،وفضل لا حول ولا قوة لهم به ،ووجب عليهم شكر هذه النّعمة ،والمحافظة عليها ،وقد جاء ذلك مقرون بمؤشّر زمني **(الشّهر)** ولكي يتبيّن دلالة هذا المؤشّر الزمني فيها ،لابد من «معرفة وقت الكلام ذي العلاقة »[1] ؛أي مجريات الأحداث المحيطة بهذه الخطبة ،حتّى تتحدّد مرجعيّته ، وهي حسب ما ورد « وقعة نجا فتى سيف الدّولة رحمه الله بالرّوم على باب حصن زياد ،وظفره بهم بعد خمسين حملة كانت بينهم في يوم السّبت لسِتّ بقين من شعبان سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة»[2]،وعليه يتوجب تحديد المرجعية الدّقيقة للإشاريّات الزّمانية حتى لا يلفّ الملفوظ اللّبس،ويحيط به الإبهام،وذلك ما يعطي للإشاريّات الزّمانية الدّور الفعّال في عمليّات التّخاطب.

2-2: الإشاريّات المكانيّة:

هي عناصر إشاريّة يعتمد تفسيرها على السّياق المباشر المادّي الذي قِيلت فيه ومعرفة مكان المتكلّم وقت التكلّم ،وبذلك « يتأسّس المكان في تلك النّقطة من الفضاء التي يتواجد فيها – المتكلّم – أثناء الحديث (لحظة التّلفظ) » [3]، أو يكون المكان المُشار إليه معروفا للسّامع والمخاطب ،فلا يمكن تحديدها إلّا على وفق ما تشير إليه ، بالقياس مركز الإشارة– مكان المتكلّم – حيث لا يمكن للمتكلّم أن « ينفكّ عن المكان عند تلفظّه بالخطاب،وهذا يعطي الاشاريّات المكانيّة مشروعيّتها ،وإسهامها في الخطاب» [4].

ولتحديد المكان أثره في اختيار العناصر التي تشير إليه قرباً أو بعداً أو جهة فكلمات الإشارة : هذا ذاك ،هناك ،هنالك ،وسائر ظروف المكان نحو :فوق ، تحت ، أمام ، خلف ...كلّها عناصر يُشار بها إلى مكان لا يتحدّد إلّا بتحديد موقع المتكلّم أو جهته[5] ، وعلى وفق ذلك تختصّ الإشاريّات المكانيّة « بتحديد المواقع بالانتساب إلى نقاط مرجعيّة في الحدث ،وتُقاس أهميّة التّحديد المكانيّ بشكل عام انطلاقا من الحقيقة القائلة أنّ هناك طريقتان رئيسيتان للإشارة إلى المكان إما بالتّسمية أو الوصف من جهة أولى، وإمّا بتحديد

---

[1]– كاظم جاسم منصور العزاوي ، التعبير الإشاري في (الخَصيبيّ) مقاربة تداولية ، ص 70

[2]– طاهر بن صالح الجزائري ،شرح خطب ابن نباتة ، ص 199

[3] – ذهبية حمو الحاج ، لسانيات التلفظ و تداولية الخطاب ، ص 124

[4]– عبد الهادي بن ظافر الشهري،استراتيجات الخطاب مقاربة تداولية ، ص84

[5]– ينظر: محمود أحمد نحلة ، أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ،ص 21

أماكنها من جهة أخرى »[1] ، ومعرفة موقع المتكلم في الخطاب بالضبط، تستلزم معرفة مكان المتكلّم واتجاهه[2] لأنّ من ظروف المكان ما يستلزم فهم معناها معرفة اتّجاه المتكلّم فضلا عن مكانه، مثل: يمين، شمال، أمام، خلف، وغيرها.

ومعرفة مكان التّلفظ يسهم إسهاما كبيرا في فهم الخطاب ،وتأويله التّأويل الصّحيح وبلوغ المعنى بفهم قصد المتكلم على اعتبار أنّه «ليس الكلام متعاملا فحسب مع عنصر الكلام إنّما هو حبيس في سياجه»[3] ،فمعرفة المرجع المكاني للخطاب يسهم في تحديد مراد المُتكلّم ومقصده لذا أجاد ابن نباتة توظيف الإشاريّات المكانيّة في خطبه توظيفا بارعا، حينما ربطها بتحقيق مقصديّته التي أخذت بُعدا دينيّا يقوم على الوعظ والاعتبار ،وقد شكّل موضوعا أساسيّا كان الخطيب ينطلق منه في إقناع الناس ،وحثّهم إلى الالتزام بأوامر الله تعالى ،وفعل الخيرات ،والعمل للآخرة قبل فوات الأوان يقول :« **وأُحذِّركُم دَارًا دَوائرُها دَائرَة ،وتِجارتُها بائرةٌ وآفاتُها رَاشقَة وَآيَاتُها نَاطقَةٌ ،الُمتعَزّزُ بِها ذَليلٌ ،والمُتَكثّر بِها قَليل مَن وَثِقَ بِهَا خَذِلَته ومَن اعتَصمَ بِها أَسلَمتهُ ،ومَن طَلَبها فَاتَته ،ومَن تَجَنَّبهَا أَتتْه، فمَا الاغترَار –رَحمَكم الله– بدارٍ هَذه صِفاتُها عَيانًا لا إِخبَارًا** »[4] .

يصف الخطيب في هذا النّص الدّنيا ،ويحذّر منها ،وعبّر عن ذلك باستخدام المؤشّر المكاني **(دارا)** فما تشبيهه الدنيا بالدار؛ إلا لتقريب الصّورة إلى ذهن المتلقي،ومن ثم الإذعان والاقتناع بالحثّ على الزّهد فيها ،والدّعوة إلى العمل للآخرة فهو يخبره بأنّ الدّنيا دارٌ أوّلها عناء ،وآخرها فناء ،والمتمسّك بها كالمتمسّك بالسّراب ،ومن جعل الدنيا أكبر همّه ،ومبلَغ علمه ذُلَّ ،وخذُل ؛لأنّها تنأى عن طالبها وتُقبل عن متجنّبها ،وأحداثُها شاهد عيان عن كلّ ذلك ،فهي متاع الغرور فحياتها عناء ،ونعيمها ابتلاء ،ومُلكها فناء .

وفي السّياق نفسه يقول: « **واحذرُوا الدُّنيَا فإنَّها دارُ ظمنٍ لا شكَّ فيها ،وقَرارُ حزن لمُصطَفيهَا ،ومَدارُ مِحن جَامعَة على مُقتفِيها ،ومَحارُ فِتنٍ وَاقعَة بمعتفيها ،ومَتجَر أَرباحٍ**

[1] – عبد الهادي بن ظافر الشهري،استراتيجات الخطاب مقاربة تداولية ، ص84

[2] – ينظر: مرجع نفسه، ص 85

[3] – عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية،ط2،الدار العربية للكتاب، 1986م،ص 248

[4] – ديوان خطب ابن نباتة ، ص 58

لعَارِفِيها ،ومَصدَر فلاح لِعائِفِيهَا »[1] .

شبّه الخطيب الدّنيا ببعض المؤشّرات المكانيّة ،وقد اقترَنَت كلّ مرّة بدِلالة ،فتارة بالدّار التي لا تضمن ،ومرّة بالقرار ،وهو المكان العميق الذي تجتمع فيه الأحزان عند كلّ من اختارها ومدارا للمحن والمصاعب لكلّ من تتبّع أثرها ،ومحار ا لاجتماع الفتن ،وتارة أخرى بالمتجر المربح حينما يستغلّها المؤمن بالعمل الصّالح كطريق للآخرة ،ومصدرا للنّجاح لكلّ من عفّ عن ملذاتها ،ولكي يؤكّد الخطيب كلامه كان يدعو في خطبه إلى الاعتبار بالسّابقين من خلال النّظر في أحوال النّاس ،والأمم الماضية ،والوقوف على آثارهم ،وديارهم ليتبيّن فعل الموت بهم ، حتى يصل الإنسان إلى غايته التي وُجد لأجلها ،فيعمل على الخلاص بنفسه قبل فوات الأوان يقول ابن نباتة: « **أَينَ أهلُ المَعاقِلِ المَنِيعةُ ،والمَنازِلِ الرَّفيعَة ،والأبنِيَة العَجيبَة أَينَ مَن أَطالَ الأَمل ،واستعذب المهل ،وأرجَأَ العَملَ ،واستَكثَرَ العبيدَ والخَولَ** »[2].

استخدم الخطيب بعض المؤشرات المكانية القائمة على التسمية والوصف(**المعاقل المنيعة المنازل الرفيعة،الأبنية العجيبة،الأقنية الرحيبة**) ،من أجل تبليغ مقصديته في تذكير المسلم ودعوته أن يتفكّر في أحوال الأمم السّابقة ،والقرون الماضية، وقد بنُوا المدائن ،وجمعوا الخزائن ،وحفروا الأنهار،وشيّدوا القصور،وعمّروا الدّيار، ولرّبما ظنّوا أنّهم في هذه الدّنيا مُخلّدون، وما هم عنها براحلين ،فبينما هم يعيشون مرفهين في هذا الحلم،إذ هجم عليهم هادم اللّذات ،ومفرّق الجماعات (الموت)، فأصبحوا عظاماً رميماً، ورُفاتاً هشيماً، وإذ بمنازلهم خاوية، وقصورهم خالية، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، وقد خلّفوا كل شيء وراءهم،لم يأخذوا معهم مالاً ،ولا جاهاً ،ولا منصباً، لم يأخذوا معهم شيئا ،وفي ذلك يقول: « **فكَم قَد رأيتُم دِيارًا ارتَحَل عَنهَا بالمَوت عُمّارُها ،واستَولَى على إقْبالِها ،وإدبَارهَا، فَأصبَحت بالنُّحُوسِ أَقطَارُها معلمة بالعُبوسِ آثَارِهَا مُبهَمة عَلى الوَاقف بها أَخبَارهَا** »[3] .

كانت المؤشّرات المكانيّة القائمة على التّسمية ،والوصف أيضا في هذا المقطع (**ديارا،أقطارها، آثارها**) بمثابة حُجّة على أنّ الموت أعظم واعظ وأبلغُ زاجر، فباستفهام

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص187

[2]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 182

[3]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 179

إنكاري تعجبّي يدعو الخطيب المتلقّي إلى إمعان النّظر ،والفكر في الذين سبقوه رحلوا وتركوا ديارهم قفارا كالأطلال موحشة لا أنيس ،ولا رفيق فيها، وعليه على العبد أن يتيقّن بأنّ الموت هو تلك الحقيقة التي يجب أن يُوقِن بها ،ويعرف أنَّه منتهٍ إليها لا محالة، طال عمره أم قصر فلا بدّ من ساعة الرحيل، وسكنى ذلك القبر الموحش الذي عبّر عنه الخطيب واعظا:« **وغَدا يُفضى بكم إلى ظُلَم حُفرِكُم، ويُوضَح لكم مُبهَم خَبركُم ،فحَللتُم مَنزِلا تُوجس الوحشةُ عَرصَاته ،وتكرّ عليكم بالآفاتِ جِهاتُه ،وتبُهِر سَاكنُه آياتُه، ويَطولُ فِيه إلى المِعَاد سُباته، وأَعظِمْ به منزلا أوّلُ وُروده نَدامة ،وآخرُ حُدودِه القِيامَة** »[1].

في هذا المقطع يدعو الخطيب متلقّيه إلى وقفة روحانية ،وقفة، يجدّد فيها الإيمان في القلوب ،وتزيل عنها غبار الغفلة والذنوب ،وقد عبّر الخطيب عن ذلك باستخدام المؤشّر المكاني(**حفركم، منزلا**) عن المآل الذي يسير إليه كلّ إنسان ،ألا وهو القبر دار الإنسان التي كان قبل الموت يبنيها ،وأوّل منازل الآخرة ،وقد قدّم الخطيب صورة هذا المؤشّر المكاني(**القبر**) ،وعظّم من شأنه ،فهو مسكن الإنسان الوحيد بعد رحيله عن الدنيا ،حيث أنّه مظلم الأرجاء في بطن الأرض ،بلا أبواب يمتلئ بالوحشة ،لا أنيس ،ولا صاحب فيه وتجول في جهاته الآفات ،ويطول نوم النازل فيه إلى يوم القيامة ؛لذلك حرص الخطيب على توجيه النّاس بنصحه لهم بالجدّ والاجتهاد في الطّاعة ،وعمل الخيرات ،والابتعاد عن المعاصي ،ويحذّرهم أن يسلكوا سُبل المهالك التي تؤدّي بصاحبها إلى النّار، يقول الخطيب محذّرا: « **فاللهَ اللهَ –عباد الله– أَن تسلُكوا سُبل المهالِك ،فإنَّها تُسرِع بسَالكِها إلى مَالكٍ خَازن النّار ،وصَاحِب دَارِ البَوَارِ،وسِجن المُنافِقينَ،والفُجّار،ومَحَلِّ سَخط الجبّار** »[2] .

لقد أسهمت المؤشّرات المكانيّة في هذا المقطع بتبليغ مقصديّة الخطيب في التّرهيب من النّار عن طريق وصفها ،وبيان حال المسلم فيها ،وذلك بُغيَة ابتعاد المتلقّي (المسلم) عن ما يؤدّي به إلى هذه التّهلكة ،والمتمثّلة في المعاصي على اختلاف أنواعها ؛لأنها تقود إلى النّار، الخزي العظيم،والخسران المبين،والجزاء الأليم، وقد عبّر عنها بالمؤشّر المكاني (**دار البوار**) ،وأهلها المنافقين الفُجّار الذين ،وحتّى لو طلبوا الخروج منها ،فذلك يستحيل يبقون

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 216

[2]– ديوان خطب ابن نباتة ،ص 68

حبسين فيها ،وذلك ما دلّ عليه المؤشّر المكاني **(سجن)** فالجزاء فيها من جنس العمل واقترن المؤشّر المكاني **(محل)** بغضب الله ،وسخطه عن هذه الفئة ،وذلك حتّى يُجِدّ النّاس في الخلاص ،وليزدادوا طاعة لربّهم في كل الأحوال ،وما غرضه من كلّ هذا التّرهيب إلّا ليكون دافعا للنّاس إلى اختيار الخاتمة السعيدة ،والسعي إلى الوصول إليها ،ونيل الجنّات والنهر ،واجتناب الخاتمة السّيئة ،والابتعاد عن كلّ ما يقرّب منها ،ويواصل الخطيب حاثّا المسلم على الإسراع في التّوبة ،والرّجوع إلى الله تعالى محذّرا إيّاه من نار جهنّم قائلا: « **بَادرُوا بالتَّوبَة قَبل استِحقاقِ دَار الخَيبَة، يَا لَها دارًا معدُومًا رخَاؤُها مَحتُومًا بَلاؤُها مُظلمةٌ مَسالِكُها،مُبهمَة مَهالِكُها ،مُخلّدًا أَسيرُها ،مُؤبّدا سَعيرُها ،مُتنَاهيًا تَغييرُها عاليًا زفيرُها** »[1]، ويواصل في وصف النّار محذّرا : « **وأُحذِّركُم دَار فُرقةٍ ما لها ائتلافٌ ،وقرَار حُرقة مَالهَا انصرَاف ،وأَمَانيَ رَجعَة مَا لَها إسعَاف ،وأَحاظِيَ فَجعَة أوجَبَها الإسرَاف ومَقامَات هَوانٍ يُذلّ بها الأشرافُ ،وظُلُمات أحزانٍ تَتبَاين لَهَا الألاف** »[2]

المؤشّر المكاني **(دار)** في المقطعين يعبّر عن النّار التي أعدّها الله للعاصين المبتعدين عن تعاليم الدّين الإسلامي ،وقدّم هذا المُؤشّر الكلامي صفات النّار في أنّها شرّ دار وعذابُها شرّ عذاب ،أرجاؤُها ضيّقة ،ومسالِكُها مظلمة ،ومهالكها مُبهمَة ،يُوقد فيها السّعير ويعلو فيها الشّهيق ،والزّفير، أبوابُها مؤصدة، وعمدها ممدّدة، أهلها خَالِدُونَ فِيهَا لا يَرحَلُونَ عَنهَا وَلا يَبِيدُونُ ،وما غاية الخطيب من هذا الوصف المخيف ،إلّا إ معاً للنّفوس عن غيِّها وفسادها،بقطع اتباع شهواتها وباعثاً لها إلى فلاحها ورشادها بتَحقِيقِ التَّوحِيدِ وَإِخلاصِ العَمَلِ للهِ، وَالإِيمَانِ بِهِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالإِحسَانِ إِلى الخَلقِ، وَذِكرِ اللهِ وَدُعَائِهِ بِالنَّجَاةِ، فالإِيمَانُ مِن أَعظَمِ مَا يَتَوَسَّلُ بِهِ عِبَادُ اللهِ إِلى رَبِّهِم لِيُخَلِّصَهُم مِنَ النَّارِ ،وقد ربطه الخطيب بالقيامة وفي كل ذلك يبرز تأثرّه بالتّراث الإسلامي ،والإيمان بالغيبيّات .

كما يصف الخطيب أهل الجنّة ،ونعيمها مرغّبا فيها بقوله:« **فوُجوهُهم من النّعيم نَضِرة ورائحتُهم من طِيب النَّسيمِ عَطرةٌ ،وقُلُوبهُم بجِوارِ الغَفورِ الرَّحيمِ مُستبشرةٌ ،وقد ذَهَب عَنهُم الحُزن ،وبَايَنتهُم المِحنُ وطَابَ لهُم المَقيلُ، والوَطَنُ في دَارٍ قَد اتَّسَعت أَقطَارهَا ،وأَينَعَت**

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ،ص40

[2]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص51

ثِمارُها واطّردَت أنهَارُها وتَمَيّدت أشجَارها ،وغَرّدَت أَطيارُها ،ونهدت أبكارُها ،وعَلِيَت مَجَالسُها وحَلِيَت عرائسُها واختالَت وصائفُها ،وتوالت لطائفُها ،وأَشرَقت قُبابها ،وأُدهقَت أكوابُها وحسُنت بدائعُها ،وأَمِنت فَجائِعُها ،قد كَاشفَهم الجواد بمَحض الوِداد ،وأوجَب لَهم المزيدُ عَلى المُرادِ »[1] .

بيّن المؤشّر المكاني **(دار)** في المقطع النّعيم الخالد الذي لا يفنى،إنّها الجنّة التي أعدّها الله للمتّقين ،فهي أهنأُ ما تسكنُ إليه نُفُوسُهم حيث غرس الله –تعالى– غرسها بيده ،فأحسن الغرس ،وجعلها مُستقرّاً لأوليائه فضلاً ورحمةً منه، وملأها بالخير والرّحمات والحبّ والسّعادة وفيها ما لا عين رأت ،ولا أذن سمعت ،والمقصد التّداولي الذي يرجوه الخطيب من هذا الوصف هو ترغيب النّاس بالطّاعات ،والعبادات فذِكْر الجنّة ووصفها وصفاً دقيقاً؛ ما غاية الخطيب منه إلا ليتشجّع النّاس فيُقبلوا على أوامر الله – تعالى– وينتظرونها بلهفةٍ ورغبةٍ ويلتزمون بما يوصلهم إليها باجتنابهم عمّا يُبعدهم عنها، فينقلبون بذلك المنقلب الحَسن.

وعليه يتبيّن أنّ الإشاريّات المكانيّة قد لعبت دورا مهمّا في تجلية قصد الخطيب ابن نباتة وفي تأثير الخطاب على المتلقّي من جهة أخرى.

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 43

الفصل الثّاني:

الافتراض المسبق و الاستلزام الحواري

في ديوان خطب ابن نباتة

أوّلا : تجليّات الافتراض المسبق في خطب الديّوان

1-1: مفهوم الافتراض المُسبق

2-1: أنواع الافتراض المسبق

3-1: الافتراضات المسبقة في خطب الديوان

ثانيا : الاستلزام التّخاطبي في خطب الديوان

1-2: مفهوم الاستلزام التخاطبي

2-2:انتهاك قواعد التعاون في خطب ابن نباتة "

أوّلا: تجليّات الافتراض المسبق في خُطب الدّيوان:

1-1: مفهوم الافتراض المُسبق :

تُعدّ الافتراضات المُسبقة من المفاهيم التّداولية المتعلّقة بجوانب ضمنيّة وخفيّة من قوانين الخطاب، الذي يتمّ بين المرسل والمرسل إليه في العمليّة التّواصلية ،وقد اعتنى الباحثون منذ أوائل العقد السّابع من القرن العشرين بالافتراض المسبق ؛إذ شغل جانبا مهمّا من عناية علماء الدّلالة في العقد الثّامن منه، حين أصبحت الوجهة التّداولية هي السائدة بل بديلاً لا غنى عنه للوجهة الدلالية في دراسة المعنى [1] ،وهذه الإضمارات التّداولية على حدّ تعبير طه عبد الرحمن من أهمّ نظريات الجهاز المفاهيمي للتداوليه ؛لأنّها تمثّل «الخلفيّة المعرفيّة المشتركة لانطلاق المتخاطبين ،ولتحقيق النّجاح في العمليّة التّواصليّة ، فيُشكّل المعطيات القاعديّة المعترف بها للوصول لمحتوى السّياق ،والتّركيب العام»[2] .

فهو عبارة عن : المعنى الضّمني الّذي يفهم من السّياق الكلامي ،ويقوم على المسلَّمات الذّهنيّة ،والواقعيّة لأطراف الحوار المشتركين في العمليّة التّخاطبيّة[3] ،لهذا«تُعتبر الافتراضات بمثابة المعلومات المدسوسة خُفية ،أي إنّها تكون مزوّدة بملائمة تواصليّة أقلّ شأنا من تلك التي تتمتّع بها المعلومات البيّنة ،كما أنّها تحتلّ مركزا أدنى مرتبة داخل البنية الرّقاقية التي يتألّف منها محتوى الأقوال الإجمالي» [4] ،وتحكمها ظروف ،وملابسات الخطاب العامّة «ليشمل المعلومات العامّة ،وسياق الحال ،والعرف الاجتماعي ،والعهد بين المتخاطبين ،وما يفترضه الخطاب من مسلّمات يأتي المعنى من منطلق وجودها حقيقة أو اعتباراً ،وينقص الكلام عند غيابها»[5] .

والافتراض المسبق ذو طبيعة لسانيّة ،بمعنى أنّه يُمكِن إدراكه عن طريق العلامات اللّغوية التي يتضمّنها القول ،وهي معلومات لم يفصح عنها المتكلّم ؛بل أوردها بطريقة آليّة في

---

[1] – ينظر : محمود أحمد نحلة ، أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ص27

[2]– طه عبد الرحمن ، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي ، ص 113

[3]– محمود عكاشة،النظرية البرجمانية اللسانية(التداولية) ،ص85

[4] – كاترين كيريرات أركيوني،المضمر، ترجمة: ريتا خاطر، ط1،مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، ديسمبر 2008م ص 44-45

[5]– محمود عكاشة ،النظرية البرجماتية اللسانية، ص 86

القول الذي يتضمّنها أصلا ،بغضّ النّظر عن خُصوصيّته،تقول أركيوني:«تُصنّف في خانة الافتراضات كلّ المعلومات التي ،وإن لم تكن مقرّرة جهرا(أي تلك التي لا تشكّل مبدئيا موضوع الخطاب الكلامي الحقيقي الواجب نقله) ،إلا أنّها تُنتج تلقائيا من صياغة القول التي تكون مدوّنة فيه بشكل جوهري بغض النظر عن خصوصيّة النّطاق التّعبير الأدائي»[1] .

وعليه يكون للمعرفة المشتركة بين المتخاطبين أثرها الكبير في توجيه عمليّة التّخاطب فلا يتمّ التّواصل ما لم يشترك المتخاطبان في المعرفة المسبقة ،التي تتدخّل في عمليّة إنشاء الخطاب ،وفهمه وتأويله ،إذ يبني المخاطِب خطابه على أساس مجموع الوقائع والحقائق والاعتقادات والقيم ... التي يفترض معرفة المخاطَب لها ،أو حتى إيمانه بها ،ويهدف من ورائها التّأثير في مخاطَبه واعتقاداته وسلوكياته [2]

ومن هذا المنطلق فالافتراض المسبق إذن هو أمر يفترضه المتكلّمون ،ويسبق تفوّههم بالكلام ،وهو لا يكمن في كلمة أو عبارة، فالمتكلّمون وحدهم هم أصحاب الافتراضات المسبقة ،إيمانا منهم بأنّ المستمعين عارفون بتلك المعلومات التي تُعدّ جزءا ممّا يتمّ إيصاله دون قوله فـ«عند كلّ عمليّة من عمليّات التّبليغ ينطلق الأفراد المتخاطبون من معطيات أساسيّة معترف بها،لا يصرّح بها المتكلّمون،وهي تشكّل خلفيّة التّبليغ الضّرورية لنجاح العمليّة التّبليغية ،وهي محتواة في القول»[3] .

وهذا ما شكّل للمتلقي جانبا إغرائيا يمسّ غريزته الفضوليّة ،ورغبته الجامحة في كشف مستورها من أجل الوقوف على قصد المرسل ،ففي أغلب الأحيان لا يكتفي الإنسان بمظاهر الكلمات عند التّعامل مع النّاس ،ولكن يتساءل أحيانا عن مقصد هذه الكلمة أو تلك [4] ،وفي أحيان كثيرة لا يعني الكلام ذلك الجانب التّصريحي ؛بل يعني دفع المتلقّي وحمله على التّفكير في أمور تلميحيّة –افتراضات مسبقة– ،وهي ليست غيبيّة ؛بل متضمّنة في الأقوال المصرّحة ،وهذا الضّمني من القول « يُعبّر عن محتوى موجود في الملفوظات بصفة غير مباشرة ،وكونه بدون دالّ يميّزه ،فإنّ محتواه مرتبط بالمحتوى الصّريح الذي يتميّز بداله

[1]– محمود عكاشة ،النظرية البرجماتية اللسانية ، ص 48

[2]– حافظ إسماعيل علوي ،التداوليات علم استعمال اللغة، ص 178–179

[3]– الجيلالي دلاش ،مدخل إلى اللسانيات التداولية ، ص 34

[4]– ينظر: أحمد عبد الرحمن حماد، العلاقة بين الفكر واللغة ، دار المعرفة الجامعية ،الإسكندرية،1985م، ص 59

الخاص ،وذلك يمكن اعتبار المحتوى الأوّل موجود ضمنيّا ،ولكنّه غائب على السّطح»[1] هذا من جهة ،ومن جهة ثانية فمن حقّ المخاطَب بدوره أيضا أن لا يكتفي بالمعاني الظّاهرة (الحرفيّة) الموجودة في الملفوظات ،و« أن يلجأ إلى حساب تأويليّ يُمكّنه من إدراك المعاني الضّمنية حساب يفترض فيه الضرورة ،و يتوّسم فيه القدرة على إبلاغه ضالّته»[2] .

لذا فإنّ عمليّة الإنتاج تتأسّس في ضوء سياق التّلقي الذي يؤدّي دورا محوريّا في عمليّة تأويل الملفوظات ،ويُبنى فعل التّأويل على« سلسلة من الاستدلالات التي يقوم بها القارئ أو المستمع الذي يُعوّل كثيرا على قدرته الاستنتاجيّة في تحديد ما يعنيه المتكلّم» [3] ،الذي خرج ملفوظه عن معناه الحقيقي إلى معاني ذهنية استنتاجيّة يعمل المُتلقّي جاهدا في التّعرف عليها ؛لأنّها ذات طبيعة غير مستقرّة توافق الحالة الّتي تصدر عنها؛ذلك راجع لتركيبتها اللّغوية التي تتعدّد معانيها ،ومضامينها إذ أنّه«ما من مضمون إلّا ،ويجوز أن يأتي من فوقه مضمون غيره ،وأن يأتي من فوق هذا المضمون الثّاني مضمون ثالث ،وهكذا من غير انقطاع »[4] ،هذا وتجدر الإشارة أنّه « كلّما توفّر المتلقّي على معلومات عن هذه المكوّنات (المتكلّم ، المتلقّي ، الرّسالة ، الزّمان ، المكان ، ونوع الرّسالة) تكون له حظوظ قويّة لفهم الرّسالة ،وتأويلها أي وضعها في سياق معيّن من أجل أن يكون لديها معنى» [5] ،لا يمكن لأيّ خطاب الاستغناء عن الافتراض المسبق ،إذ يجعله يسير بصفة متسلسلة غير منقطعة «فباحتوائه على معطيات يعرفها كلّ من المتكلّم والمخاطب لا يعني إلغاء أهميّته أو نفيه و لكن يُعتبر القاعدة الأساس الّتي يرتكز عليها الخطاب في تماسكه العضويّ» [6] .

وتتّصف الافتراضات كذلك بأنّها أقلّ قابليّة للإدراك ،وأقلّ أهميّة ظاهريّا ،وأكثر تبطينا ممّا جعل محتوياتها مضمرة عن جدارة ، ولكن« يشكّل هذا التّبطين في آن مصدر قوّتها كما أنّه يزوّدها بقدرة التّلاعب التي تذكّرنا بالقوّة المخيفة »[7] .

---

[1]– ذهبية حمو الحاج ، لسانيات التلفظ و تداولية الخطاب ، ص195

[2]– حافظ إسماعيل علوي ، التداوليات علم استعمال اللغة ، ص138

[3]– محمد خطابي، لسانيات النص ، ص 196

[4]– طه عبد الرحمن ، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي ، ص 23

[5]– محمد خطابي، لسانيات النص ، ص 297

[6]– ذهبية حمو الحاج ، لسانيات التلفظ و تداولية الخطاب ، ص 196

[7]– كاترين كيريرات أركيوني،المضمر، ص 46

الافتراضات المسبقة تعبّر عن قصديّة إنسانيّة أُنتج لأجلها الملفوظ ،وهذه القصديّة تستوجب إعادة بنائها ليتمّ في ضوئها فهم معناها الكلّي، وللضّفر بذلك يجب التّسليم بـ«أنّ معنى الملفوظ ليس هو القصد الدّال على المتكلّم بالذّات ؛بل هو المعنى الذي يستخرجه المخاطب من الملفوظ منطلقا في ذلك من بنيته الدّالة ،ومعتمدا على مجموع الكفايات التي يمتلكها هو ،ومقدار الكفايات التي يملكها المتكلّم ، وحادسا قصده الدّلالي»[1].

ويعتمد الافتراض المسبق على الوظيفة المعرفية ، التي تتفرّع« عن الشّكل التّواصلي المتمثّل في"السياق " ،ويمكن أن يتحقّق في اللّغة اليومية ، واللغة العلميّة ؛ لأنّ الرّسائل في هذه الحالة تعتمد على الوضعيّة اللّغوية المشتركة بين أفراد الجماعة اللسانية»[2] ،وعليه يتبيّن أن لكلّ سياق قول ،وهذه الأقوال متوقّفة على العوامل الخاصّة بالمتكلمين ،والعوامل الخارجة عنهم ،وهنا يظهر الدّور البارز للسّياق في فهم القول، فبتغيّره يمكن أن يتغيّر القول الذي «هو وليد قصد معين، يستمدّ وجوده من شخصية المتكلم ومستمعه أو مستمعيه ،ويحصل ذلك في الوسط (المكان) واللّحظة (الزّمان) اللذين يحصل فيهما» [3] ،وبما أنّ الخطاب هو الحامل اللغوي لمقاصِد المخاطِب الموجهة للمخاطَب ؛ فلابّد إذن لكل فكرة أو عبارة منه أنْ تخضع لاتّفاق المتخاطبين على فهم معيّن ،وإلّا لا يتّم التداول[4].

2-2: أنواع الافتراض المسبق :

حدّد الباحثون نوعين من الافتراضات المسبقة وهما:(الافتراض المنطقي أو الدلالي) و(الافتراض التّداولي) ،وقد ميّزوا بينهما بأن يكون الأول مشروطاً بالصّدق بين قضيتين أي إذا كانت (أ) صادقة ،كان من اللازم أنْ تكون(ب) صادقة أيضاً ،أمّا النّوع الثّاني من الافتراض – وهو (التّداولي) – فلا، يكون مشروطاً بالصّدق بين قضيّتين ،فلا دخل له بالصّدق،والكذب [5] ،فبالنّسبة للأوّل، فإنّه يستلزم أن تكون الجملتين صحيحتين (الجملة المحكيّة ،والجملة المفترضة) مثل: يعرف محمّد أن الأرض كوكب شمسي. فالافتراض

---

[1]– حافظ إسماعيل علوي ،التداوليات علم استعمال اللغة ، ص 128

[2]– عبد القادر الغزالي، اللسانيات ونظرية التواصل ، ط 1 ، دار الحوار ،2003م، ص48

[3]–– محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص14

[4]– ينظر:عبد الفتاح أحمد يوسف ،لسانيات الخطاب وانساق الثقافة ، ط1، الدار العربية للعلوم،2010م، ص48

[5]– محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر،ص28

المسبق:أن الأرض كوكب شمسي، فإذا كانت الجملة الأولى صحيحة، فإنّ الجملة المفترضة صحيحة ،أمّا الثّاني فلا دخل له بالصحة أو عدمها، ويبقى قائما غير متأثّر بالنّفي .

وخاصّية الافتراض التّداولي المسبق هذه عموما توصف «بالاطّراد عند النفي ،وتعني من حيث الأساس أنّ الافتراض المسبق (التّداولي) لمقولة ما سيبقى ثابتا(أي صحيحا) حتّى عند نفي تلك المقولة »[1]، فإذا قال شخص: هاتفي جديد ،ثم قال هاتفي ليس جديدا ،فعلى الرّغم من تناقض القولين ،إلّا أنّ الافتراض المسبق ،وهو أنّ له هاتف لا يزال قائماً في الحالين

ومن هنا فإنّ كافّة الافتراضات المسبقة هي دائماً صحيحة ،وهذا ما أقرّته أركيوني بقولها في الافتراضات التّداولية « أنّها تنفرد بميزة بأنّها قابلة للدّحض،و يمكن التّعلق عليها بشكل لغوي انعكاسي»[2].

ويعرّف ديكرو (Ducrot) الافتراض المسبق بقوله« عنصر دلالي خاصّ للملفوظ (أ) بتعلقه التحويلي تارة بمجال الاستفهام : هل (أ) ؟ ،وتارة أخرى بمجال النّفي : يكون من الخطأ (أ) »[3]، ولا بأس أن نمثّل لذلك :

أ =(توقف المصنع عن الإنتاج)، تحويله إلى استفهام يعطينا ب = (هل توقف المصنع عن الإنتاج؟)، ثم نفيه : ج= (لم يتوقف المصنع عن الإنتاج) .

هذه التّحولات تظهر لنا شيئا ضمنيا بين الأقوال الثلاثة وهو: د= (كان المصنع ينتج) و القول "د" هو: الافتراض المسبق ، إذ تمكّنا من معرفة حال المصنع بمجرّد تلفّظ المتكلّم بـ "أ" ، واصطلح عليه ديكرو بالقول المقرّ .

إنّ المتتبّع لحقيقة الافتراضات المسبقة توصلنا إلى نتيجة مفادها أنّه«من الممكن وصف الافتراضات المسبقة على أنّها أفعال كلامية افتراضيّة ،وهي في نفس درجة الأمر والاستفهام فلو تلفظنا بـ (أغلق فمك)،فلابدّ أن يكون هذا التّلفظ له تأثير في المستمع(المخاطَب) ولهذا الأخير القدرة على الطّاعة ،وتأويل القول بمعنى"إغلاق الفم" الذي هو مفتوح مسبقا ولا تسند وظيفة الآمر إلّا لمن وُجد في وضع يسمح له بإصدار الأوامر»[4].

---

[1]– جورج يول ، التداولية ، ص52

[2]– كاترين كيريرات أركيوني،المضمر، ص71

[3]–عمر بلخير،تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية،ط1،منشورات الاختلاف،الجزائر ،2003م، ص 112

[4]– ذهبية حمو الحاج ، لسانيات التلفظ و تداولية الخطاب ، ص 136

كما أنّ للافتراض المسبق استعمالين: أحدهما يفهم من لغة الحياة اليوميّة كقولك : كتب زيد رسالة إلى عمرو ، فيفترض مسبقاً أنّ عمرا يَقرأ ،والآخر الاستعمال الاصطلاحي في الدرس التداولي ،الذي هو أضيق استعمالاً من الافتراض العام ؛لأنّه مقيّد باستدلالات تداوليّة تحملها تعبيرات لغويّة معينة ،يمكن الوصول إليه ببعض الاختبارات اللغوية[1] ،وقد لاحظ بعض الباحثين ، بأنّه مرتبط ببعض الألفاظ والتراكيب ، كاستعمال الفعل(اغتيل)الذي يتحقق معها افتراض سابق ، بأنّ الشخص الذي تم اغتياله شخصية مهمة ، وهو لا يتحقّق مع الفعل (قتل)[2].

3-3: الافتراضات المسبقة في خطب الديوان :

ابن نباتة الفارقي في ديوان خطبه عكس لنا الواقع الذي عاشه مع أبناء مجتمعه في تلك الفترة الزمنية ،والبقعة المكانية التي أمضى حياته فيها ،وقد شهدت أحداثا كثيرة وتغييرات متعدّدة أثّرت بشكل كبير في الواقع السّياسي والاجتماعي لحياة الأفراد على اختلافهم ؛لأن الخطيب هو في النّهاية متكلّم «لا يبني كلامه في عزلة تامّة عن العالم من حوله بصفة عامة، وعن مخاطبه بصفة خاصّة ؛بل هو يفعل ذلك في ضوء الفرضيّات التّي يكون بناها مُسبقا عن شخصيّة هذا المخاطب» [3] ،ويراعي مجموعة من القواعد تضمن التّجاوب مع نصّه ،وقد لا تكون هذه القواعد موجودة من قَبل ؛بل« تُبنى في شقّ كبير منها على مجموعة الافتراضات المسبقة تتعلّق ببناء الافتراضات من لدن المبدع عادة بنظيره في العمليّة التّواصلية أي المخاطب أو المتلقي ،وتتمّ هذه الصّناعة في ضوء المحيط » [4]، وما حرصه على ذلك إلّا ليضمن نجاحا لقصيّدته المتأسّسة على حلقة من الافتراضات راعى فيها الخطيب مبدأ ما أشار إليه البلاغيّون حين قالوا : لكلّ مقال مقام ،والذي يقوم على تصوّر معيّن لنوعيّة المخاطب ،ولا يتسنّى الوقوف عليها، والكشف عنها«إلّا بما يسمّى بالمناهج التّأويلية التي تتيح لصاحبها استنطاق البنية اللّغوية ،وإثرائها بالمعاني ،والدّلالات

---

[1]- محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 28

[2]- ينظر: محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ،ص 30

[3]- حافظ إسماعيل علوي ، التداوليات علم استعمال اللغة ، ص 133

[4]- شيتر رحيمة ، تداولية النص الشعري جمهرة أشعار العرب أنموذجا، رسالة دكتوراه ، إشراف : عبد القادر دامخي جامعة الحاج لخضر باتنة ، السنة الجامعية : 2008- 2009م، ص259

استنادا إلى جملة من الشّروط أوّلها السّياق فالمعنى المباشر للرّسالة سيكون أسهل في وضع لا نملك فيه أدنى معرفة بملابسات الخطاب ؛لأنّ عمليّة التّأويل تحتاج دائما إلى إدراك كلّي بمختلف الجوانب المحيطة به»[1]، كما أنّ « كلّ تأويل لا يجوز له أن يتناقض مع بعض المعطيات الموضوعيّة تاريخيّة أو لغويّة أو اجتماعيّة...)»[2] .

وابن نباتة الفارقي كانت خطبه وليدة أحداث عصره لذا نجده في الدّيوان قد «أفاض في ذكر الموت والبعث والحشر ،والميزان وأطال فيما سيلقى المحسنون من الثواب ،وما سيعاني المسيئون من العقاب ،وهناك جوّ آخر أثّر في خطبه ،وأعطاها صبغة قوية رهيبة ،ذلك الجوّ هو اتّصاله بسيف الدّولة بن حمدان ،وكان سيف الدولة كثير الغزوات ،فلهذا أكثر الخطيب من خطب الجهاد ،ليحضّ الناس عليه ،ويحثّهم على نصرة سيف الدولة» [3] ،وعلى أساس هذه المعطيات بنى الخطيب افتراضاته المسبقة ،ومن أمثلتها نذكر:**«ألا وإنّ الجهاد كنز وفَّر الله منهُ أقسامكُم،وحِرز طهَّر به أجسامكم ،وعزٌّ أظهر الله به إسلامكُم، فإن تنصُروا الله ينصركم ويُثْبِت أقدامكم .**

فانفُروا-رحمكم الله- جميعا ،وثُبَاتٍ ،وشُنُّوا على أعداكم الغارات، وتمسّكوا بعِصَم الأقدام ومعاقل الثّباتِ ،وأخلِصُوا في حقائق النِّيَّات،فإنَّه والله ما غُزِيَ قوم في عُقْرِ دارِهم إلا ذَلُّوا ولا قَعَدُوا عن صونِ ذِمارِهم إلّا اضمحلُّوا»[4].

الافتراض المسبق الذي نستشفّه من مقطع الخطبة ،والذي يُعدُّ بمثابة معلوماتٍ غير مصرّح بها بين المتكلّم (الخطيب) ،ومتلقيه «كونها تُعامل على أنّها معروفة ،ولذا تُعتبر جزءا ممّا يتمّ إيصالُه دون قوله » [5] ،وهو تلك الحروب المقدسة التي شَهِدها العصر ،والتي خاضها سيف الدّولة ضدّ الرّوم ،وغايتُها التَّقرُّب إلى الله تعالى ،وطاعته ،وإعلاء شأن الإسلام فوق الأديان بإحراز النّصر على الأعداء ،بغية تحقيق الأمن والسعادة في الدنيا

---

[1]- دندوقة فوزية ، التأويل و تعدد المعنى ، مجلة كلية الآداب و اللغات و العلوم الانسانية و الاجتماعية ، العدد4، جامعة محمد خيضر ،بسكرة ، جانفي 2009م،ص129

[2]- رشيد الإدريسي، سيمياء التأويل (الحريري بين العبارة و الإشارة)، ط1، شركة النشر و التوزيع المدارس الدار البيضاء المغرب،2000م، ص 30

[3] - زكي مبارك ،النثر الفني في القرن الرابع،ج2، ص 161

[4]- ديوان خطب ابن نباتة، ص 300

[5]- جورج يول ، التداولية ، ص 51

والآخرة ،ويعدّ الجهاد في سبيل الله هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق الغرض المنشود ،وتعدُّ هذه الوسيلة بمثابة افتراض مسبق ،حينما أقرّ به الخطيب إيمانا منه بوعي متلقّيه بقيمة ذلك خاصّة عندما استمدّ مشروعيّته من منطلق يؤمن به كلّ من المتلقّي ،والخطيب ألا وهو القران الكريم ،وقد ورد ذلك في عدة آيات منها قوله عزوجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾ -(البقرة:218)- وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣٥﴾ (المائدة:35) ،وأيضا قوله: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤١﴾ (التوبة :41).

ولمّا كان النّصر على الأعداء أحد أهمّ غايات المجاهدين في حربهم ضد الأعداء ،فقد بيّن مقطع الخطبة العوامل ،والشّروط التي يجب عليهم الأخذ بها لتقوية أنفسهم ،وتحقيق ما يصبون إليه من نصر مؤزّر على عدوّ الله ،وعدوّهم وجملة هذه العوامل هي افتراضات مسبقة تتطابق محتوياتها مع حقائق معروفة سلفا ،ومسلّم بها من قبل المرسل إليه [1] ،وهي الاستعداد الجيّد الذي يكون بتجهيز الجيوش ،وتدريبها وزيادة أعدادها ،وتوفير السّلاح وتحصين المعاقل ،وكذا الصّبر والثّبات ،بالإضافة إلى إخلاص النّية باليقين ،وحسن الثّقة بالله ؛لأنّ الثّقة بغيره تُورِث الفشل ،وتقذف في القلوب الوجل،ويضاف لتلك الشّروط تقوى الله تعالى وطاعته وذلك في قوله :« **إنّ تقوى الله خير سبيل ،من لزِمها أدّتهُ إلى خيرِ مَقيل ومن سئِمها عميَ عن الدّليل ،ومن حرمها باء بالنّدم الطّويل،بها يوقى الوليّ حذره ،ويولي العدوّ دُبُره ،ويتصرَ الله من نصره ويفُلُّ حدّ من حادّه وكفرَهُ**» [2].

فالافتراض المسبق هو أن تقوى الله مطلوبة في كلّ الأحوال ،سرا وإعلانا ،وهي من أقوى أسباب النصر ،وأوكدها ،ولن تُغلَب فئة يكون تقوى الله شعارها ؛ لأنّه تعالى مع المتّقين وتحصيل هذا الشّرط يترك أثره للعيان ،فقد رأى المخاطب (الناس) نتائج إقبالهم على طاعة

[1]- ينظر: كاترين كيريرات أركيوني،المضمر،ص 56

[2]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 311-312

الله ،وتركهم سبل الإضاعة كيف أدت بهم إلى تحقيق النصر المبين ضد العدو ،وفي دعوة الخطيب إلى الجهاد في سبيل الله يربط الهزيمة بتقصير المسلمين ،وتوانيهم عن الجهاد ومعصيتهم لله ،ورسوله وغفلتهم وتفرقهم وحبّهم للدنيا ، وفي هذا يقول: «**والله لو صفَت الضّمائرّ من كدر نفاقها ،وانكَفَتِ السّرائر إلى الثّقة بخلّاتها ،لأعذبَ لكم من الحياة مرَّ مذاقها ،ولحكَّم سيوفكم في قلَلِ الأعداء وأعناقها ،ولكن قلّة نصركم إيّاه فقلّ النّصير وجعلتم كتابه وراء ظُهورِكم ،واعتَصمتُم بغير حبله فكبُر عندكم الصّغير،وأفشيتّم بينكُم الفواحش ففشا فيكم التّقصير ،وحجبتم قُلوبكُم بالقسوة فلم يصل إليها التّحذير ،وأهملتم النّفير إلى أعداء الله فاتّصل إليكم النفير ،ودعوتم من دونه لمن ضرّه أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير** »[1].

الافتراض المسبق الذي انطلق منه الخطيب هو الأثر النّفسي ،الذي أحدثته هزيمة المسلمين في حربهم ضدّ عدوهم ،فعمد إلى تذكير متلقّيه بالأسباب الكامنة وراء هذه الانتكاسة ،والتي هي في حقيقة الأمر تُرجع أسباب الهزيمة منطلقاتُها إلى المسلمين في حدّ أنفسهم ،وكلّها مأخوذة من حقيقة يؤمن بها كلّ من المتكلم والمتلقّي لأنّ معانيها مقتبسة من عقيدتهم الدّينية المستمدّة من القرآن الكريم ،وفي ذلك يقول الله وقوله الحقّ المنير: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾(آل عمران :**165**)،وهذا الافتراض المسبق«يتلاءم مع بديهيّات من المفروض أن يتشاطرها عموم الأشخاص المنتمين إلى الجماعة المتكلمة» [2] ،وذلك حينما رأى الخطيب أن النّصر من الله على الأعداء يكون لعباده المؤمنين الذي نصروه على أنفسهم بطاعته له ،وإيمانهم التّام به ،لا بكثرتهم وعددهم وارتكابهم المعاصي فمن وصل حبل الله وصله ،ومن أهمل حقّه أهمله ،ومن قعد عن نصرته خذله ،ومن كان الله كان الله له، ويقول في السّياق نفسه:«**أضعتُم حقوقَ الله بالتَّضافُر على إبطالها ،ووقعتم خروق الدين بينكم بأمثالها ،وأعذبتم بالمَلَقِ الألفاظ ،ونبذتُم الوفاء والحفاظ،ونكصتُم عن عدوّ الله**

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 310

[2]– كاترين كيريرات أركيوني،المضمر، ص 56

وعدوّكم على الأعقاب ،ومددتم لحُكمِه خواضع الرِّقاب (...)،وصِرتم فرصَة المفترسِ ،ونهزة المختلس وحَبًّا للّاقِط بلا سَفَا» [1] .

فالافتراض المسبق في هذا المقطع هو أنّ الله عزّوجل شرّع حقوقا لعباده عليه ،وإضاعة هذه الحقوق بالمعاصي توجب غضب الرّب ،فتؤدّي إلى ضرب الذّلة على الأمّة المؤمنَة، لذا كان أثرها وخيما على عباده المسلمين المجاهدين في سبيل الله ،وهو الهزيمة والذل والخسران المبين ،وقد كانت إضاعة هذه الحقوق الإلهية بالانحراف عن الصّراط المستقيم سواء كان هذا الانحراف انحرافا عقديّا أو انحرافا عمليّا ،وأيضا الفرقة والاختلاف، والنّكوص عن الجهاد بموالاة الكافرين والمنافقين ،وعدم الحذر منهم ،والمقصد التداولي الذي يرجوه الخطيب من ذلك هو أن هذه الهزيمة من عند الله لحِكمة يريدها ،فهي ابتلاء وامتحان ،وتمحيص حتّى يأخذوا العبر ،فيزدادوا إيمانا ،ولا ينبغي لهم أن يهنوا أو يحزنوا ؛لأنّهم الأعلون ماداموا مؤمنين ،ولذلك فالخطيب دوما كان يستنهض الأمة بكل طاقاتها بعد أن تأخذ بعوامل النّصر لمقارعة الأعداء ،وفي ذلك يقول: « **فابذُلوا في الجِهاد النُّفوس فقد عَظُمَ عنها العِوضُ واصْبروا وصابِروا ورابطِوا وإن مسّكُم المَضَضُ ،وأَغرِقوا في النَّزْعِ ،فقد استُهدِفَ من عدوِّكم الغرض ،وتمسَّكُوا بحبل جهاده ،وتحصَّنوا من كيد العدوّ بمعاقِل الصّبر ،وثِقوا مع الثّبات بمآجِلِ النّصر ،وأكثروا ذكر الله تعالى عند اللّقاء في السّر والجهر»**[2] .

الافتراض المسبق في هذا المقطع ،يتمثل في أنّ محاربة الأعداء ليس بالأمر الهيّن ،ولا السّهل ؛بل يتطلّب مجموعة من العوامل التي يجب التّقيُّد والالتزام بها ،وهذه العوامل لا غنى عنها لتحقيق النّصر في هذه المواجهة ،ومنها: مجاهدة النّفس والصّبر والثبات والتّمسك بحبل الله ،وذكر الله تعالى بالدّعاء ،والخطيب بنى هذه العوامل انطلاقا من عقيدته الدّينية الإسلاميّة التي تُعدّ حلقة تشترك بينه ،وبين متلقّيه حتى يضمن لخطابه الأثر الذي يصبو إليه ؛لأنّ المتأمِّل لمقطع الخطبة ،يجد أنّ هذه العوامل مستمدّة من القرآن الكريم ،وذلك في قوله عزّوجل: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥﴾ -(الحجرات:15)- وفي

[1]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 309

[2]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص303

قوله:﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾-(آل عمران:200)-،وفي قوله:﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾-(آل عمران:103)-

إنّ الجهاد باب عظيم ،وميدان رحيب خاضه الخطيب ،فأحسن فيه مفصّلا ،ومرغّبا يقول: «**ألا فأوجِبُوا -رحمكم الله- صفقة بيعِ النُّفوسِ لمشتريها ،وأقرِضُوا الأموال من يضاعفها لكم ،ويزكّيها ،وأبذلوا الأرواح في سبيل من يحرسُها عليكم ،ويقيها ولا تَبخُلن فإنّ أمره نافذ فيها**»[1] .

الافتراض المسبق الذي انطلق منه الخطيب ،يتمثّل في أنّ الجهاد في سبيل الله يتطلّب شروطا يجب أن تتوفّر حتّى يحقّق غايته في النّصر على الأعداء ،ومقطع الخطبة أشار إلى نوع من أنواع الجهاد ألا وهو جهاد الأقوياء القائم على الاستعداد المادّي الجيّد ببذل النّفس والمال في سبيل إعلاء راية الإسلام ،وقد اقتبسه من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ -(التوبة:111)- ،وقوله أيضا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ -(سورة الصافات: 10-11)- ،أمّا في قول الخطيب:«**واعلمُوا أنّه لا يصلحُ الجهاد بغير اجتهاد ،كما لا يَصلُح السّفر بغير زاد ،فقدّمُوا مجاهدةَ القلوبِ قبل مشاهدة الحروبِ ،ومُغالبَة الأهواء قبل محاربَة الأعداء ،وبادرُوا بإصلاحِ السَّرائِر ،فإنّها من أنفس العدد الذّخائر ،وليدفع القاعدون عن المجاهدين بالدّعاء** »[2]،فقد بيّن من خلاله افتراضا مسبقا مهمّا ،وهو أنّ هناك جهاد معنوي إلى جانب جهاد الأقوياء ؛بل ويتقدّم عنه

[1]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 301

[2]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 300

ويرافقه ،ومن خلال الخطبة تتبيَّن طبيعة هذا الجهاد الذي يقوم على بناء الفرد أو الجماعة بناءً إيمانيّاً، وفقهيّاً، وفكريّاً ،يرقى بهم إلى مستوى الدّين الإسلامي ،ومستوى أخلاقه ،ومهامه بإعداد الفرد المؤمن إعداداً توجيهياً، وتزكيته تزكية ربانية، تجعله قوي الصّلة بربّه ،يحبّه أكثر من محبّته لنفسه ، ويكون كلّ ذلك بإخلاص النّيّة ،وإصلاح السّريرة ،واليقين ،ثم لزوم الطّاعات ،وكبح جماحِ النّفس عن شهواتها ،وإتّباع هواها ،ومهما كانت طبيعة الجهاد ،فإنّ له فضلا عظيما ،ومآلا هو بمثابة افتراض مسبق يمثل معرفة مشتركة بين المتكلم (الخطيب) ومتلقيه ،وهذا المآل الذي فيه خير وصلاح للمجاهدين في سبيل الله استمدّه من القرآن الكريم الذي يؤمن به كل من المتلقي والمتكلّم ،وفي ذلك يقول تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾-(التوبه:20)-،ويقول عزّوجلّ في السّياق نفسه:﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ ﴾-(الأنفال: 74)- ،وقد أوضح الخطيب ذلك في مواضع من خطبه منها قوله: « **إنّ اللهَ أيّه بكم فهل أنتم سامعُون ؟،وندبكُم إلى طاعتِه فهل أنتم إليها مسارعُون ؟ ، وساومكُم بنفوسكم فهل أنتم لها بائعُون ؟ ،وجعل أثمانها جنّتَه فهل أنتم إليها نازعُون ؟ ،وأنبت لكم سبعمائة فهل أنتم لها زارعُون ؟**»[1] ،فالجهاد في سبيل الله كما وضّحه الخطيب يعدّ نداءً من الله عزّ وجلّ ،وهو من أفضل الطّاعات التي يتقرّب بها المؤمنون لربّهم،ويتنافسون فيها ،وما ذاك إلّا لما يترتّب عليه من إعلاء كلمة الله ،ونصر دينه ،ونصر عباده المؤمنين،ولما يترتّب عليه أيضًا من انتشار الدّعوة الإسلاميّة بين العالمين ،بإخراج العبادِ من ظلمات الشّرك إلى أنوار التّوحيد، فالمؤمن فيه قد باع نفسه ،وماله على الله عزّ وجلّ، وأنّه سبحانه قد تقبّل هذا البيع ،وجعل ثمنه لأهله الجنّة، لذا يقول ابن نباتة :« **وتولّيتُم للجهادِ منزلًا ،قد أشرَعت إليه الجنّةِ أبوابَها ،وطالعت الحُور الحِسانُ منه أحبابَها ،وأترعَت الولدان لمصطفى الله فيه أكوابَها ،وقِيل هذه عروسُ دار الآمال ،فكُونوا الآن خُطّابَها**» [2] ،فالجهاد إذن هو التّجارة

[1]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 300

[2]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 303

الرّابحة، ودرجته عالية وعظيمة،وأن المجاهد الصّادق المخلص في سبيل الله ،قد وعده الله الجنّة والكرامة ،وهذا فضل عظيم،وتشريف كبير،وقد اعتمد الخطيب على المعرفة المشتركة بينه ،وبين المستمع في إبانة ذلك ،وأنه والمستمعين من أهل الحقّ لكونِهم من أتباع المصطفى صلى الله عليه وسلم ،والسّائرين على نهجه ،ومؤمنين تمام الإيمان بما جاءت به الرّسالة المحمديّة .

لقد بيّنت لنا جملة الافتراضات المُسبقة الخاصّة بباب الجهاد أن الخطيب يستغلّ التّرغيب والتّرهيب باعتبارهما طريقين يؤثّر عبرهما في الجماهير ،داعيا إلى الجِهاد ومحرّضا عليه ،فهو يرغِّب في الجهاد مبيّنا فضله ،ومآلَ المجاهدينَ في الدّنيا ،والآخرة رابطا النّصر بالله ،ويذكر عوامله من تقوى الله ،وطاعته ،والصّبر والثّبات ،والأخذ بالأسباب الماديّة ليأخذ بها ،ثمّ نراه يدعوه إلى الوحدة ،والتّضافر ،ويستنهضُ الأمّة بكلّ طاقاتها ،وإمكاناتها فالنّصر من عند الله ،والهزيمة ابتلاء وتمحيص،وعكست لنا جملة الافتراضات المسبقة إخلاص الخطيب في الدّعوة إلى الجهاد ،وبرزت في أدبِه الجهادي سمة التّكرار في المعاني ،والألفاظ والتّراكيب ممّا قلّل الابتكار في هذا الباب ،ولم يجعل له حظّا من الإبداع لأنّ ما جاءَ فيه كان مُستلهَما من كتاب الله تعالى ،ومن سمات الأدب الجهادي عند الخطيب كذلك الواقعيّة فهو لا يتحرّج من ذكر الهزائم ،وذكر أفاعيل العدوّ ،ولكنه يستغلُّها لشحذ الطّاقات ،وإشعال العواطف ضدّ العدوّ ،وهو ما جعل خطبه تعدّ من الأدب المقاوم ؛إذ لا يدعو إلى البكاء وندب الحظّ أو الخنوع والرضا ،والتّسليم بعلوّ الأعداء ،ولا ينفكّ عن الدّعوة إلى استنهاض الأمّة بكلّ ما أوتيت من قوّة ،وقد أفلح الخطيب في هذا الأمر حتّى قيل إنّه «لمّا كان يخطب بالنّاس في أمر الجهاد كان أكثرهم يخرج إلى الغزاة بعد أن ملؤوا الجامع استجابة وتأثّرا بكلامه»[1] ،وهكذا تكون الخطب الجهاديّة لابن نباتة قد أدّت دورها في عصره.

رأى الخطيب إقبال النّاس على الدّنيا ،وشهواتها،وتقاعسهم عن أداء الواجبات والعبادات وكراهيّتهم للموت ،فأخذ على عاتقه وعظ النّاس وإرشادهم،وترغيبهم في سلوك سبل الزّاهدين والتّذكير بالموت والجنّة والنّار ،وشحذ الهِمم في أداء الفروض الدّينية ،واعتمد في ذلك على

[1]– خالد بن محمد الجديع،خطب ابن نباتة الفارقي:الرؤية والفن، ص465

جُملةٍ من الافتراضات المُسبقة منها قوله :«**فضح الموتُ الدُّنيا فازدرُوها لفضيحتِها ونصحتكم حوادثها فاحذرُوها لنصيحتها فكفاكُم بها منها مُنذرا ،وبِسابقِها عن لاحقها مُخبِرا أو ما رأيتُم إفسَادها من أصلَحَها ،وغشّها من نصَحَها ،ممّن اتّخذَها أُمًّا ،وظنّ عطاءَها غُنما ،فكانت أُمومتُها يُتما ،وعَادت غُنيمتُها غُرمًا ،حين أَقصدَتهم بِفجائعِها ،وأرصَدت لهم الموت على طلائعِها ،وزحَفت إليهم بنوائبِها ،وأعنَقت عليهم بنَيَارِبها**» [1] .

الافتراض المُسبق الذي انطلق منه الخطيب هو زوال الدّنيا ،وسرعة رحيلها بالموت ،وقد اعتمد في تقريره لهذا الافتراض على وصف أحوالها ،والتحذير منها ،ولجأ في ذلك إلى استخدام أسلوب التضاد(**بسابقها≠لاحقها،إفسادها≠أصلحها ،غشها ≠ نصحها ،أمّا ≠يتما ،غنما≠غرما**) ،وقد عمد عنصر التّضاد إلى توضيح المعاني فبالأضداد تتّضح المعاني ؛إذ تبيّن من خلاله تقلّب الدّنيا ،وفعلها بأهلها ،ومآل من يركن إليها ،فباستفهام استنكاري يدعو الخطيب ابن آدم إلى التّأمّل في حال الدنيا ،حتى يستلهِم العبر ،فلو تبصّر العاقل فيها أقلّ تبصّرٍ لعَرَفَ قدرَها ،وهوانها ،وعرَف غدرَها وخداعها ،وكيف أنَّها لا تستحقّ أن يعطيها الإنسان كلّ جهده ؛بل العاقل يُعطيها ما تستحقّ ،لأنّ حلاوتها وطراوتها ونضارتها لا تبقى بل تزول بالموت ،فتقطع رجاء من ركن إليها ،وتُخيِّب طمع من طمع فيها، واللّبيب فيها من يجعلها طريقا للآخرة فهي دار البقاء والقرار ،وفي ذلك يقول الخطيب: « **إنّ الدُنيَا قد أدبَرت وآذنَت بانقلاع ،وإنَّ الآخرَة قد أقبلت ،وأشرفت باطّلاع ،فتَزوّدُوا من دارِ المُحال لدارِ المآل وخُذُوا من الحياةِ الفانيةِ المُنكَّدة للحياة الباقية المُؤبَّدة ،واعلمُوا أنّ الدّنيا مفازةٌ ،فيها الطّريق إلى الآخرةِ ،وقَنطَرَة عليها الجوازُ إلى السَّاهِرَة**» [2] .

الافتراض المسبق في مقطع الخُطبة يتمثّل في الدّعوة إلى العمل إلى الآخرة من خلال الحثّ على الزّهد في الدّنيا ،وذلك من خِلال حرص الخطيب في بيان العلاقة بين الدّنيا والآخرة ،وفي أنَّ الأولى هي دار سفر ،والثّانية دار إِقَامَة ،والدّنيا منزل عبور ،والآخرة موطن البقاء ،والسّرور ،فينبغي للمؤمن أن يكون في الدّنيا على جناح سفر ،وأن يجعلها آخر همّه وما هي إلّا محطّة في طريق وممرّ إلى مستقر، والمقصد التداولي الذي يسعى إليه الخطيب

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 33

[2]– ديوان خطب ابن نباتة ،245–246

في كلامه عن الدنيا والآخرة ،هو التّأثير في النّاس ،وإقناعهم بضرورة طاعة الله تعالى وفعل الخير قبل فوات الأوان ،وقُدُوم هادم اللّذّات و مفرّق الجماعات ،وفي ذلك يقول ابن نباتة :«**ألا وإنّ الموتَ عَارفٌ من جهله ،خَاطفٌ من أَغفلَه ذَاكرٌ من نَسِيهُ ،آسرٌ من لَقيَهُ لِغُربَانِهِ على الدّيار نَعيبٌ ،ولِنيرانِه في الأعمار لهيب ،ولحُدثانِه في الأبشارِ دبيبُ ولجَولانِهِ في الأقطارِ وجيبٌ ،له في كلّ مُهجةٍ سهمٌ مصيبٌ، ولِكُلّ نفس مِن مرارتِه نَصيبٌ ،وبكلّ مخلوقٍ منه يومٌ عَصيبٌ** »[1] .

الافتراض المسبق الذي أقرَّه الخطيب هو حتميّة الموت ،وإطاحتِه بالجميع فلا مفرّ منه وقد وصف الخطيب الموت ،وأفعاله ،ولجأ في ذلك إلى التّشخيص ،والتّجسيم مصوّرا قربه وسَطوته ،وما يتركه من أثر على الفرد والجماعة ،ويبدو الخطيب في تصويره لهذا الافتراض المسبق متأثّر بما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾ -(آل عمران: **185**)-وقوله : ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦﴾ -(الرحمن: **26**)- ، وقوله: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٨﴾ -(القصص: **88**)- ،كما يلجأ الخطيب في التّأكيد على غرضه في إشارة منه إلى ضرورة الاعتبار بالسّابقين يقول: «**أينَ مَن كان قَبلكُم مِن القُدماءِ مِن الجَبابِرة ،والمُلوكِ العُظمَاء، والسّادات الأكابرِ ،والأُمَراء ،مِن ذوِي الضَّبْنَةِ ،والضّوضاء وأولى الثّروة ،والثّراء ،وأهل الغِنى والغناءِ ،أينَ من نازعَ اللهَ رِدَاء الكِبريَاء ،ووثق بِصِحَّتِه في دارِ الأَعلَّاءِ ،أين الذينَ أَلبستهُم الدّنيا رونقَ السّناءِ، وشَمَخَت بهم العِزَّة في الشّاهِقَة الشَّمّاءِ ،واستطالُوا بكثرةِ الأموالِ والعُبدَاء**»[2] .

الافتراض المسبق في مقطع الخطبة يتمثّل في هلاك السّابقين مع الاعتبار من ذلك والدّعوة إلى العمل للآخرة ،من خلال النظر في أحوال النّاس ،والأمم الماضية ،والوقوف على آثارهم ،وديارهم ،وحالة الرّغد التي كانوا يعيشونها ،ليتبيّن فعل الموت بهم ،حتى يصل

[1]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 125

[2]- ديوان خطب ابن نباتة ، 202

الإنسان إلى غايته التي وجد من أجلها ،فيعمل على الخلاص بنفسه قبل فوات الأوان والمقصد التّداولي الذي ساقه الخطيب من خلال ذلك هو توجيه النّاس ،ونصحهم بالجدّ والاجتهاد في الطّاعة ،وعمل الخيرات ،والابتعاد عن المعاصي عن طريق تذكيرهم بالموت ليكون دافعا إلى تذليل جوامحِ النّفوس ،وزجرها عن المعصية.

يعتبر الإيمان بالغيب من أهمّ القضايا الوجوديّة ،وهو ركن أساسي من عقيدة كلّ مسلم وعلامة على إيمانه ،وفي ذلك قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ -(البقرة: 1-3)- ،ويدخل في الغيب كل «ما غاب عن الحواس ،وهو الأمر الذي لا يعلمه إلّا الله ،ولا يعلمه الرّسول صلى الله عليه وسلم فضلا عن بقيّة النّاس إلّا من أطّلعه الله على شيء منه»[1] ،فعلم الغيبيات من الأمور التي استأثر الله تعالى بها ،واختصّ بها لنفسه جلّ وعلا حيث يقول: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ۝١٢٣﴾ -(هود: 123)- ،ولمّا كان الإيمان بالغيب من صفات المؤمنين انطلق منه الخطيب ،وقدّم مجموعة من الافتراضات المسبقة تخص هذا المنحى الإيماني منها قوله : « **فتأهّبُوا – رحمكم الله – للصّوتِ السّميعِ والخَطبِ الفَظِيعِ ،والحساب السَّرِيعِ ،إذا انشقَّت السَّماءُ فمارَت،وتمزّقَتِ الجِبالُ فسَارَت وبُعثِرت الضَّرائِح فَثَارت ،ونشرَت الصُّحُف فطارت ،وشَخَصَت الأبصَار فحَارَت ،وخَسِرت تِجاراتُ المُسيئينَ فبَارت،واشتدَّت رحى القِيامَة على المُذنِبينَ فَدارَت ،وسَقطَت قِوى المتجبّرين فَخارَت ،وأُزلِفت الجنَّة للمُتّقِين فبَارَت ،وسُعِّرت النَّار على الكَافرِين فَفَارت هنالك يفرّ الولدُ من وَالديْه ،ويَعضُّ الظَّالِمِ على يَديه ،وتُوضَع موازينُ الحقّ لوزنِ أعمالِ الخلقِ**»[2].

الافتراض المسبق الذي يؤمن به كلٌّ من المتكلّم والمتلقّي هو أن هناك يوم تُوَفَّى فِيهِ كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ في الدُّنْيا، إنّه يوم القيامة ،والذي تصاحبه أهوال عكف الخطيب على

[1]- بسام علي سلامة العموش،الإيمان بالغيب،ط1،دار المأمون ، عمّان،2010م، ص 09

[2]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 122-123

تصويرها متأثّرا بما جاء في القرآن الكريم من آيات دالة على هول ذلك اليوم ،حيث أنّه في ذلك اليوم تَنْشَقُّ السّماء ،وتَمورُ وتضطرب، فتصبِح ضعيفة واهية- ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢﴾(الانشقاق: 1-2)-،والجبال تُسَيَّرُ وتتمزّق ،وتُزال عن موضعها وتُسوّى الأرض فلا ارتفاع فيها ،ولا انخفاض -﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣ ﴾(التكوير: 2)- تنبش القبور فيخرج الخلق من قبورهم وينتشرون في الأرض -﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ ﴾(الانفطار:82)- ،وتنشر صُحُفُ الأَعْمالِ الَّتِى كَتَبَتْ فيها المَلائِكَةُ ما فَعَلَ أَهْلُها مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ تُنْشَرُ يَوْمَ القِيامَةِ لِيَقْرَأَ كُلُّ إِنْسانٍ كِتابَهُ- ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠ ﴾(التكوير: 10)- عذاب الله فيه شديد، والأبصار شاخصة، والقلوب لدى الجناجر واجفة ،فيه يجازى الإنسان عن أعماله ،فإمّا الجنّة ،وإمّا النّار حينها يندم العصاة ،ويتحسّرون على تفريطهم في الطّاعة ولشدّة حسرتهم يَعضّون على أيديهم ،-﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ۝٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانٗا خَلِيلٗا ۝٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ۝٢٩﴾(الفرقان: 27-29)-لأنّ هناك ميزان فيه بالقسط لا اختلال فيه، وحسابه مثقال الذرّ، والمقصد التداولي من حديث الخطيب عن السّاعة ،والنّفخ في الصّور ،والبعث والمحشر والحساب ، وذكر الجنة والنار هو وعظه للنّاس ،وحثّهم على العمل للآخرة ؛إذ لابدّ من استغلال الوقت ؛لأنّ الإنسان لا يدري متى يأتيه الموت ،وكذلك الحساب على ما اجترح في دنياه ،وعليه يجب الإسراع في التّوبة بالرّجوع إلى الله تعالى ،وعمل الخيرات ،لذا نجد الخطيب في ديوان خطبه الدّينية قد أنشأ خُطبا تعرف بخطب المواقيت يذكّرهم فيها بفضائل شهور السّنة ،وأيّامها يقول: «**إنّ الله ،وله الحمدُ اختار من السَّنة أيّاما شرَّفهَا ،ومواقيت بيَّنَها لكم ،فعرفَها جعلَها الله لزُلَلِكم مَمحاة ولصَالح عملكم مَنماة ،دلالة على قصد السّبيل إليه ،وكفالة بالمزيد لمن رغب فيما لديه**»[1]

فابن نباتة يعظ الناس ،ويرشدهم ويذكّرهم بفضائل شهور السّنة ؛لينبّههم لضرورة

[1]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 129-130

استغلالها بالعبادة ،والطّاعة لله عزّ وجلّ حتى ينالوا خيرها ،وفضلها الذي تحمله فعن شهر رمضان يقول ابن نباتة : «**فقد عمَّتكُم –رحمكم الله– من شهر رمضانَ النِّعمةُ السَّابِغة ولزمتكم من الله الحُجّة البَالغةُ ،ألا وإنَّه شهرٌ جعلَه الله مِصباحَ العامِ ،وواسطة النِّظامِ وأشرَفِ قواعدِ الإسلامِ ،المشرقةِ بنورِ الصِّيامِ والقِيامِ ،أنزَل الله فيه كِتابَه ،وفَتَح للسَّائِلينَ أبوابه ،فَلا دُعاءَ فيه إلّا مسموع،ولا عملَ إلا مرفوع، ولا خيرَ إلّا مجموع ،ولا ضير إلّا مدفوع. الظّافر الميمونُ من اغتنمَ أوقاتَه،والخاسر المغبونُ من أهملَه ففَاتَه**»[1].

فشهر رمضان عند الخطيب سيّد شهور السّنة وأفضلها ؛لأنّه شَهْرُ الخَيْراتِ والنعم، جعله زمنًا لأداء فريضة الصّيام، الذي هو أحد أركان الإسلام، اختاره الله لنزول القرآن في ليلة القدر، فذلك دليل على فضله وعُلوّ منزلته عند الله تبارك وتعالى، وعِظَم شأن العمل الصّالح فيه ،وقد استلهم الخطيب هذا الفضل من القرآن الكريم حيث يقول جلّ شأنه: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥﴾(البقرة:185) وفي فضل شهر رجب يقول:« **ألا وإنّ شهركُم هذا شهرٌ حرام فضّلته الجاهليّة ،وشرّفَه الإسلام ،افتتح الله به ثلاثة أشهرٍ كرام ،فَضَّلَها عن شهور السّنين ،والأعوام، فرجب أوّل شهور البركة المنقذة من كلّ فتنة ،وهلكة**»[2].

يعتبر الخطيب شهر رجب من الأشهر الحرم التي ينهى الله عزوجل فيها عن الظلم وارتكاب المعاصي ؛لأنّ المعصية في هذه الأشهر الحرم أعظم من المعصية في غيرها – وإن كانت المعصية محرّمة في كلّ وقت – كما أن الحسنات فيها مضاعفة. هنا نلحظ الإشارة في فضل الأشهر الحرم قد أخذه الخطيب من قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 88

[2]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 66

ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ ﴾ (التوبة: 36) ،وعن شهر شعبان يقول:

«هذا عبادُ الله شعبان ضاربًا بجرانه قادمًا بمعروف ربِّكم وإحسانه، تتشعَّب من السَّماء عليكم بركاته ،وتزكّي أعمالكم أوقاته وساعاته ،أطنب رسول الله صلى الله عليم وسلم في وصفه ورغَّبَ في قيام ليلةِ نصفه فتأهّبوا- رحمكم الله- لقصدها وشمّروا لاغتنام وردها» [1]

يخبر الخطيب في مقطع الخطبة عن فضل شهر شعبان ،وبركته وكفى بذلك أن النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الَّذِي غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ،قَدْ كَانَ يَزِيدُ فِيهِ مِنَ الْعِبَادَةِ مَا لَا يَزِيدُهُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الشُّهُورِ لأَنَّ الْأَعْمَالَ تُرْفَعُ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي هَذَا الشَّهْرِ فَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ أَنْ يُرْفَعُ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ فِيهِ؛ ونجد الخطيب هنا قد تأثّر بحديث النّبي صلّى الله عليه وسلم فَقَدْ جَاءَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصُومُ شَهْرًا أَكْثَرَ مِنْ شَعْبَانَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ كُلَّهُ» [2] رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ. وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «مَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصُومُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ إِلَّا شَعْبَانَ وَرَمَضَانَ» [3] رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ .

وقد قامت خطب المواقيت على افتراض مسبق عام ، يتمثّل في أنّ الله عزّ وجلّ فضلّ الشّهور بعضها على بعض لحكمة أقرّها وأرادها ،وذلك لتحقيق الخير العظيم لعباده الطّائعين حين جعلها ميدانا يتسابق فيه المخلصون ؛لنيل المزيد من عطاياه تعالى نماء لصالح أعمالهم ونعمة منه تعالى وتفضّلا لعباده.

إنّ جملة الافتراضات المسبقة التي صاغها الخطيب ،والتي تخصّ الموضوعات الدّينيّة عكست لنا إخلاص الخطيب ،وورعه وتقواه ،وقد طبعت هذه الافتراضات المسبقة خطب الديوان بسمات واضحة ،وهي اعتماد الخطيب فيها على التّرغيب والترهيب إلى جانب بروز سمة التّكرار في المعاني ،والألفاظ فالكلام في ذمّ الدّنيا ،وذكر الموت والمعاد والوعظ والاعتبار ثمّ المواقيت التي بيّنت فضائل الشّهور ،ومناسباتها ليست جديدة عن الخطيب والناس ؛لأنّ هذه الأفكار مطروحة منذ أمد بعيد ،وللأنبياء والصالحين والوعّاظ والزّهاد فيها

---

[1]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 80

[2]-محمد بن إسماعيل البخاري أبو عبد الله، صحيح البخاري،ط1، دار ابن كثير - دمشق بيروت،2002م،ص473

[3]- الحافظ محمد بن عيسى بن سوره الترمذي ،سنن الترمذي،ط1، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع،الرياض، ص183

كلام كثير إلى جانب ما جاء في الكتب السّماوية ،والخطيب استلهم مواضيعها ومعانيها من كتاب الله تعالى ،وسنّة نبيّه ،ولعلّ هذا هو السّبب في قلّة الابتكار ،والابتداع عند الخطيب .

ثانيا : الاستلزام التّخاطبي في خطب الديوان :

2-1: مفهوم الاستلزام التخاطبي:

يعرّف الاستلزام التخاطبي ، بأنّه:« عمل المعنى أو لزوم شيء عن طريق قول شيء آخر»[1] ، أي هو مضمون تبلّغه الجملة بكيفيّة غير صريحة ،ويعني «أنّ المتكلّم يجعل سامعه يدرك من الدّلالة ما يفوق المعنى الحرفي للجملة»[2] على اعتبار أن اللّغة ممارسة تخاطبيّة تفاعليّة تقوم بين ذوات متكلّمة ،وأخرى مستمعة ،وهي ذوات محكومة بالانتماء إلى المجموعة اللّغوية نفسها ،ويتمّ التّبادل اللّغوي بينها عن طريق عبارات هي حصيلة لعلاقات التّفاعل الاجتماعي، فيكون بذلك « إنشاء الكلام من لدن المتكلّم ،وفهمه من لدن المخاطِب عمليّتين لا انفصال لإحداهما عن الأخرى ،وانفراد المتكلّم بالسّبق الزّمني كان ليلزم عنه انفراد بتكوين مضمون الكلام ؛بل ما أن يشرع المتكلّم في النّطق حتّى يقاسمه المخاطب دلالاته؛لأنّ هذه الدّلالات الخطابيّة لا تنزل على ألفاظها نزول المعنى على المفردات في المعجم ،وإنّما تنشأ ،وتتكاثر، وتتقلّب ، وتتعرّف من خلال العلاقة التخاطبيّة ، متّجهة شيئا فشيئا إلى تحصيل الاتّفاق عليها بين المتكلّم ،ونظيره المخاطب »[3] .

وهذا التّدرّج في الاتّفاق بين المتكلّم ،والمخاطب كان نقطة البدء عند الفيلسوف بول غرايس(GRICE)،والذي تبنّى واحدا من أهمّ المبادئ التداولية وهو :الاستلزام التّخاطبي ،وقد تعدّدت تسميات هذا المصطلح بين اللسانيين ،فمنهم من يسمّيه بالاستلزام الحواري أو التّخاطبي ،وبعض يطلق عليه الاقتضاء التّداولي ،ومنهم من يسمّيه بمبدأ التعاون معتمدا على ما أشار إليه غرايس ،ونشأت هذه النّظرية انطلاقا من تلك المحاضرات التي ألقاها بجامعة هارفارد عام 1967 في إطار بحث له بعنوان" المنطق والحوار" ،الذي حاول فيه

---

[1]-صلاح إسماعيل،نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس،الدار المصرية ، السعدية للطباعة والنشر والتوزيع،القاهرة 2005م، ص 16

[2]- جاك موشلر ، آن ريبول ،القاموس الموسوعي عن التداولية، ترجمة: مجموعة من الأساتذة والباحثين ، إشراف : عز الدين المجدوب ، مراجعة : خالد ميلاد ، المركز الوطني للترجمة ، تونس ،ص212

[3]- طه عبد الرحمن ،في أصول الحوار و تجديد علم الكلام ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ص 50

التّفريق بين ما يُقال ،وما يُقصد في الخطابات المختلفة فـ« النّاس في حواراتهم قد يقولون ما يقصدون ،وقد يقصدون أكثر مما يقولون ،وقد يقصدون عكس ما يقولون »[1]؛ فشكّل المعنى عند غرايس قطب الرّحى ،وشُغله الشّاغل فعمد جاهدا لـ«إيضاح الاختلاف بين ما يقال" what is said"، وما يقصد " what is meant " ، فما يقال هو ما تعنيه الكلمات والعبارات بقيمتها اللفظية " face values " ،وما يقصد هو ما يريد المتكلّم أن يبلّغه السّامع على نحو غير مباشر ،اعتمادا على أنّ السّامع قادر على أن يصل إلى مراد المتكلّم بما يتاح له من أعراف الاستعمال ،ووسائل الاستدلال فأراد أن يقيم معبّرا بين ما يحمل القول من معنى صريح" meaning xplicit "،وما يحمله من معنى متضمن inexplicit meaning»[2].

وقد استهلّ بول غرايس عمله التّنظيري لهذا المفهوم – الاستلزام الحواري – بالتّفريق بين نوعين من الدّلالة: الدّلالة الطبيعيّة ،والدّلالة غير الطبيعيّة ،إذ إنّ الدّلالة الطبيعيّة تُمثّل التّفسير، والبيان المأخوذ من إشارات الجملة ،وما ينتجه ذلك ،وهي« وُضعت في علاقة مع أعراضها ،ونتائجها »[3] ،فتصاعد الدّخان يدلّ على وجود النّار،والبثور الحمراء تدلّ على مرض الحصبة، فالدّلالة الطبيعيّة لكلتا الجملتين تحيلنا على المعنى الواقعي لهما ،والمجسّد في الإشارات الموجودة في التّركيبين(الدّخان، الحريق)(البثور، الحصبة)،والدّلالة غير طبيعيّة تعتمد أساسا على فهم قصد المرسل ،ونيّته لا على القول مجملا « فهي صلة قائمة بين محتويات يريد القائلون إبلاغها ،والجمل التي استعملوها لإبلاغها»[4] ،ونوضّح ذلك في قولنا:هذه الرّنات الثّلاث تعني أنّ الخزان ممتلئ ،وأن يقول خالد لعمر:إنّ غرفتك زريبة حيوانات ،فرنين الجرس ثلاث مرّات في الجملة الأولى كان بقصد لحمل النّاس على الاعتقاد أنّ الخزّان ممتلئ؛ لأنّهم يدركون القصد من الرّنات الثّلاث ،في حين أنّ قول خالد عمر مفاده أنّ غرفته وسخة ،وغير منظّمة، وقد وضّح "جرايس" الدّلالة غير الطبيعيّة بقوله :« أن

---

[1]– محمود أحمد نحلة ، أفاق جيدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 33

[2]–المرجع نفسه ، ص ن

[3]– آن روبول ، جاك موشلار،التداولية علم جديد في التواصل ،ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، ط1، دار الطليعة ، 2003م، ص53

[4]– المرجع نفسه ، ص ن

نقول أنّ القائل قصد شيئا ما من خلال جملة معيّنة، فذلك يعني أنّ هذا القائل كان ينوي وهو يتلفّظ بهذه الجملة إيقاع التّأثير في مخاطبه بفضل فهم هذا المخاطب لنيّته» [1]، فالقصد مسألة أساسيّة جعلها جرايس ،و«اعتبرها من الخصائص الأساسيّة للخطاب ،فكلّ حوار يتطلّب استحضار المقاصد حتّى يقوم تعاون بين المتحاورين ،ويفهم كل منهم الآخر ،وفي الوقت نفسه يتلاءم الملفوظ مع السياق» [2] ،كما «أنّ المقصد يقع في صميم شروط النّجاح وكذا في صميم القوّة المتضمّنة في القول ،وحتّى في مفهوم العمل ذاته ،وفي النّظريّة التّداولية للدّلالة» [3] ؛فاللّغة تدلّ في كثير من الأحيان على معاني صريحة ،وأخرى ضمنيّة تتحدّد دلالتها داخل السّياق الذي ترد فيه ؛لأنّ « للسّياق دورا فعّالا في تواصلية الخطاب وانسجامه بالأساس ،وما كان ممكنا أن يكون للخطاب معنى لولا الإلمام بسياقه» [4]،و«يقرّ غرايس بوجود طريقتين لتبليغ أكثر مما قيل:طريقة تواضعيّة تستدعي استلزاماً تواضعيّاً وطريقة محادثيّة (غير تواضعيّة) تستدعي استلزاماً محادثيّاً» [5] ،لذا يقسّم جرايس الاستلزام الحواري إلى قسمين اثنين هما:

أ/ استلزام عرفي(حرفي)،ويتمثّل فيما اصطلح عليه أصحاب اللّغة الواحدة «من استلزام بعض الألفاظ دلالات بعينها لا تنفّك عنها مهما اختلفت بها السّياقات،و تغيّرت التراكيب» [6] مثل "لكن" في العربيّة التي تستلزم أن يكون ما بعدها مخالفا لما يتوقّعه السّامع كقولنا : زيد غنيّ لكنّه بخيل.

ب/ استلزام حواري، و«هو متغيّر بتغيّر السّياقات التي يرد فيها» [7]، ولإيضاح الاستلزامين نصوغ المثال الآتي بين مرسل(أ) ومرسل إليه (ب) :

أ/هل الجو ممطر في الخارج؟ .

ب/ عليك بأخذ المظلّة ، وارتداء معطفك أيضا.

---

[1]– آن روبول ، جاك موشلار ،التداولية علم جديد في التواصل ، ص 53

[2]– العياشي أدراوي،الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ط1، منشورات الاختلاف الجزائر، 2011م،ص 100

[3]– فليب بلانشيه ، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة،ط1، دار الحوار السورية ص147

[4]– محمد الخطابي،لسانيات النص، ص56

[5]– آن روبول ، جاك موشلار ،التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص 56

[6]– محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص33

[7]– محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص33

فهذا التّركيب حامل لمعنيين اثنين في الآن نفسه فمعناها الحرفي هو المتضمّن نصيحة(ب) ل(أ) بضرورة أخذ المظلة ،وارتداء المعطف عند الخروج، أمّا المعنى المستلزم فهو الإجابة المتضمّنة للسّؤال المطروح(الجو ممطر خارجا) ، وبهذا التّقسيم حاول جرايس« أن يضع نحوا قائما على أسس تداوليّة للخطاب تأخذ بعين الاعتبار كلّ الأبعاد المؤسّسة لعمليّة التّخاطب ،فهو يؤكّد أنّ التّأويل الدّلالي للعبارات في اللغات الطبيعية أمر متعذر؛إذا نظر فيه فقط إلى الشّكل الظاهري لهذه العبارات»[1]،وما يميّز الاستلزام التّخاطبي عن بقية أنواع الاستلزامات ،أو متضمّنات القول خصائص يمكن إجمالها فيما يلي:[2]

*الاستلزام ممكن إلغاؤه ،ويكون بإضافة قول يسدّ الطّريق أمام الاستلزام ،أو يحول دونه.

* الاستلزام لا يقبل الانفصال عن المحتوى الدلالي، أي إنّ الاستلزام الحواري متّصل بالمعنى الدّلالي لما يقال، لا بالصيغة اللّغوية التي قيل فيها بها، فلا ينقطع مع استبدال مفردات أو عبارات بأخرى ترادفها.

* الاستلزام متغيّر، والمقصود بالتّغير أنّ التّعبير الواحد يمكن أن يؤدّي إلى استلزامات مختلفة في سياقات مختلفة .

* الاستلزام يمكن تقديره، والمراد به أنّ المخاطب يقوم بخطوات محسوبة يتّجه بها خطوة إلى الوصول إلى ما يستلزمه الكلام .

وهذه العمليّات الاستدلاليّة من أجل الوصول إلى المعنى المطلوب من الأمور التي تُركّز عليها التّداولية ،التي تعكف على« دراسة اللّغة بوصفها ظاهرة خطابية تواصليّة واجتماعيّة في نفس الوقت» [3]، فهي تولي أهميّة كبيرة لدور المخاطبين في أثناء العمليّة التواصليّة التي لا تبنى من فراغ ،بل تستند إلى خلفيّات بمثابة مبادئ ،ومعارف مشتركة بين المتحاورين المحكومين بضرورة إتباع قواعد ضمنيّة لازمة لفعّاليّة التّواصل ،الذي يتقاسم الأطراف فيه هدفا مشتركا؛ إذا انعدم لن ينجح التّواصل فقواعد الحوار تضمن لكلّ مشارك حقّه في التّعبير بكلّ حرّية من غير سلطة ، أو قهر، وهو ما دفع بجرايس إلى القول أن كل

[1]– العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ص 18/17

[2]– محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 38–39 ، كما يمكن الرجوع للمرجع نفسه للتوسع بأمثلة توضيحية عن كل خاصية من خواص الاستلزام الحواري ص38– 39

[3] –فليب بلانشيه،التداولية من أوستن إلى غوفمان ، ص19

حوار يقوم على مبدأ عام يخضع له كل المتحاورون ويوصف ظاهرة الاستلزام الحواري يسمّى بمبدأ التّعاون وفكرة هذا المبدأ «أنّ على أطراف الحوار أن تتعاون فيما بينها لتحصيل المطلوب بمعنى أنّه يوجب أن يتعاون المتكلّم ،والمخاطب على تحقيق الهدف من الحوار الذي دخلا فيه وقد يكون هذا الهدف محدّدا قبل دخولهما في الكلام ،أو يحصل تحديده أثناء هذا الكلام» [1]،فكان جرايس مشغولاً فيه ،إذ كيف يكون ممكناً أن يقول المتكلّم شيئاً،ويعني شيئاً آخر؟ ، ثم كيف يكون ممكناً أيضاً أن يسمع المخاطب شيئاً،ويفهم شيئاً آخر؟؛ لذلك سنّ هذا المبدأ (مبدأ التعاون) بين المتكلّم والمخاطب ،وهو مبدأ حواري عام مصوغ كالآتي: « ليكن إسهامك في الحوار بالقدر الذي يتطلّبه الحوار،وبما يتوافق مع الغرض المتعارف عليه،أو الاتّجاه الذي يجري فيه ذلك الحوار» [2] ، فهو إذن مبدأ اجتماعيّ يتحكّم في العلاقات الاجتماعيّة للمتكلّمين من خلال الاستعمال العرفي للّغة ،وأخلاقي لما يُوجِد من احترام وتداول بين المتحاورين،ومبدأ التّعاون عبارة عن قواعد قياسيّة يستنبط بها المعنى نتيجة لخرقها [3]« ففي الخروج على قواعد التخاطب (مبدأ التعاون)،وكسرها رغبة من المتكلّم في تضمين خطابه معنى إضافيّاً غير المعنى الذي تعبّر عنه الكلمات ،ورغبة في حثّ المخاطَب على ملاحظة ذلك المعنى الإضافي» [4]، ومن هنا لا يمكن اختزال القول بما قيل – بالدّلالة اللّغويّة فقط – وإنمّا يوجد فرق بين ما قيل ،وما يتمّ تبليغه ، فالدّلالة هي ما قيل والاستلزام التّخاطبي هو ما يتمّ تبليغه [5].

وقد وسّع جرايس مبدأ التّعاون الذي يحكم عمليّة التّخاطب إلى مجموعة من القواعد تسمّى بالقواعد التّخاطبية ، يرتكز عليها المرسل للتّعبير عن قصده مع ضمانه قدرة المرسل إليه على فهمه ،وتأويله ،و« إنّ هذه القواعد تستهدف من وجهة نظر كرايس مبتغا واحدا يتمثّل في ضبط مسار الحوار، بحيث يؤكّد على أنّ احترام هذه القواعد بالإضافة إلى المبدأ

[1]– العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ص 97

[2]– عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، ص96

[3]– ينظر:طه عبد الرحمن، أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص 104

[4]– كاظم جاسم منصور ،التداولية في الفكر النقدي،ط1،دار العرب للنشر و التوزيع، ص 80

[5]– ينظر: آن روبول ، جاك موشلار ،التداولية اليوم علم جديد في التواصل،ص 56

العام هو السّبيل الكفيل بجعلنا نبلغ مقاصدنا » [1]، وصنّف هذه القواعد تحت أربع مقولات هي: الكمّ(quantité)،الكيف(qualité)،الإضافة أو الملاءمة(relation)، الجهة أو الصّيغة (manner) ،وهذا بيانها : [2]

أ/ الكمّ: ويضمّ قاعدتين أساسيتين هما :

1- اجعل مساهمتك بقدر ما يتطلّب الأمر (الأغراض التّبادليّة الآنيّة).

2- لا تجعل مساهمتك إخباريّة بقدر يفوق المطلوب .

ب/ النّوع: حاول أن تجعل مساهمتك من النّوع الذي يوسم بالصّحة

ويستند إلى قاعدتين :

1- لا تقل ما تعتقده كذبا.

2- لا تقل شيئا يعوزه عندك دليل الكذب.

ج/ الإضافة أو الملائمة: كن وثيق الصّلة بالموضوع .

د/ الجهة أو الصيغة: كن واضحا،ويندرج تحتها ما يلي :

1- تجنّب استبهام التّعبير.

2- تجنّب الغموض.

3- كن موجزا (تجنّب الإطناب غير ضروري).

4- كن منتظما.

وبهذه المبادئ كان يرمي بأنّ الحوار بين البشر يجري على ضوابط ، وتحكمه قواعد يدركها كل من المخاطب والمتكلّم.

فحين يسأل زوج زوجته:أين مفاتيح السيارة؟ ، فتجيب : على المائدة .

ففي هذا الحوار تتمثّل مبادئ التّعاون التي قرّرها جرايس، فقد أجابت الزّوجة إجابة واضحة(الطريقة)، وكانت صادقة(الكيف)، واستخدمت القدر المطلوب من الكلمات دون تزّيد(الكم)، وأجابت إجابة ذات صلة وثيقة بسؤال زوجها(المناسبة)، لذلك لم يتولّد عن قولها أيّ استلزام، لأنها قالت ما تقصد [3].

---

[1]- العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ص 100

[2]- جورج يول،التداولية ، ص 68

[3]-ينظر: محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص35

فهذه المبادئ تعدّ بمثابة دعائم للحوار السّليم في شكله الطّبيعي، وبخرق إحدى هذه القواعد الأربع تحصل ظاهرة الاستلزام الحواري ،بل«إنّ النّظرية كلّها قائمة على ذلك،فانتهاك مبادئ الحوار هو الذي يولّد الاستلزام مع ملحظ شديد الأهمية هو الإخلاص لمبدأ التّعاون بمعنى أن المتكلّم حريصا على إبلاغ المخاطب معنى بعينه ،وأن يبذل المخاطب الجهد الواجب للوصول إلى المعنى الذي يريده المتكلّم ،وألّا يريد أحدهما خداع الآخر أو تضليله»[1]

وللسياق أثره في تحديد مواطن الخرق إذ «إنّنا حينما نقول بأن لإحدى الكلمات أكثر من معنى واحد في وقت واحد ، نكون ضحايا الانخداع إلى حد ما إذ لا يطفو في الشعور من المعاني المختلفة التي تدل عليها إحدى الكلمات إلا المعنى الذي يعينه سياق النص ، أما المعاني الأخرى فجميعها تنمحي و تتبدد و لا توجد إطلاقا»[2].

وقد جمد هذا المبدأ على النّظر في الجانب التّبليغي من التخاطب، الأمر الذي دفع بمن جاء بعد جرايس من الباحثين بالجمع بين الجانبين التّبليغي والتهذيبي ، فقدّموا أربعة مبادئ تداولية *، انبثقت جميعها من مبدأ التعاون ، الذي يعدّ بمثابة الرّكيزة ،والأساس الذي بُنيت عليه هذه المبادئ وقواعدها.

والمتكلّم في خطاباته ،ومن خلال هذا المبحث التداولي قد يحمل في مواقف عدّة إلى توجيه خطابه بطريقة غير مباشرة ،ويضمّنه أشياء خفيّة غير مصرّح بها، فيجبر السّامع على التّفكير في هذه الأشياء ، والكشف عن الكلام المتضمّن في القول الصّريح دون أن يفصح به هو الآخر عن طريق عمليّات استنتاجيّة تتحكّم فيها معطيات السّياق ،«فإذا وقعت هذه المخالفة فإنّ الإفادة في المخاطبة تنتقل من ظاهرها الصّريح ،والحقيقي إلى وجه غير

---

[1]– محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 35–36 كما يمكن الرجوع للمرجع نفسه للتوسع بأمثلة توضيحية عن خرق قواعد مبدأ التعاون ، ص 36–37

[2]– جوزيف فندريس ، اللغة ، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص ، مكتبة الأنجلو المصرية – مطبعة لجنة البيان العربي ، 2014م، ص 228

*المبادئ الأربعة هي" : مبدأ التأدب "ل" روبين لاكوف "، و"مبدأ التواجه واعتبار العمل "، وقد ورد هذا المبدأ في دراسات "براون "و"ليفنسن "، و "مبدأ التأدب الأقصى واعتبار العمل "، والذي أورده ليتش في كتابه "مبادئ التداوليات "، وإما " مبدأ التصديق "فجاء به الدكتور المغربي طه عبد الرحمن وهو مبدأ راسخ في التراث الإسلامي ومن صوره" مطابقة القول للفعل " وتصديق العمل للكلام . ينظر: طه عبد الرحمن،اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، ص 240–245

صريح ، وغير حقيقيّ ، فتكون المعاني المتناقلة بين المتخاطبين معاني ضمنيّة ومجازية» [1]

وأهمّ شيء يركّز عليه جرايس في مبدأ التّعاون هو قدرته على توجيه أفعال المتكلّم للدّلالة على قصده ؛لأنّ غاية ما يهمّ المتكلّم هو تحقيق هدفه من الخطاب ؛لأنّ« البحث عن قوانين الخطاب يعنى البحث عن إنجاح العمليّة التواصليّة بحيث كلّما احترمت هذه القوانين كلّما استطاع المشاركون الوصول إلى أغراضهم دون عوائق» [2] .

انتهاك قواعد التّعاون في خُطب ابن نُباتة :

2-1: خرق قاعدة الكم:

يعدّ مبدأ الكم «حدّاً دلاليّاً يقصد منه الحيلولة دون أن يزيد أو ينقص المتحاورون من مقدار الفائدة المطلوبة »[3] ؛أي أن يكون الكلام بالقدر الذي يوصل فكرة المتكلّم إلى المخاطب من دون زيادة يقصدها المتكلّم أو نقصان، فعمليّة التّعاون تكون بشكل أقلّ ممّا هي عليه في الخرق ؛لأنّ كلّ ما يريد المتكلّم إبلاغه عبّر عنه الملفوظ المخصّص له ،ودور المخاطب في هذه الحالة هو الاستماع ،وفهم الكلمات ،والجمل بحسب دلالتها الملفوظيّة وما توحي إليه من دون التّأمّل في دلالات باطنيّة يقصدها المتكلّم ،وبهذه الحالة يوجد استلزام أنموذجي ليس حواريا ؛لأنّه لم يخرق القاعدة أو غيرها فلا تعاون بين المتكلّم والمخاطب على فهم دلالات خاصّة بينهما،لذا فعندما ينتهك هذا المبدأ لغرض معيّن ينتج لنا استلزاما حواريّا بين المتكلّم ،والمخاطب كما فعل ابن نباتة في خطبه في مثل قوله: «**مَا للعيونِ مع الوعيدِ جامدةٌ ،ومَا للقُلُوب عن الآخرة راقدة ،وما للهِمم عن المعالي قاعدة ،وما للنفوس في الخيرات زاهدة** » [4] .

يتحدّث الخطيب ،ويصف لنا حالة الغفلة التي يعيشها متلقّيه (النّاس) ،ولكنّه لم يعبّر عن هذا القصد بصفة مباشرة لتعاون المخاطب معه في فهمه يظهر ذلك في المتواليات: **(ما للعيون مع الوعيد جامدة ،وما للقلوب عن الآخرة راقدة، وما للهمم عن المعالي قاعدة)**

---

[1]- طه عبد الرحمن ، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي ، ص 239

[2]- ذهبية حمو الحاج ، قوانين الخطاب في التواصل الخطابي، مجلة الخطاب، جامعة ملود معمري، تيزي وزو، العدد2 ماي2007، ص224

[3]- العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني ، ص 99

[4]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 60

فهذه المتواليات قد تجاوزت المعنى الحرفي الذي وضعت له في الأصل ؛لأنّ القصد الضّمني فيها هم المعاندون الغافلون الذين زاغوا عن الحقّ ،وانغمسوا في شهوات الدّنيا وظنّوا أنّهم مخلّدون فيها ،وهذا ما تشير إليه المتواليات السّابقة ،فالعيون ليست جامدة عن يوم القيامة ،ولكنّها تعبّر عن الغافل الذي يجتهد في تعمير الدّنيا الفانية ،ويعرض عن يوم القيامة ،فيكره لقاء الله ،ويوم الحساب ؛لأنّه لم يقدّم لنفسه شيئاً ،والقلوب ليست راقدة عن يوم الآخرة ،ولكنّها تعبّر عن حال الغافل الذي يعيشه ،فهو في سهو لاهي مشغول بزينة الدّنيا متّبع لهواه مفرّط في أمر دينه ومولاه ،والهمم ليست قاعدة ؛بل هي علامة من علامات الغفلة ،والغافلين بتكاسلهم عن الطّاعات ،وأداء الفروض الدّينية التي شرّعها الله تعالى فيتجلّى الخرق هاهنا في أنّ هذه المتواليات استلزمت معنى غير المعنى الذي وضعت له الملفوظات ذلك ؛لأن السّياق يفرض عليها دلالة تختلف عن ظاهر ما تحويه الملفوظات .

ومن هنا كانت كميّة المعلومات التي تحويها هذه المتواليات قد زادت على ما هو محدّد لها في هذا الوضع ،وبهذا فإن إسهام المتكلّم أصبح أكثر ،وبذا يكون قد خرق قاعدة الكمّ وساعده على ذلك وجود التّعاون بين المتكلّم والمخاطب ،وهذا الخرق مقصود ؛ كي يلفت انتباه المتلقي لما يستلزم كلامه ، وما يريد إيصاله فكلّما انتهك المخاطِب مبدأ من التّعاون دلّ على أنّه يضمّن خطابه شيئاً مالا يريد التصريح عنه ،لعذر ،وقهر ،أو غاية أكثر أهمية من مجرّد التصريح[1] ،وما يستلزم من هذا الانتهاك هو اتّعاظ الإنسان ،والتّنبّه لحاله والاستيقاظ من الغفلة التي وقع فيها ،نتيجة تعاظم الذنوب ،وكثرة الخطايا فبل أن يأتيه الموت الذي عبّر عنه بقوله : «**فهَل من مُقلِعٍ مُنيبٍ ،قبل حلول البليّة ،ونُزول الرَّزيّة ودبيب المنيّة في السُّبل الخَفيّة ،هُنالِك يعضُّ الظّالمُ على يَديهِ تَحَسُّرًا ،ويَجِد مَا جنَت نفسه عليه مسطّرا** » [2] .

فما أقرّه الخطيب هنا فيه دعوة إلى الإسراع ،والإقلاع عن الذّنوب قبل الرّحيل عن الحياة الدّنيا حينها لا ينفع الندم ،والتّحسّر ،ولكن هذا القصد لم يعبّر عنه الخطيب بشكل صريح وعوّل في ذلك على مخاطبِه ،وما يمتلكه من معلومات تؤهّله لأخذ المعنى الضمني الذي

[1]– ينظر: بهاء الدين محمد مزيد ،تبسيط التداولية (من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي)،ط1، دار شمش للنشر و التوزيع، القاهرة ، 2010م ،ص 48

[2]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 60–61

دلّت عليه المتواليات **(حلول البليّة ،نزول الرّزيّة ،ودبيب المنيّة)** فمن خلال السّياق الذي وردت فيه نجدها تدلّ على الموت الذي عبّر عنه الخطيب بتعبيرات مغايرة لتسميته الحقيقية –**(البليّة ،والرّزيّة،المنيّة)**– متجاوزا في ذلك الكم المطلوب في التّعبير ؛فهذا الكلام على كثرته قد أوصل للمخاطِب معلومة واحدة–الموت– أي أنّه دلّ على أقل مما ينبغي له أن يدلّ ،وبذا خرق قاعدة الكم هذا من جهة و من أخرى ساعده في ذلك وجود التّعاون بينه وبين المخاطب في فهم القصد ،وهنا يتجلى الخرق أيضا حينما عبّر عن هذا القصد –الموت– بغير ألفاظه ،وهو قصد خفيّ يعرفه المخاطب من خلال ما يمتلكه من معلومات جعلته متعاونا مع المتكلّم ،فاستعمل هذه الصّيغ في التّعبير عن مقصده ،ونجد خرقا أيضا لقاعدة الكم في عبارة **(هنالك يعضّ الظّالم على يديه)** إذ تجاوزت معناها الحرفي الذي يدل على أن هناك إنسان يعظ يديه ،فبالنّظر إلى السّياق الذي وردت فيه نجد القصد منها هو وصف لحالة ندم وأسف الظالم يوم القيامة ،بعد أن تُكتشف كل الأسرار،وتتبيّن الحقائق على ما فرّط في جنب الله ،وأوبق نفسه بملذّات الدّنيا.

ويتمثّل الخرق هنا في استعمال الملفوظ في معنى غير الذي وضع إليه ؛لذا أضفى عليها زيادة في الدّلالة المكتسبة من السياق الذي وردت فيه ،وعليه زاد المقصود على حساب الملفوظ ،وأصبح الإسهام أكثر ممّا عليه ،وممّا ساعد المتكلّم على استعمالها بهذه الطريقة هو وجود التّعاون بينه ،وبين المخاطب الذي يملك من الثّقافة ما يؤهّله لفهم قصد المتكلّم بقليل من التّفكّر ،والنّظر إلى المقام الذي قيلت فيه .

ومن خروقات مبدأ الكم أيضا قوله :«**عمَّ الفناءُ فمَا إلى البَقاءِ سَبيلٌ ،وتمّ القضاء فما لمُبرَمِه تَبديل ،ولطَم بحرُ الموت فحار فيه الدّليل ،وأمَّا اختطافُ النفوسِ فهو بهَلاكِهَا كَفيلُ ولو ردَع الموتُ شرف أصيل ،أو دفَع القدر قَدرٌ جَ لِلٌ ،أو مَنَعَ الحَذر وجهٌ جميلٌ ،لكانَ أوَّل ناجٍ بكَمالِه الرَّسُول** »[1] .

في هذا النّص من الخطبة يشير الخطيب إلى حتميّة الموت ،وقضيّة الخُلود ويُبيّن أنّ الموت لا مفرّ منه ،ويضرب لذلك المثل بسيّد الخلق أجمعين محمد صلّى الله عليه وسلم فبرغم ما سُخّر له من إمكانات عظيمة ،ولكنّها لم تدم له ، ويغدو واضحاً في نصّه إخباره

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ،ص 275

بأكثر من القدر المطلوب في حديثه عن الموت ،من بداية النّص حتّى نهايته ،وهو خرق بالزّيادة ،فالملفُوظات التي استخدمها الخطيب في نصّه :**(عمّ الفناء،تمّ القضاء،و لطم بحر الموت،اختطاف النّفوس)** ،يتّضح من خلال السّياق الذي وردت فيه أنّها تصبّ في معنى معنى واحد –الموت– هنا يتضح الخرق في أن هذه الملفوظات على كثرتها أعطت للمخاطبة معلومة واحدة ،ودلّت بذلك على أقلّ مما ينبغي لها تحقيق الفائدة ،وما يؤيّد قوله السّابق في حتمية الموت قوله : « **أينَ مَن كانَ قبلكم من القُرون ؟ ،أهلُ العزّ المَصُون الذينَ كانُوا أطوَلَ مِنكُم أَعمَارا ،وأكثرَ في الأرضِ آثَارًا ،قَصَفَت والله المُنون أعمَارهم ومحبَت الحوادثُ آثارهُم ،فأضحَوا رَمِيمًا تحتَ أَطبَاقِ الثَّرَى وعَادُوا رُفَاتا من طولِ البِلَى** »[1]

عمد خطيب في هذا النّص إلى نقل حال الأمم السّابقة ،وكذلك ماكانوا عليه آنذاك بصورة صادقة أمينة ،والمخاطَب لديه بعض المعلومات ،استنادا لما يراه من واقعه المعيش المعبّر عن حال الأمم ،وكيف زالت واندثرت ؛لذا افترض المتكلّم وجودها لدى مخاطِبِه موضّح ا لها وشارحا ومزيدا عليها ما يمكن له أن يزيده بما يناسب المخاطب ،والاستلزام الحواري يظهر في النّص من خلال تلك الملفوظات الدّالة على حال الأمم السابقة ،فهي على كثرتها أعطت المخاطِبَ معلومة واحدة ،وهي زوالها ،وأخذ العبرة من ذلك ،فكميّة الملفوظ أكثر من كميّة المقصود ،وبذلك تكون نسبة المعلومات المتحصِّل عليها قليلة ،وهذا خرق لقاعدة الكم لأنّ الكلام تجاوز الكم المطلوب للدلالة على المعنى ، والأمر نفسه نجده في خطبة يتحدّث فيها عن عيد الأضحى يقول فيها: «**ألا وإنَّ يومكُم هذا يومٌ شريفٌ ،شرَّفه الله ،وعظَّمَه وأوجبَ حَقَّه وحرَّمه ،وجَعَلَه عيدًا حرامًا ،في يومٍ حرامٍ ،مِن شَهرٍ حَرامٍ ،مُتقدّم لشهرٍ حرامٍ مُقتَفٍ لشهرٍ حَرامٍ من أيّام ،وشُهورٍ عِظامٍ مُباركات مفضّلات على الشّهور والأيّام**»[2]

يتحدّث الخطيب في هذا النّص عن عيد الأضحى المبارك ،وكيف أنّ الله تعالى شرَّفَه عن سائر الأيّام ،كيف لا وهو من أيّام الأشهر الحُرم التي ينال فيها المسلم الأجر الكبير وقد اعتمد في إنتاج خطابه على توظيف ما لدى المرسل إليه من معرفة بالعالم، ومنها معرفته الثقافية [3] ،فقد راعى ثقافة متلقّيه في صياغة الخطاب ؛لأنّ المخاطَب لديه بعض

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 273

[2]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 325

[3]– ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، ص 369

المعلومات عن ذلك ،لما ورد في القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ (التوبة: 36) ،وعندما راح الخطيب يعرّف بهذا اليوم الذي شرّفه الله ، كان بإمكانه أن يكتفي بقوله:**(جعله عيدا حراما)**، ولا يحتاج إلى تعداد اليوم والشّهر ،والشّهر الذي يسبقه ،والشهر الذي يتقّدمه والشّهر الذي يتبعه-(**يوم حرام،من شهر حرام، متقدّم لشهر حرام،مقتف لشهر حرام)** فهذا التّكرار الملفوظي ؛إنّما هو زيادة الكلام ؛وهنا يتبيّن الخرق من كثرة الملفوظات التي أدت إلى معلومات قليلة ،قياسا بما تحمله تلك الملفوظات ،وبهذا شكّلت خرقا لقاعدة الكم ،التي تستوجب أن يكون الكلام موافقا للمقاصد من دون زيادة أو نقصان.

2-2: خرق مبدأ الكيف :

وضعه غرايس في بناء الخطاب ليصل إلى مرحلة النّضج حسب رأيه ، وبهذا يقترب الكلام من الواقعية ،وينقل غرايس عبر هذه القواعد الكلام من حالته الصوتية إلى حالته الفعلية الحدثيّة التي تنجز فيها الأفعال على وفق سياقات محدّدة ،ومبدأ الكيف مبدأ يقصد به قول الصدق والحقيقة ، ومنع الكذب وادّعائه ، وعدم قول الباطل ، أو ذكر أي عبارة ليس عليها دليل يثبت صحتها[1] ،ويدلّ هذا الكلام على أنّ المتكلّم ملزم بقول ما يعتقد هو أنّه صادق ،وعليه أن يثبت ذلك من خلال الدّليل الذي يبيّن صحّة إدّعائه ،أما المخاطَب فدوره هنا تصديق ما يثبتُه المتكلم له بالدليل ،فالحوار يكون صادقا خاليا ممّا يشوبه ، وقد ذكر سبويه في كتابه ما يقارب هذا الباب في باب الاستقامة من الكلام والإحالة ، وقسّم الكلام على مستقيم ومحال من جهة ،وحسن ،وكذب وقبيح من جهة أخرى ،وأعطى له أمثلة تبيّن أنواع هذا الكلام وكل فرع منه [2] .

فالكلام إذن يجب أن يخلو من الكذب،وما لا يشتمل على ما يُؤيَّد صدقه ،وقد انتهك ابن نباتة مبدأ الكيف في مواضعَ من خطب ديوانه كقوله :«**حَاكِمُوا نُفوسَكم الظّالمَة إليها**

[1]-ينظر: العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني ، ص 99

[2]-ينظر : أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب كتاب سبويه،ط3، تحقيق :عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي ، القاهرة ،1988م، ج1، ص 25

وتحمَّلُوا بها في خَلاصِها عليها، وذَكِّرُوها أهوالَ مابين يديها ،واعلموا أنّ الموت معصوب برؤوسِكُم ،ومُنشِب مخالبَه في نفوسِكم » [1] .

يدعو الخطيب في نصّه مخاطبه إلى الإسراع في التّوبة والإقلاع عن المعاصي ،وذلك بمحاسبة النّفس ،ومحاكمتِها لتطهيرها من درن الذّنوب ،وذلك قبل أن يهتف الموت ويقبضها على حين غرّة،وتتمثل خرق قاعدة الكيف في قوله:**(حاكموا نفوسكم الظالمة)** ،وقوله:**(الموت معصوب برؤوسكم ومنشب مخالبه في نفوسكم)** ؛إذ أنّ المتكلّم جعل إسهامه على وفق ما يتطلّبه كل موضوع ضمنا لا ظاهرا ، فظاهر الكلام هنا يدلّ على المبالغة فهذه الملفوظات إذ ما أخذت على وفق ما تدلّ عليه ،فإنّ الكلام سيكون فاقدا للدّليل ،ويشير إلى الكذب ؛لأنّ المحاكمة عادة ما تكون لشخص مذنب ارتكب ذنبا يحاسب عليه ،وليست للنفس التي هي شيء معنوي ،ولا يعقل أيضا أن يكون الموت عمامة يعصب بها الرّأس ،أو حيوانا مفترسا ينشب مخالبه ، كلّ هذا يدلّ على أنّ هذه الدّلالات غير مقصودة ؛إذ لا دليل عليها ظاهر ،والخرق يظهر في هذه الملفوظات حينما خرجت عن قصدها الظّاهر إلى قصد آخر ضمني فرضه السّياق الذي وردت فيه «والسّياق هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الرّغم من المعاني المتنوّعة التي من وسعها أن تدلّ عليه» [2]، ففي هذا النّص لا يمكن أن تدلّ على ما وضعت له في الأصل ؛بل لا بدّ لها من دلالة جديدة تقترب من الأصل فخرجت من الوضع إلى الاستعمال ،وما ساعَد على هذا وجود التّعاون بين الخطيب ومخاطبه الذي فهم قصده.

يقول الخطيب متعجّبا :«**مَن أسوءُ حَالًا ممَّن استعبَدَهُ هَواه ، أَم مَن أَخسَرُ صَفقَةً ممّن بَاعَ آخِرتَه بدُنيَاه ،فمَا للغَفلَة قد شَمِلَت قُلُوبَكُم ،ومَا للغَيرَة قد سترَت عنكُم عُيُوبكُم ،ومَا للطَّمعِ قد صَغَّرَ عِندَكُم ذُنُوبكُم ،ومَا للأَمَلِ قد مَلَكَ شُبَّانكُم وشَيبكُم** »[3].

في هذا النّص يتعجّب الخطيب من الإنسان الذي صار عبدا لشهواته ،ونسِي آخرتَه حينما استأثر الدّنيا عليها ،وذلك عندما اسحوذت الغفلة على قلبه ،واتّخَذَ مِنَ الغَيرة لِباسًا يتستّر به عن غلطاته ،واستصغر ذُنوبَه بالطّمع ،وطول الأمل في العيش الطويل ،وهذا

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، 155–156

[2]– جوزيف فندريس ، اللغة ، ص 231

[3]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 146–147

التّعجّب في حقيقته هو وصف لحالة مجتمعه ،اللّاهي في زينة الحياة الدنيا ،الواقع في براثين الغفلة المقيد بقُيُودِهَا، لا يُحِسَّ بِذَلِكَ وَلا يَشعُرَ، وفي هذا الوصف خرق الخطيب قاعدة الكيف في المتواليات التي تحتها سطر في النّص حينما جعل من هوى النّفس ديانة تستعبد ومن الدّنيا والآخرة بضاعة تباع وتشترى ،ومن الغفلة إنسانا مالكا ،أمّا الغيرة فثوب يلبس ليستر العيوب ،والطّمع والأمل إنسانا يتحكّم ويملك فيكون الخطيب بذلك قد نقل الأمور المعنويّة إلى المادية ،وشبّهها بما هو ملموس مع العلم أنّها أمور لا يمكن أن تكون حِسيّة وبإعطاء الخطيب هذه الملفوظات دلالات أخر زيادة على دلالتها الوضعيّة أصبح كلامه أقرب إلى الخيال فاقدا للدّليل ،وهنا يكمن الخرق، لكن عند النظر إلى سياق ورودها نجد هذه الملفوظات استعملت لغير ما وضعت له، وهذا الخروج جعلها تشابه ملفوظات أخر في الدلالة على مقاصد المتكلم ،وأكثر من ذلك ،وكان للسّياق وظيفته في تحديد تلك الدّلالة الجديدة ،وكذلك للأعراف اللّغوية الأثر الحاسم في قبول هذه الانزياحات ،فالمخاطَب جزء من نظام إجباري هو النّظام اللغوي ،وهذا ما سمح للمتكلّم باستعمال هذه الملفوظات لتدلّ على ذلك ؛إذ إنّ وجود التّعاون بينهما أعطى للمتكلم الحريّة في التّعبير ،واختيار ما يراه موافقا لمقتضى الحال.

أمّا في قوله:«**أُوصِيكُم–عبادَ الله– وإيَّايَ بِتَقوَى الله ،فإنَّهَا عُروةٌ مَا لَها انفص امٌ ،وقُدوَةٌ يأتمُّ بها الكِرام ،وجِذوةٌ تُضِيءُ بِها الإفهامُ ،مَن تعلَّق بِحَبلِهَا حَمَتهُ مَحذُور العَاقِبةِ ،ومَنْ تحقَّقَ بِحَملِها وَقتْهُ شُرُور كلَّ نَائِبةٍ**» [1].

فالخطيب يتحدّث عن أهميّة التّقوى ،وأثر الالتزام بها ،ولكن في حديثه عنها انتهك الخطيب مبدأ الكيف ؛لأنّها في الحقيقة ليست شعلة نار تستضيء بها الأفكار ،ولا حبل نجاة لكلّ من تعلّق بها ،ولا حتّى حِرزا يُبعِد الشُّرورَ ،والمَصَائِب ،والخَطِيب يعلم عدم صِدق هذا الوصف بمعناه الحقيقي،إلاّ أنّه أراد المجاز ،وعليه يتّضح الخرق لقاعدة الكيف هنا في نقل دلالة الملفوظ من ظاهرها الذي وضعت له إلى دلالات أخر،فظاهر هذه الملفوظات يدلّ على أنّ المتكلّم ابتعد عن الصّدق ،وأنّه قال ما لا يُوجد لديه دليل عليه ،فيكون الكلام خاليا من الصّدق والدليل ،ولكن هناك خلف هذه الملفوظات مقصد خفيّ ،وهو ما أراده المتكلّم

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 105–106

وفهمه المخاطب ،وهو أهمية تقوى الله في حياة الإنسان وعن ذلك يقول أيضا: **«حَمت التّقوى حُلفائَها من الآفاتِ ،ورَمت الدّنيا أبناءَها مراميَ الهَلكَات ،وسدَّدت المُنُون إلى نفوسكُم ببهامَها القَاتِلاتِ ،وأَنتم رَاقدُون في مراقد الغَفَلات ،مقتنصُون بحبائل الشَّهوَات كأنّكم لا تسلكون سبل الآباء والأمّهات»** [1] .

يتمثّل خرق مبدأ الكيف في هذا النّص في قوله : **(حمت التّقوى حلفائها)** ،وفي قوله: **(ورمت الدّنيا أبناءها)** ،وكذا قوله: **(سدّدت المنون إلى نفوسكم)** ؛حيث أنّه جعل من التّقوى هيئة تحمي كلّ من اتخذها حليفا ،وهو ما دلّ عليه الفعل (حمت) ، فظاهر المعنى يدلّ على أنّ الحماية تحتاج إلى فاعل عاقل يقوم به ،وغالبا ما يكون من أفعال الإنسان، لكن عند النّظر إلى سياق الكلام نجد أن الفعل أُسند إلى التّقوى ،وبهذا يكون المعنى مختلف فقد أضفى على التّقوى صفات العاقل وشبّهها بالإنسان ،والشّيء نفسه عندما جعل من الدّنيا شخصا يرمي ،والمنيّة رامي يسدّد فالرّماية ،والتّسديد هي من أفعال الإنسان كما دلّ عليه المعنى الظّاهري ،وليس للدّنيا ،ولا المنيّة ،وبهذا يكون المعنى مضطربا خاليا من الدّليل أي أنّه يميل إلى الكذب ،وتجلّى الخرق هنا في خروج الملفوظات من الدّلالة التي وُضع لها إلى دلالة جديدة فرضها عليها السّياق الذي وردت فيه ،إذ يظهر المعنى الحرفي لهذه الملفوظات فيجعل المتكلّم في موضع الكذب أو الافتقار إلى الدّليل ،وعليه اختلفت المعلومات التي تحملها تلك الملفوظات ،ممّا جعلها تؤدّي إسهاما أكثر للمتكلم في عملية التّخاطب ،وأوصل مقاصده إلى المخاطب الذي فهمها من خلال ما لديه من معلومات سابقة تمكّنه من ذلك والمخاطِب لا ينتج خطابه عبثاً ،وإنّما ينتجه لتحقيق غاية وهدف معين[2] ،ومن هنا فهو يقصد من هذا الخرق: الالتزام بتعاليم الدين الإسلامي ففيها منجاة ،وعدم جعل الدنيا أكبر همّ في الحياة مع التّسليم بالرّحيل عنها ،وإعداد العدة لذلك.

يقول الخطيب عن الدّنيا : « **مَن ذا وثِق بها فلم تَخنه ،أم من ذا اعتزّ بها فلم تُهِنهُ بقاؤُها معدومٌ ،وفناؤُها محتومٌ ،وسائلُها محرومٌ ،ونائلُها مسمومٌ»** [3].

يصوّر الخطيب حال الإنسان الذي وثق بالدّنيا وزينتها حتى امتلكت قلبه فاتّخذها رفيقا

---

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 370

[2]– ينظر : عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، ص 149

[3]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 95

وكيف خدعته ، وأهانته بعدما أعزّها ،وجعلها شغله الشاغل ، ويتّضِح الاستلزام الحواري في هذا النّص من خلال جهات التّخاطب المتوافرة ،ووجود التّعاون بين المتكلم ،والمخاطب ويظهر جليّا في استعمال المتكلّم بعض الملفوظات التي تمثّل خرقا لمبدأ التّعاون لإيصال مقاصده ،فالخرق هنا في الوصف الذي جعل من الدّنيا إنسانا يخون ويهين ،وهذا خروج من المألوف المتواضع عليه للألفاظ التي تدلّ على معان ثابتة ؛لأنّ صفة الخيانة والإهانة هي من فعل الإنسان ،وقد نَسبَها الخطيب إلى الدّنيا ،وهذا غير صحيح ،والكلام هنا يدلّ ظاهرا على اقترابه من الكذب ،وهذا هو خرق لقاعدة الكيف التي تشترط الصدق ،إلّا أنّ هذه الملفوظات دلّت على غير ما وضعت له ،وبهذا تغيّرت دلالة اللّفظ إلى دلالة جديدة يحكمها السّياق الذي يرد فيه ،والمقام الذي قيلت لأجله ،فكان للسّياق هنا أثر بارز في فهم الخطاب.

2-3: خرق مبدأ العلاقة أو المناسبة:

إنّ مبدأ العلاقة عبارة عن مراعاة المقال للمقام ،أي ملاحظة المناسبة بينهما ، التي هي «بمثابة حدّ مقصدي ، الهدف منها منع المتكلّم من أنْ ينزلق إلى مقاصد أخرى مخالفة لتلك التي استهدفها الخطاب ، أي يراعي علاقة المقال للمقام»[1] ،وهذا يجعل هذه القاعدة تتخذ مجالا محدّدا في الخطاب ،الذي يكون الكلام فيه مناسبا للموضوع المُتَكلَّم فيه ،فهي ترتبط بالحدث الذي كان سببا في إنتاجه ،«ويقترح سبربر وولسن أن يحكم السّعي إلى المناسبة اشتغال النظام المركزي ،وأن يوظّف في انتقاء المعلومات التي تعدّ- مهما كان مصدرها-جزءا من السّياق عند تأويل قول ما ،وبعبارة أخرى، إن المعلومات المتوافرة في السّياق هي المعلومات التي لها حظ أوفر في التوصل إلى نتائج كافية للحكم على قول ،بأنّه مناسب»[2] ،وهذا يعني أن تكون المناسبة مركزيّة تشمل الخطاب بأكمله لا جزءا منه ،وكذلك ما يحكم هذا السّياق ،ويكون للسّياق الكشف عن المقاصد بصورة عامة ،والخروج عن المناسبة يتمثّل في خروج النص عن مناسبة الكلام ،أي أنّ المتكلّم يتكلّم عن موضوع ما ثمّ يخرج عنه لموضوع آخر له يكون له صلة بالموضوع الأول ،وللسّياق هنا أثره في بيان الخرق ؛لأنّ السّياق هو البيئة اللغوية التي تحيط بالكلمة أو العبارة أو الجملة ،ويدخل أيضا

[1]- العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني ، ص 99

[2]- آن روبول ، جاك موشلار ،التداولية اليوم علم جديد في التواصل ، 87

السّياق الاجتماعي ،وسياق الموقف ،وهو المقام الذي يقال فيه الكلام بجميع عناصره ،من متكلّم ،ومستمع ،وغير ذلك من الظروف المحيطة ،والمناسبة التي قيل فيها الكلام[1] .

وقد وردت في خطب ابن نباتة بعض النّصوص التي خرقت قاعدة المناسبة ،ويتضح هذا الخرق من خلال سياق الخطبة ،ومناسبتها ،وعنوانها الأساس ،وموازنة ذلك مع محتوى النّص ،ومن هذه النّصوص خطبة له عن الموت يقول فيها :« **وأينَ المفرُّ مَن ثَقُلَ في القِيامةِ حِمله ،إذا تَقاذَفت الأرضُ بصُمٍّ جِبالِها ،وشَيَّب العرضُ رُؤُوس أطفالِها ،وتزَاحَمت الأممُ بَارِكةً لِجدَالِها ،وعَيَّت الأَلسُن جَوابًا عن سُؤالِها ،وبَرزَت جَهنَّم بسِلاسِلِهَا ،وأنكَالِها وطمَّت الطّامةُ بعَجائبِها ،وأَهوالِها**»[2] .

يظهر الاستلزام الحواري في هذا النّص بخرق قاعدة المناسبة ؛لأنّ سياق الخطبة يتحدّث فيه الخطيب عن الموت ،وكيف يأخذ الإنسان على حين غرّة ،وهذا النّص يتحدّث عن أهوال يوم القيامة ،فحينما راح الخطيب يعدّد علامات هول هذا اليوم العظيم ،ذي الخطب الجسيم خرج الخطاب عن الموضوع الأساس للخطبة إلى موضوع آخر ثانوي لا علاقة له به فالخطيب خرج عن مناسبة كلامه ،وموضوعها ليبيّن أمرا ثانيا حينما وصف مشاهد يوم الحِساب الذي تُخرج فيه الأرض ما فيها ،وتُنسف فيه الجبال ،ويشيب فيه رؤوس الصّغار ويرجع فيه النّاس لربّ العالمين لسؤالهم على ما اجترحوه في حياتهم الدّنيا فعبّر الخطيب بهذا النّص عن أمر غيبيّ واجب التّسليم به لأنّه مأخوذ من كتاب الله تعالى – ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١﴾ (الحج: 1)– لكن القصد الضّمني لهذا النص يشير إلى وجود ترابط بينه بين سياق الخطبة ،وهذا يبيّن أنّ الإمام خرج عن الموضوع بشكل جزئي ،والسّبب في ذلك هو للفتِ انتباه المخاطب إلى هذه المسألة ويتجلى الخرق هنا في أن ظاهر النّص لا علاقة له بموضوع الخطبة ومضمونها ، وكأن هذا النص خارج عنها و ،منفصل أو إنّه من خطبة أخرى مستقلّة عنها ،لكن القصد الضمني لهذا النّص يشير إلى وجود ترابط بينه ،وبين سياق الخطبة ،ومن هنا صار للنّص قصدان

[1]– ينظر : فايز الداية، علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق(دراسة تأريخية تأصيلية نقدية)،دار الفكر المعاصر ،بيروت، دار الفكر المعاصر ، دمشق ،1996م، ص 111

[2]– ديوان خطب ابن نباتة ،ص 216

ظاهر: وهو التّهويل من أمر يوم القيامة من خلال ذلك الانقلاب الكوني الذي لا يبقى شيء فيه على حاله ،وهذا يشير إلى أنّه لا علاقة له بموضوع الخطبة العام،والآخر:ضمني هو علاقة الموت بهذا اليوم الذي تحاسب فيه النّفوس بعد موتها على أعمالهم الدنيوية وللمخاطب أن يفهم مقاصد الخطيب في كلا القصدين.

ومن النّصوص التي خرجت عن مناسبة الكلام قول الخطيب في خطبة يذكر فيها بدخول شهر شعبان: «**واعلموا أنّ وراءكُم طَالِبًا لا يغفل ،وسَالبًا لا يمهل ،ونارًا تلفحُ ،وقَّضاء فَصلًا ،وحُكمًا عدلاً ،وكِتابًا لا يغادر صغيرة ،ولا كبيرة إلّا أحصاها ،ودَيّانًا لا يدع ظُلامة إلّا ردّها واستقصاها**» [1] .

يتبيّن الاستلزام الحواري في النص بخروج الخطيب عن المناسبة ،والموضوع الذي وضعت لأجله الخطبة ،وهو تبيان فضل شهر شعبان، ولكن مادلّ عليه ظاهر النص هو بمثابة تذكرة من الخطيب لمتلقيه الذي يعيش حالة سهو ،يذكّره فيها بالموت والجزاء وبالكتاب الذي تسجّل فيه أعماله ليحاسبه الله عزّ وجلّ عليها.

ويتجلى لنا الخرق هنا في خروج النص عن سياق الخطبة ،وموضوعها إلى قصد آخر وهو الوعظ والاعتبار فالخطبة هي لبيان منزلة أحد المناسبات الدّينية عند الله عزّ وجلّ وهو شهر شعبان ؛لذا كان ينبغي على الخطيب الالتزام بتوضيح ذلك ،والكلام عليه فقط إلّا أنّ وجود التّعاون بينه ،وبين المخاطب جعل الخطيب يخرج عن سياق الخطبة ،ليقدّم موعظة لمخاطبه الذي يعيش حالة من الغفلة ،إلّا أن في هذا النص قصد ضمني ،وهو أنّ الله سبحانه وتعالى جعل للمؤمن في حياته أوقانا وجب عليه اغتنامها ،فالخروج عن مناسبة الكلام هنا جاء لفائدة ،وهو خروج في ظاهره واضح ،إلّا أنّه عند النّظر فيه بإمعان يتبيّن لنا فضل هذا الشّهر ،وذلك ببذل المزيد من الطّاعات فيه لمضاعفة الأجر والثواب ،وحتّى يجازى المسلم في النهاية بعد موته الجزاء الحسن،وما تذكرة الخطيب في هذا النّص إلّا حافز لكل ذلك،وبذا يكون فيه ربط بين أصل موضوع الخطبة ،وما يحويه هذا النّص من قصد ضمني ،ويكون هنا النّص جزءا من الخطبة ،وليس بعيدا عنها كما هو في ظاهر النص .

ومن النّصوص التي خرج فيها الخطيب عن المناسبة خطبة له عن عيد الفطر يقول

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 80

فيها: « **الله أكبرُ الله أكبرُ ،واجتَنبُوا الخَمرَ ،فإنّها أوبَق مصائدِ الشّيطانِ ،ورأسُ الإثمُ والعدوان ،ومِفتاح الفُسوقِ والعِصيانِ ،وأَعطَب موارِد الإنسان تُزيلُ مَا أَلبسكُم الله بَهجَتهُ ،وأَلزَمكُم بكُم حُجّته ،وسلَك بكُم محجَّته مِن العَقل الذي من عَدِمهُ بهِم ،ومَن لزِمه عَلِم ،ومَن إئتَمَّه سلم**» [1].

يتبيّن الاستلزام الحواري هنا في خرق قاعدة المناسبة ،فالكلام في الخطبة على وجه العموم هو عن عيد الفطر ،والشّعائر الدّينية التي تصاحبه ،ويقوم بها المسلم في هذا اليوم المبارك ،ولكنّ الحديث في هذا النّص هو عن الخمرة ،ومفاسدها العظيمة ،والنّص هنا لا يتوافق مع موضوع الخطبة ،ذلك أنّ الخطيب ابتعد عن محور الحديث في هذه الخطبة لكنه اتّخذ هذا الخروج لوجود التّعاون بينه ،وبين المخاطب الذي كان على علم ببعض الأمور ،فالتّعاون هو الذي جعل الخطيب يخرج عن موضوع الخطبة إلى موضوع آخر وصف فيه الخطيب الخمرة بأدقّ الأوصاف فهي أمّ الخبائث ورجسٌ نجس من تسويل الشّيطان ،وتزيينه ،وهي كذلك سبب للغفلة عن ذكر الله ،وارتكاب الفواحش والمنكرات كما أنّها تهلك الأنفسَ وتعطل العقولَ التي هي زينة المرء ،ولذلك أمر الخطيب متلقّيه باجتنابها وبهذا يكون الغرض من هذا النص توجيهيّا ،وإذا نظرنا إلى الخطبة نراها على الرغم من أنّها تتحدّث عن مناسبة العيد كان غرضها من ذلك توجيهيّا تعليميّا من خلال تقديم الخطيب توجيهات تعليميّة لمخاطبه ،وتخصّ ما يجب فعله ،واجتنابه في هذا اليوم، وبذا يكون النّص هنا يتعلّق بموضوع الخطبة الجزئي ،وليس العام.

ومن النّصوص التي خرج فيها الخطيب عن المناسبة خطبة له في كسوف الشمس يقول: «**فأينَ أنتُم عنها إذَا ردَّها الله على عَقِبِهَا ،وأدارَها بخِلافِ دُورِ قُطبِها ،وسَيَّرهَا في غير مذهبِها ،حتَّى يَردَّها طَالِعةً عَليكُم مِن مَغرِبها ،فعِندَها تُغلَق أَبوابُ التّوبَة لطَالِبها تتعذّر أَسباب الأوبَة لِخاطِبها** »[2].

يظهر الاستلزام الحواري في الخرق الذي يمثّله هذا النّص لقاعدة المناسبة ،إذ أنّ مسار الخُطبة هو في وصف قدرة الله عزّ وجلّ من خلال ظاهرة طبيعيّة ،وهي كسوف الشّمس

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 322

[2]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 345

وعلى هذا أغلب محاور الخطبة ،لكن هذا النّص خرج عن مناسبة الخطبة ،وموضوعها إلى أحد الأمور الغيبيّة ،التي هي من علامات قيام السّاعة ،متمثّلة في شروق الشّمس من مغربها حينها يغلق باب التّوبة للعاصين ،ولا يقبل إيمان الكفار ،والمخاطب هنا مسلّم بها باعتباره مؤمنا بما ذُكر في القرآن الكريم من علامات قيام الساعة: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٥٨﴾ -(الانعام:158)- ،فما أقرّه الخطيب في هذا النّص يمثّل خروجا عن مناسبة الكلام ،لكن هناك ترابط بين النّص والخطبة ؛لأنّ الخطيب جعل من الشّمس آية من آيات قدرة الله في الكون سواء في حديثه عن وصف كسوفها كظاهرة الطبيعية ،أو في اعتباره شروقها من المغرب إمارة من إمارات قيام السّاعة ؛إذ أراد الخطيب من خلال ذلك أن يبيّن للمخاطب قدرة الله سبحانه المتجلية في خلقه ،وترغيب المخاطب بالدّار الآخرة وحثّه على نيل رضوان الله وجنّته.

2-4: خرق مبدأ الخبر أوالطريقة:

إنّ الهدف من صياغة هذه القاعدة هو ؛ أن يتجنّب المتكلّم اللبس ،والملل والإيجاز المخل في خطابه [1] ،وهذا يشير إلى أن يكون الكلام طبيعيا سهلا لا تعب في فهم مقاصده إذ أنّ كلّ مقاصده واضحة جليّة للمخاطب، ويكون المخاطَب هنا سلبيّا إذ لا مجال للكشف عن إبداع المتكلّم أو عرض معلوماته ،لأنّ هذه المعلومات تكون خالية من أيّ غرض فنّي أو أدبي ،ولابد للمتكلّم من أن يخرق هذه القاعدة في كلامه ،ليكون كلامه على وفق ما يراه غرايس ،وقد يقدم المخاطِب على خرق هذه القاعدة قاصداً ؛ لغايات معينة ،ومن أمثلة خرقه لهذا المبدأ ما يأتي قوله : «**أقلِعوا عن الذُّنُوب قبل أن تُقلَعوا ،وارجعوا عن الحوبِ قبل أن ترجعوا ،وتمتّعوا بالعمل الصّالح قبل أن تُمنعوا ،فقد أتاحَ اللهُ لكُم شهورَ التّجارة الرَّابِحَة فَتَاجِروه ،وأنذَركُم شدّةَ بأسِه فَحَاذِرُوه**» [2] .

---

[1]-ينظر: العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني ، ص 100

[2]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 79-80

في هذا النّص يدعو الخطيب متلقّيه إلى أن يبتعد عن المعاصي المجلبة للذّنوب ،قبل أن يرحل عن الدّنيا ،وأن يرجع عن الآثام ،ويغتنم وقته بعمل الصّالحات ،وقد أخبره أنّ الله عزّ وجلّ ،قد أعطى للمؤمن فرصا تضاعف فيها الحسنات في قوله:(**فقد أتاح الله لكم شهور التجارة الرابحة فتاجروه)** ،والخطيب في إقراره لذلك قد خرق مبدأ الطريقة بعدم اجتناب اللّبس لأنّ الكلام عن هذه الشهور يحتاج لتوضيح عن سبب تميّزها وتفردها عن سائر شهور السّنة الأخرى فكلامه لم يكن واضحًا معبّرا عن الحال .

ومن النّصوص أيضا التي تمثّل خرق قاعدة الطّريقة قوله في خطبة له في عيد الفطر: «**الله أكبرُ الله أكبرُ ،وأخرِجُوا مِن خَالِص أموالكم الفِطرَة ،فإنَّها تَمامُ صِيامكُم ،وطُهرَة لأبدانِكُم عن كلّ واحد من عِيالكُم ، صغيرٍ أو كبيرٍ، فطيمٍ أو رَضِيعٍ ،ذَكَرٍ أو أُنثى ،حرّ أوعبد ،صَاعاً من بُرٍّ ،أو صَاعًا من شَعيرٍ ،أو صَاعًا من تَمرٍ ،أو صَاعًا من زَبيبٍ أو صَاعًا من ذُرَة ،أو صَاعًا من أَقَطٍ ،تقرَّبا إلى الله ربّكم ، فإنّ الله شاكر يحبّ الشَّاكِرين ولا يُضَيِّعُ أجرَ المُحسِنين**» [1] .

هذا النّص يتحدّث فيه الخطيب عن فريضة إسلامية ،سنّها الله عزّ وجلّ ألا وهي زكاة الفطر التي شرّعها الله للصّائمين تطهيرًا للنّفس من أدران الشحّ، وتطهيرًا للصّائم ممّا قد يؤثّر فيه ،وينقص ثوابه من اللّغو والرّفث ،ومواساة للفقراء والمساكين ،وإظهارًا لشكر نعمة الله تعالى على العبد بإتمام صيام شهر رمضان وقيامه ،وفعل ما تيسّر من الأعمال الصّالحة فيه ، ولكن عند حديثه عن الفئات المعنيّة الواجب إخراج الزّكاة عليها ،وكذلك عند تحديد المقدار الواجب إخراجه من قبل المسلم ، خرق الخطيب مبدأ الطّريقة ،فكلامه لم يكن موجزا عمد فيه إلى التّفصيل حينما راح يعدّد الأفراد المعنيّين بإخراج الزكاة عنهم :**(صغير أو كبير فطيم أو رضيع ذكر أو أنثى ،حرّ أو عبد)** ،وعندما راح يذكر الأصناف التي يمكن أن يخرجها المسلم لزكاة الفطر ،والمقدّرة بصاع من كل صنف **(صاعا من بر أو صاعا من شعير أو صاعا من تمر أو صاعا من زبيب ، أو صاعا من ذرة أو صاعا من أقط)** وهذا التفصيل في الخطاب تبين من خلال زيادة ألفاظه.

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 322

*الخطب الثواني وتسمى النعت وهي التي تصلح أن تكون خطبة ثانية من خطب الجمعة.

أمّا في قوله: «**كلاّ لَتَردُّنّ الصَّمَّةَ الصَّمَّاء ،والدّاهية الدّهياء ،المُكفهِرّة الشّنعاء المُدلهمة السّوداء ،التي لا يُنادى وَليدُها ،ولا تَكذب شُهودُها ،فَكأنَّكم بالسَّاعة قد رجف زلزالها ،واشمَخرَّ وَبالُها ،واقمطرّ نِكالُها ،وتَرادَفت أهوالُها ،وتحقّقت أوجالُها ،وكَشَف العَيانُ أحوَالَها**»[1].

يصف الخطيب في هذا النّص أهوال يوم القيامة والنّار ،والذي استخدم فيها الخطيب ألفاظ مفخمة تعبّر عن أمرها المهول فهي تهول السّمع ،وتسيل الدّمع ،وتقشعرّ لها الجلود وتنفطر لها الكبود ،ولا يليق بأوصاف يوم القيامة ،والنار غير هذه الألفاظ مثل:(**الصّمّة الدّاهية،المكفهرّة،المدلهمة ،اشمخرّ،اقمطرّ،ترادفت،أوجالها)** ،وما استخدام الخطيب لهذه الألفاظ إلّا لدعوة مخاطبه ،وتنبيهه لهول هذا الخطب العظيم ،ويتّضح الاستلزام الحواري في النّص من خلال خرق قاعدة الأسلوب ،من جانب الإبهام والغموض من خلال تلك الألفاظ المذكورة سابقا التي لجأ إليها المتكلّم للتّعبير عن مقصوده ،المستلزم بطريقة غير مباشرة،فهي لم تعبّر عن الموقف بشكل مباشر جاعلة بذلك الكلام مبهما ،يفتقد إلى الوضوح ممّا قد يجعل المخاطب غير فاهم لهذا القصد ،ولكن الخطيب كان ينوي بذلك« إيقاع التّأثير في مخاطبه بفضل فهم هذا المخاطب لنيّته»[2] من خلال اعتماده على يمتلكه المخاطب من معلومات ،وثقافة ومعرفة في فهم مقصوده بتأويل المفردات بما يناسب هذا المقصود.

ومن أمثلة خرق مبدأ الطريقة خطبة له من خطب الثواني* يقول فيها: ««**اللهم عُمّ بالصَّلاحِ والتَّوفيقِ رَعايَا المُسلِمينَ،ورُعاتَهم وأُمراءَهم ،ووُلّاتَهم وحُكّامَهم وقُضاتَهُم ،وعُلمَاءَهُم وهُداتَهُم ،وعُمّالَهُم ،وكُفاتَهم ،وأَيِّد اللّهمَّ بِعونِكَ أَنصَارهُم وحُماتَهُم،واجمَع فِرقَهُم ،وأشتَاتَهُم، واحرُسِ اللّهمَّ فُرسَانهُم وكُماتَهُم ،وأَنل رحمَتكَ،ورِضوانَكَ أَحيَاءَهم ،وأَموَاتهُم**»[3] .

هذه الخطبة عبارة عن دعاء ، والذي لا تستقيم خطب ابن نباتة دونه ،ولكن هذا الدّعاء خرق به الخطيب قاعدة الطّريقة ،فهو لم يأتي موجزا ،ولكنّه جاء مطوّلا متعدّد الجوانب ،يتّصل بالدّعاء لرعايا المسلمين ،وللأمراء ،والولاة ،والحكام ،والعلماء ،والجيش والفرسان ،وحتى عموم المسلمين الأحياء منهم والأموات.

---

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 140–141

[2]– العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني ، ص 100

[3]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 379

ويتبيّن للباحث أنّ خرق ابن نباتة لأيٍّ من مبادئ التّعاون ،ما هو إلّا محطّة ترميزيّة تقع على عاتق المتلقّي تفكيكها،وهذا ما ينمّ عن درايته بقدرة مخاطبيه الاستدلالية ،وإمكانيّتهم على فك التّرميز ؛ لذا حمل خطابه معان متعدّدة ،ربّما تكون ذات صدى أبعد من متلقّيه المباشر.

وممّا تقدّم يفهم أنّ المخاطَب يلجأ للمعنى الضّمني ،أو التّلميحي عبر أساليب متنوعة فمن الالتزام بمبدأ التعاون ،يستنبط الاستلزام العرفي ،وبهتك هذه المبادئ ينتج الاستلزام التخاطبي ،وإنّ البعد التداولي عند الخطيب ابن نباتة بني على المقصديّة ،والتي تُعنى بالدّلالة، والفهم فـ « الدّلالة تعني صورة القصد التّواصلي من قبل المرسل ،والفهم يعني الاعتراف من قبل المتلقّي بقصد تواصل المرسل»[1] ،وهو ما يكشف عن كون الخطاب خطابا مًخطّطا لًه ،وهو الأمر الذي دفع بالمرسل أن يختار الطّريقة المناسبة التي تعبّر عن هدفه وقصده، ومن هذا المنطلق فإنّ إنجازه لخطابه يحتاج إلى كفاءة عالية ، التي تكشف بدورها عن قدرة منتج الخطاب التّواصلية ،وهذه الكفاءة التداولية لا تتحقّق إلّا بملكات خمس هي: الملكة اللّغوية ،والملكة المنطقيّة ،والملكة المعرفيّة ،والملكة الإدراكيّة ،والملكة الاجتماعية [2] ،فبهذه الملكات تمكن المخاطِب من تسنين خطابه ؛ ليؤمّن وضوح الرّسالة ووصولها.

[1]– عمار ساسي، منهج الجواب في آليات تحليل الخطاب، الم الكتب الحديث ، أربد – الأردن ، 2011 م، ص 88–89

[2]–ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، ص 57

الفصل الثّالث:

الأفعال الكلاميّة في ديوان خطب ابن نباتة

أوّلا : نظريّة أفعال الكلام

1-1: الفعل الكلامي عند أوستين

1-2: الفعل الكلامي عند سورل

ثانيا : أفعال الكلام وقوّتها الانجازيّة في الدّيوان

2-1: الإخباريّات:Assertives

2-2: التوجيهيات Directives

2-3: الوعديات Commissives

3-4: التّعبيريات Expressives

3-5: الإيقاعيات Déclarations

أوّلا – نظريّة أفعال الكلام:

نظريّة أفعال الكلام من أهمّ الأسس التي قامت عليها اللّسانيات التّداولية في منظومة البحث اللّغوي المعاصر ،وذلك بوصفها المجسّد الحقيقي للاستعمالات اللّغوية في الواقع واهتمت بدراسة ما يفعله المتكلّمون باللغة من تبليغ وإنجاز أفعال وتأثير ،وكل ذلك بغرض إنجاح العمليّة التّواصليّة بين المتكلّمين ،وقد بدأت مسيرة أفعال الكلام بالثّورة على« مفهوم الوصف المسند في الغالب للّغة ،والذي أقصى كثيرا من العبارات المُستخدمة، بحجّة عدم خضوعها لمعيار الصّدق ،والكذب»[1] ،وهذا التّجاوز ظهر مع دراسات الفيلسوف اللغوي الإنجليزي:جون لانجشو أوستين(J.L.Austin) بداية،وطوّرها من بعده تلميذه " ج.سيرل" (J.R.Searle) ، بإعطائها صيغتها النّموذجية النّهائيّة،لتصبح نواة مركزية في الدّرس التّداولي ،والغرض الرئيس له،وتأسّس الفعل الكلامي على مبدأ هو :أنّ «الاستعمال اللّغوي ليس إبراز منطوق لغوي فقط؛بل انجاز حدث اجتماعي معيّن أيضا في الوقت نفسه »[2] وكما هو معلوم أنّ الاستعمال اللّغوي للّغة ركيزة أساسيّة للتّداوليّة.

فالفعل التّداولي يدلّ على أنّ اللّغة لا تستعمل فقط لتمثيل العالم ،ولكن تستعمل لإنجاز أفعال«أي إنّ الإنسان المتكلّم ،وهو يستعمل اللّغة لا ينتج كلمات دالّة على معنى؛بل يقوم بفعل ،ويمارس تأثيرا »[3] ،ولا يظهر ذلك إلّا من خلال عمليّة التّواصل التي يحاول فيها المتكلّم «على نحو معين أن يُؤثّر في المتلقّي،ولمّا كانت هذه الرّغبة في التّأثير تمثّل نشاطا موجّها إلى هدف ،فقد حدّد بشكل أدقّ بأنّها فعل لغوي»[4] ،وعمليّة التّواصل تتمّ بين أفراد الجماعة البشريّة الواحدة بواسطة اللغة ،وهدفه ا تبادل المعلومات والآراء والأفكار والمشاعر،والمواقف والاتّجاهات بينها ،والكلام هو المجسّد الفعليّ للّغة في عمليّة التّواصل وهو في الوقت ذاته جزء مهمّ بالنّسبة لنظريّة أفعال الكلام،وهو–أي الكلام– نشاط إنسانيّ واقعيّ ،يقوم به فرد من أفراد الجماعة محقّقا من خلاله نشاطا إنسانيّا بالإمكان رصده،

---

[1]–شيتر رحيمة،تداولية النص الشعري ،جمهرة أشعار العرب نموذجا،ص148

[2]– خليفة بوجادي ، في اللسانيات التداولية ، ص 89

[3]– نواري سعودي أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي،ط1،بيت الحكمة ،سطيف،الجزائر،2009م ،ص 26–27

[4]– كلاوس برينكر،التحليل اللغوي للنص،ترجمة سعيد حسين بحري، ط2 ،مؤسسة المختار للنشر والتوزيع،القاهرة 2010م ،ص123

والبحث فيه بما يكشف عن سيمات نفسيّة ،واجتماعيّة وثقافيّة وحضاريّة [1].

وعليه نخلص إلى أنّ الفعل الكلامي هو «كلّ ملفوظ ينهض على نظام شكليّ دلاليّ انجازيّ تأثيريّ،وفضلا عن ذلك،يعدّ نشاطا ماديّا نحويّا ،يتوسّل أفعالا قوليّة لتحقيق أغراض انجازية كالطّلب،والأمر،والوعد ،والوعيد... ،وغايات تأثيريّة تخصّ ردود فعل المتلقّي كالقَبول ،والرّفض ،ومن ثمّ فهو فعل يطمح إلى أن يكون فعلا تأثيريّا ،أي يطمح أن يكون ذا تأثير في المخاطَب اجتماعيّا أو مؤسّساتيّا ،ومن ثمّ انجاز شيء ما»[2] .

فمن منظور أفعال الكلام إذن،لا تكون اللّغة مجرّد أداة للتّواصل، وإنّما أداة للتّغيير والصناعة والتأثير، وهو ما ذهب إليه ديكرو (Ducrot) في أنّ«كلّ نشاط يقوم به شخص معيّن يمكن اعتباره فعلا ،أو عملا ؛إذا كنّا نحدّده انطلاقا من التّغييرات التي يحدثها أو يريد إحداثها في العالم،بما في ذلك التّغييرات المتعلّقة بالوضع الفيزيائي أو الاجتماعيّ للمتكلّم ،فنفس العمليّات، والحركات يمكن أن توصف بأنّها نشاط خالص أو أن توصف بأنّها فعل ،أو عمل بحسب ما إذا كنّا ننظر إليها في ذاتها ،أو ننظر إليها باعتبارها تغيير لعلاقة من يقوم بها مع العالم »[3] ،على هذا الأساس «تنبثق من الفعل الكلاميّ الذي هو جزء من الكلام ضمن التّعامل الاجتماعيّ قوّتان:قوّة بلاغيّة،وهي كامنة في الفعل الكلاميّ تتحدّد بفحص الفعل ذاته من حيث علاقتها بالمعتقدات السّائدة في اللّحظة ذاتها...،والقوّة الثّانية هي القدرة التّأثيريّة الفعليّة خاصّة بآثار الفعل الكلامي ،ونتائجه سواء كانت مقصودة أم لا ،فالقوّة التّأثيريّة لها قد تكون إسعاد المتلقّي،وقد لا تكون »[4]،وهذا يؤكّد على أنّ نظريّة أفعال الكلام تقوم على منهجين أساسين هما: عرفيّة الاستعمال ،ومقصد المتكلّم ،فأمّا عرفيّة الاستعمال تتأتّى من«أنّ استعمال اللّغة منوط بما تعارف عليه أبناؤها في ألفاظها،وصيغها،وتراكيبها،ودلالاتها،وما تقتضيه مقامات الكلام،وأعراف النّاس وأحكام الشّرع ،من ثمّ كان العُرف عندهم ثلاثة أعراف:عرفا لغويّا استعماليّا ،وعرفا اجتماعيّا

[1]- ينظر:أحمد كشك،اللغة و الكلام، أبحاث في التداخل و التعريب ،دار غريب، القاهرة ،مصر، 2004م،ص10

[2]-مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب ، ص 40

[3]- أبو بكر العزاوي ،اللغة و الحجاج ،ط1، العمدة في الطبع ،الدار البيضاء، المغرب،2006م،ص 118

[4]- ذهبية حمو الحاج ، لسانيات التلفظ و تداولية الخطاب ، ص138

وعرفا شرعيّا»[1]، وأمّا مقصد المتكلّم، فيراد به «أن لا يتكلّم المتكلّم مع غيره ،إلّا إذا كان لكلامه قصد،وهذا القصد ثابت لا يتغيّر ،وهو لذلك يتّخذ من الوسائل الكلاميّة ،والمقاميّة ما يعين السّامع على إدراك ما يريد ،ولكنّ مراتب السّامعين تتفاوت في إدراك مقصود المتكلّمين تبعا لتفاوت قدراتهم العقليّة واللغويّة والثّقافيّة»[2] ؛لهذا فالفعل الكلاميّ فعل إرادي عرفيّ إجتماعيّ يقصد المرسل إنجازه بغية التّأثير في المرسل إليه بإدراكه قصده.

1-1- الفعل الكلامي عند أوستين :

يعدّ الفيلسوف الإنجليزى "جون أوستن" المؤسّس لنظريّة أفعال الكلام ،و«لقد كان هدف أوستين في البداية على الأقلّ أن يتحدّى ما كان يعتبر مغالطة وصفية ،وهي فكرة أنّ الوظيفة الوصفيّة الفلسفيّة المهمّة الوحيدة للّغة هي انتاج عبارات خبريّة صادقة أو كاذبة ،وعلى نحو أدقّ ،كان أوستين يتهجّم على رأي عالم التّحقق المرتبط بالفلسفة الوضعيّة المنطقيّة التي تفيد أنّ الجمل تكون ذات معنى فقط ؛إذا كانت تعبّر عن قضايا يمكن التّحقق منها ،أو تنفيدها»[3].

إنّ اللغة حسب " أوستين" ليست مجرّد وسيلة للوصف ،و نقل الخبر، أو التّعبير عن الفكر،وإنّما هي أداة لتغيير العالم ،وصناعة أحداثه ،والتّأثير فيه،إذ «إنّ النّطق بالجملة هو انجازها،وإنشاؤها»[4]، وهذا الاتّجاه في اللّغة ظهر في العديد من أعماله التي يأتي على رأسها محاضراته التي تمّ نشرها بعد وفاته في كتاب تحت عنوان:" كيف نصنع الأشياء بالكلام" (How to do things whith words) سنة 1962م، وفي هذا الكتاب قام "أوستين"« بتوظيف اللّغة الطبيعيّة ،فأشار إلى أنّ أيّ لغة من اللّغات في عصر الإعلاميّات لم تبق لغة طبيعيّة،وإنّما أصبحت لغة تقنيّة يجب التّعامل معها بهذا المنظور،ومعنى كونها لغة تقنيّة أنّها صارت اصطناعيّة تتحكّم فيها آليّات التّخاطب

---

[1]- محمود أحمد نحلة ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص85

[2]- المرجع نفسه ، ص89

[3]- جون ليونز،اللغة والمعنى والسياق،ترجمة عباس صادق الوهاب، ط1 ،دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد العراق 1987م،ص191

[4]- جون أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة، ترجمة:عبد القادر قينيني،(دط)، مطابع إفريقيا الشرق،الدار البيضاء المغرب 1991م، ص 17

والتّواصل المعاصرة »[1] ،وفي توظيفه لهذه اللّغة الطبيعية،عارض " أوستين "موقفين هما:[2]

أ- **الموقف الفلسفي التّقليدي:** والذي يقرّ بأن دور الجمل ينحصر فقط في وصف حالة الأشياء،أو إقرار حدث ما،وتكون بموجبه صادقة أو كاذبة ،فالفلاسفة «طالما توهّموا حين افترضوا أنّ شأن الحكم في القضية إمّا يكون صادقا، أو كاذبا »[3] ،أي أنّ الجمل تقوم وفق معيار الصّدق والكذب، أمّا غيرها من الجمل، فتعدّ من قبيل العبارت التي لا معنى لها، وهذا غير صحيح فليست جميع الجمل تقريرات (Affirmation) ،ولا تصلح بالضّرورة أن تكون كذلك، فإلى جانب التّقريرات ،توجد أيضا جمل التّعجب،والاستفهام والأمر، والنّهي وغيرها.

ب- **الوصف النّحوي التّقليدي:** الذي لا يقتصر على نمط واحد من الجمل؛ بل يهدف إلى التّنويع في الموضوع ، فعلماء النّحو «قد أشاروا على وجه مطّرد أنه ليست جميع الجمل بالضّرورة تفيد فائدة خبرية ،أو تنتج أحكاما، إذ بالإضافة إلى الأحكام على اصطلاح النّحاة ،هناك من الجمل ما يفيد في العادة الاستفهام زمنها ما يفيد التّعجب والأمر ،والتّمني،ومنها ما يفيد التّعارض على وجه ما »[4] ؛بهذا التّحديد نكون قد انطلقت "نظريّة أفعال الكلام " من مفهوم الإنجاز ،وهي تؤكّد «على أنّ العبارات اللّغويّة ،لا تنقل مضامين مجرّدة ،ونمطيّة،وإنّما تختلف حسب عدّة عوامل منها السّياق،بالإضافة إلى ظروف،وعوامل أخرى تتدخّل في تحديد دلالة اللّفظ وقوّته،وعليه تحوّل الاهتمام من الجملة في ذاتها (نمط) إلى البحث في مختلف تمظهراتها(موقع)،ومن ثمّ تمّ الانتقال من الإحالة اللّسانية إلى إحالة المتكلّم »[5] ،وقد مرّ تأسيس الفعل الكلامي عند أوستين بثلاث مراحل هي:

---

[1]- حكيمة بوقرومة،نظرية الأفعال الكلامية عند" أوستين"و" سيرل "و دورها في البحث التداولي،المجلة العلمية حوليات الآداب واللغات ، كلية الآداب و اللغات، جامعة المسيلة ، الجزائر ، العدد الأول ، 2013م، ص198

[2]- ينظر، العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني ، ص78

[3]- جون أوستين ، نظرية أفعال الكلام العامة ، ص 13

[4]- جون أوستين ، نظرية أفعال الكلام العامة ، ص 13

[5]- العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني ، ص 79

-المرحلة الأولى:

رأى "أوستين" في البداية أنّ الأقوال اللّغوية تعكس نمطا ونشاطا اجتماعيّا أكثر ممّا تعكس أقوالا يتعاورها مفهوما الصدق والكذب ،فصنّف أوستن الأفعال الكلامية في بداية نظريّته على نوعين[1]:

الأول :أقوال خبرية تقريريّة،أو وصفية :وفيها تكون الكلمات مطابقة للعالم الخارجي، فهي أفعال تصف وقائع العالم،التي توصف بالصدق أو الكذب بحسب مطابقتها أو عدم مطابقتها للواقع.

الثّاني :الأدائية، أو الإنشائية :وهي الأفعال التي لا توصف بالصّدق أو الكذب،وتنجز في سياقات خاصة للدّلالة على معاني الأفعال ،وتوصف بالموفقة وغير الموفقة ،وبحسب مراعاة السياق ،أي ينجز بها المتكلّم عملا ،ولا تقتصر على مجرّد الكلام بها، «فهي لا تصف ،ولا تخبر بشيء ،ولا تثبت أمرا ما على وجه الإطلاق ،ومن ثمّ فهي لا تدلّ على تصديق أو تكذيب،وعلى ذلك فالنّطق بها هو انجاز لفعل،أو إنشاء لجزء منه»[2]،ومن أجل أن يؤدّى هذا النّوع الثّاني من الأفعال فعلا في الواقع، وضع له "أوستين" مجموعة من الشّروط «ينبغي أن يجري فيها اعتبار حسن الكلام ،وقبوله اعتبارا صحيحا إن أردنا أن يحصل لنا النّجاح ،والتّوفيق في تأدية الفعل أحسن أداء »[3] ،وتسمّى هذه الشّروط بشروط الملائمة "Felicity Conditions" ،وحصرها في ثلاثة أنماط أساسيّة كل نمط يحتوي على شرطين، فهي إذن ستّة على النحو الآتي[4]:

أ-1:يجب أن يحصل تواضع،واتّفاق على نهج مطّرد متعارف عليه،وله أثر عرفيّ معيّن

أ-2: في كل حالة مفترضة يجب أن يكون الأشخاص المعنيّون،والملابسات المخصوصة على وفق المناسبة،أي أن يتضمّن الإجراء نطق كلمات محدّدة من أناس معنيّون في ظروف معيّنة .

ب-1 :يجب أن ينفّذ المشاركون النّهج على وجه صحيح مضبوط.

---

[1]- ينظر:محمود عكاشة،النظرية البرجماتية اللسانية(التداولية) ،ص 97

[2]- جون أوستين ، نظرية أفعال الكلام العامة ،ص 16

[3]- المرجع نفسه ،ص 27

[4]- ينظر المرجع نفسه، ص 27-28 و محمود أحمد نحلة ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ص44-45

ب-2: أن يكون التّنفيذ كامل،وتام معا .

ج-1: أن يكون المشاركون في الإجراء صادقين في أفكارهم ،ومشاعرهم ،و كذا القصد و النّية في أن يتبعوا أنفسهم ذلك السّلوك .

ج-2:أن يلزم المشاركون أنفسهم واقعيّا بما ينتج عن السلوك من عواقب ،و نتائج.

ويستخدم" أوستين" في التّعبير عمّا يخالف الشّروط الأربعة الأولى مخالفات(أوالإخفاقات) Misfires،وعلى ما يخالف القاعدتين الأخيرتين مساوئ(أو الإساءات) Abuses .[1]

بمعنى أنّ هذه الشروط لازمة لأداء الفعل أداء موفّقا،أمّا إذا اختلّ أحدها أو لم تتحقّق كان في ذلك إساءة لأداء الفعل ،وليس إلغاء له .

كما ميّز" أوستين" بين الأفعال الإنجازيّة الأدائيّة فوصل إلى أنّها نوعان:[2]

أ- أدائيّات صريحة (Explicit):فعلها ظاهر(أمر، حضّ، دعاء، نهي) ،بصيغة الحاضر المنسوب إلى المتكلّم مثل: "أعدك أن أكون هناك" ،مثال صريح الدّلالة على الوعد ،ولا يحتمل غيره.

ب- أدائيّات أوّليّة(Primary) : مثال: " سأكون هناك" ،فقد يكون هذا الأخير وعدا، وقد لا يكون، فالوعد عادة يقال في سياق يعتقد فيه الواعد أنّ المخاطب يتطلّع إلى هذا الوعد و يتعلّق به، لذلك فإنّ الأدائيّات الضمنيّة تعتمد على المقام، إذ بها تكون أدائيّة أو لا تكون،أما الأدائيّات الصّريحة ،فإنّها تعلن عن نفسها في كل سياق تقال فيه.

- المرحلة الثانية :

تراجع أوستن وبدءاً من المحاضرة الثّالثة عن فكرة تمييزه بين الخبر والإنشاء، إذ وجد أن الملفوظ الخبري ؛وبغضّ النّظر عن صدقه أو كذبه، يخضع لتلك الشّروط التي تحكم الملفوظ الإنجازي، فالملفوظات الخبرية تحمل إلى جانب المحتوى القضوي قيمة إنجازية[3] فتوصّل إلى عدم وجود ضوابط جامعة مانعة تفرق بين الأقوال الخبرية ،والإنشائية على

---

[1]- ينظر: محمود أحمد نحلة ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص65

[2]- ينظر: محمود أحمد نحلة ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ص66-67 و ينظر: جون أوستين ، نظرية أفعال الكلام العامة ،ص86-87

[3]- ينظر: قدور عمران،البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني،ط1،عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع ، إربد الإردن،2012م، ص 53

نحو جازم، وعّد التفريق بينها أمراً غير متيسر وهو من باب المحال[1] ؛لذا اقترح أن يتمّ هذا الاختزال في إطار نظريّة شاملة للأفعال اللّغويّة ،وهي أنّ الفعل الكلامي يحتوي«على ثلاثة أفعال تشكّل كيانا واحدا ،على أنّ هذه الأفعال الثّلاثة يقع حدوثها في وقت واحد»[2] وكان ذلك في سعيه للإجابة عن هذا السّؤال: كيف ننجز فعلا حين ننطق قولا؟ ،ومن هنا فإنّ المتلفّظ بأيّة جملة تنتمي إلى لغة طبيعيّة معيّنة، يقوم بأصناف ثلاثة من الأفعال اللّغوية هي[3]:

1) – الفعل التّعبيري(Acte locutoire): أو إنشاء تعبير لغوي ذي معنى، والذي يعتبر فعل التّلفّظ الأساس، فإذا كنت تعاني من صعوبة في تكوين الأصوات ،والكلمات لإيجاد لفظ مفيد في لغة ما، لكونها لغة أجنبيّة ،أو لأنّك معقود اللسان، فمن المرجّح أن لا يكون بمقدورك إنشاء فعل تعبيريّ .

2)– الفعل الوظيفيّ(Acte illocutoire) حيث لا تقوم عادة بإنشاء ألفاظ صحيحة البنية دون غاية، فنحن نصوغ لفظا ليؤدّي وظيفة نريد إتمامها، فالفعل الوظيفي ينجز عبر قوة اللّفظ التّواصلية.

3)– الفعل التّأثيري(Acte perlocutoire): فنحن لا ننشئ لفظا ذا وظيفة معيّنة دون أن نقصد أن يكون له تأثير معيّن، فالمستمع سيتعرف على التّأثير الذي يقصده المتكلّم لتعليل أمر ما.

ويمكن تمثيل بنية الفعل الكلامي الكامل بالمخطاطة الآتية:

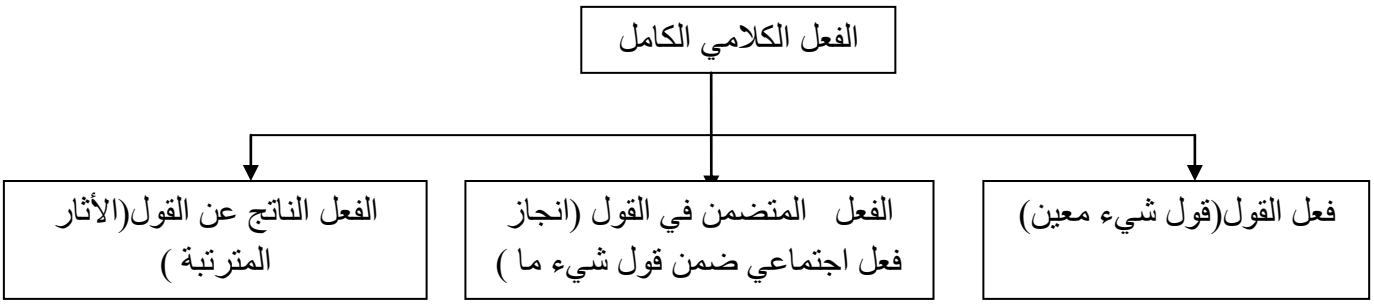

[1]– ينظر: جون أوستين ، نظرية أفعال الكلام العامة ،ص 85

[2]– الجيلالي دلاش ، مدخل إلى اللسانيات التداولية،ص24

[3]– جورج يول، التداولية ، ص 82–83

وعليه يتبين أنّ البنية العامّة للأفعال الكلاميّة عند "أوستين"هي ثلاث:[1]

* الفعل الأوّل : فعل القول، وبنيته كالآتي :

- فعل صوتي (إنتاج الأصوات).
- فعل تركيبيّ(إخضاع الأصوات لنظام نحويّ معين).
- فعل دلالي (ربط الأصوات بالدّلالة).

*الفعلان الثّاني والثّالث : الفعل المتضمّن في القول ، والفعل النّاتج عن القول .

- ويكون في الأوّل القيام بفعل ما ضمن قول شيء
- ويتحقّق في الأخير مجموع الآثار المترتّبة عن الفعل السّابق
- والنّتيجة:الفعل الكلامي الكامل ،هذا الأخير مبني على أساس المواضعة عند أوستن فهي شرط لإدراك المعنى، وتحديد المقاصد، فبدونها لا يعدو الكلام كونه حركات، أو كلاما مهملا ،ولم تكن شرطاً عنده وحده ؛بل هي شرط أساسي وضروري عند علماء البلاغة العرب ، وإعجاز القرآن ، كما وعدّها القاضي عبد الجبار شرطاً في الدلالة[2]

- **المرحلة الثّالثة:**

وبعد القسمة الثلاثية للفعل الكلامي ، صنف أوستن وفي المحاضرة الأخيرة من كتابه (كيف ننجز الأشياء بالكلمات) الأفعال الكلامية الإنجازية ؛ لأنها الأكثر تداولاً إلى خمسة أصناف « لكنّه لم يتردّد في القول بأنّه غير راض عن هذا التّصنيف »[3]، وفي ذلك يقول:« فعلى ذلك فإنّني أميّز خمسة أصناف، وفئات عامّة، و إن كنت مع ذلك غير مسرور، ولا راض عن أيّة واحدة منها،وكلّ هذه الأصناف تسمح بأن أقسّمها تقسيما أوّليا يكاد يكون شبيها بتقسيم معبودات الشّعوب البدائية لأصنامها الفيتيشية إلى طبقات»[4]، و هذه الأقسام الخمس كالآتي[5]:

1)- أفعال الأحكام (القرارات التّشريعية)verdictives: يختصّ هذا الصّنف بكونه ناتجا

---

[1]- مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب،ص 57-58

[2]- هشام عبد الله خليفة ،نظرية الفعل الكلامي،ط1، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان،2008م، ص79

[3]- محمود أحمد نحلة ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 69

[4]- جون أوستين ، نظرية أفعال الكلام العامة ، ص173

[5]- المرجع نفسه،ص 174-175

عن إصدار حكم في المحكمة ، سواء أكان ذلك الحكم صادر من هيأة قضائيّة أم من محكم تختاره الأطراف أم من حَكم (في الملعب مثلا)، غير أنّه ليس من الضّروري أن تكون هذه القرارات نهائيّة ،فقد يكون الحكم مثلا تقديريّا ،أو على صورة رأي أو تقييما،وفي جميع هذه الصّور يتعلّق الأمر بإصدار حكم حول شيء ما.

2)- أفعال القرارات (الممارسات التّشريعية) Exercitive: تتعلّق بممارسة السّلطة والقانون،والنّفوذ،وأمثلة ذلك التّعيين في المناصب،والانتخابات،وإعطاء التّوجيهات التّنفيذيّة القريبة من النّصح ،والتّحذير ،وغيرها .

3)-أفعال التّعهد(الوعديات) Commissives:وأمثلتها إعطاء الوعد،والضّمان والتّعهد وفي كلّ هذا يلتزم الإنسان أن يفعل شيئا ما ،وقد يندرج في هذا الباب التّصريح ،وإعلان النّية ،والقصد ،ويدخل التّصريح ،و القصد في الوعد .

4)- أفعال السّلوك (الأوضاع السّلوكية)Behabitives : وتختص بمجموعة منتشرة لا يمكن حصر أطرافها بسهولة ،ولكنّها كلّها تندرج تحت باب السلوك،والأعراف المجتمعيّة ، وأمثلتها الاعتذارات ، والتهاني،التعزي والقسم...

5)-أفعال الإيضاح (المعروضات الموصوفة)Expositive:وهي تبيّن كيف أنّ العبارات المتلّفظ بها تجري مجرى الاحتجاج ، والنّقاش كما نكشف كيف أنّنا نستخدم الألفاظ وبوجه عام يصلح هذا الصّنف لطريقة العرض ، وأمثلة ذلك:أجيب، احتج ...

وكلّ فعل كلامي هو «في الوقت ذاته فعل كلام،أي فعل قول،وفعلا كلاميّا انجازيّا وفعلا تأثيريّا رهين التحقّق،والتّحقّق لا يقتضي التّحقيق على أرض الواقع فهو بمجرّد النّطق به يعتبر فعلا متحقّقا،والآثار رهينة استجابة المخاطب »[1]،كما أشار"أوستين"في ختام محاضرته الأخيرة«إلى أنّ أعماله بمثابة برنامج،قد حال الموت دون مواصلته،ولكنّ نظريته استؤنفت على نحو واسع في السّنوات الموالية،واستأنف وريثه المباشر الأمريكي (جون سيرل) برنامجه خصوصا ما يتعلّق منه بأهمية تصنيفية الأعمال اللّغوية »[2].

1-2: الفعل الكلامي عند سورل :

[1]- جون أوستين ، نظرية أفعال الكلام العامة،ص 174-175

[2]- جاك موشلار- آن روبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين من الجامعات التونسية، بإشراف عز الدين المجدوب، منشورات دار سيناترا(تونس)، 2010م، ص 67

جُوبه تصنيف أوستن للأفعال الكلاميّة بانتقاد تلميذه سيرل فبعد أن استفاد من حصيلة أستاذه عكف على صياغة أفكاره وتجديدها ضمن نظريّة محكمة إذ« ظهرت على يده نظريّة منتظمة **"Systematic"**لاستعمالات اللّغة بمصطلحات الأفعال الكلاميّة قائمة على أن الكلام محكوم بقواعد مقصديّة **"intentional"**، وأنّ هذه القواعد يمكن أن تحدّد على أسس منهجية واضحة ،ومتّصلة باللّغة»[1] ، وتجلّى ذلك في كتابه (الأفعال اللغوية) (Speech acts) عام1969 م بالإنجليزية، الذي ترجم إلى الفرنسية سنة 1972 م، متبنّيا فيه بشكل من الأشكال اقتراحات "أوستين "، مشدّدا على أنّ" فعل القول "لا يمكن تحقّقه من دون قوة إنجازية، مع إجراء تعديلات على تصنيف" أوستين "للأفعال اللّغوية، فضلا عن الاهتمام الخاصّ الذي أعطاه للمعنى ، والمحتوى القضوي[2].

وقد ميّز سيرل بين الأفعال الكلامية ،وقسمها على أفعال إنجازية مباشرة(**Les Actes Illocutionnaires direct**)،وأفعال إنجازية غير مباشرة،(**Les Actes Illocutionnaires Indirects**) ؛إذ عرّفت الأفعال الإنجازيّة المباشرة ،بأنّها« التي تطابق قوتها الإنجازيّة مراد المتكلّم ،فيكون ما ينطقه مطابقا مطابقة تامّة ،وحرفيّة لما يريد أن يقوله»[3] ،وهي عبارة عن استراتيجية تصريحية،يأتي بها المخاطب مراعاة لحال المتلقّي وسياق المقام ،وتشير هذه الاستراتيجية إلى كفاءة المخاطب التّداولية ،لذا قام بتعديل التّقسيم الذي قدّمه "أوستين" للأفعال الكلاميّة ،فجعلها أربعة أقسام تنجز معًا في الوقت نفسه وهي[4] :

1- الفعل التّلفظي ، (Acte d'énonciation): والمقصود به عمليّة أداء الكلام والتّأليف بين مكوّناته ، وهو « يشمل الجوانب الصّوتية ، و النّحوية ، و المعجميّة »[5]

.2- الفعل القضوي ، (Acte propositionnel):وهو معادل للفعل الدّلالي عند

---

[1]- محمود أحمد نحلة ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 71

[2]- ينظر : العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني ، ص89

[3]- إبتسام بن خراف ،أفعال الكلام في قصة كليم الرحمن موسى عليه السلام، ، مجلة كلية الآداب واللغات ، جامعة محمد خيضر بسكرة ، الجزائر ،ع12،ص 346

[4]- العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني ، ص86

[5]-محمود أحمد نحلة ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ،ص82

"أوستين"على اعتبار أنّ ما كان يعرف بالفعل الدّلالي،وكان يشمل عنصري المعنى والإحالة أصبح عند" سيرل "يشكّل فعلا مستقلا، يسمّى الفعل القضوي،ويتضمّن فعلي الإحالة والحمل.

3-الفعل الانجازي(Acte illocutionnaire):وهو الفعل الذي يحقّق القصد المعبّر عنه في القول ، و هنا لا يختلف عن تصوّر"أوستين" ،إذ قد يكون نصيحة أو تحذيرا أو تهديدا ،أو وعدا ،أو أمرا...[1]

4-الفعل التّأثيري (Acte perlocutoire): فنحن لا ننشئ لفظا ذا وظيفة معيّنة دون أن نقصد أن يكون له تأثير معيّن، فالمستمع سيتعرّف على التّأثير الذي يقصده المتكلّم لتعليل أمر ما[2].

حيث «يتداخل الفعلان القضوي والانجازي فيما بينهما تداخلاً شديدًا يجعل كل فعل من هذين الفعلين مكمّلاً للآخر، والفعل القضوي لا يقع وحده ؛بل يستخدم دائمًا مع فعل انجازي في إطار كلامي مركب ،بحيث لا يمكن التلفظ بفعل قضوي دون أن يكون لنا مقصد معين من نطقه، ويعتبر سورل الفعل الانجازي بمثابة الوحدة الصغرى (unité minimale) للاتّصال اللغوي ككل»[3] ،كما أنّ« الفعل التّأثيري ليس له أهمّية كبيرة عند "سورل"؛ لأنّه من الضّروري عنده أن يكون لكلّ فعل تأثير في السّامع يدفعه إلى إنجاز فعل ما»[4] .

أما الأفعال الإنجازيّة غير المباشرة هي استراتيجية« يُعبّر بها المرسل عن القصد بما يغاير معنى الخطاب الحرفي ؛ لينجز بها أكثر مما يقول ،إذ يتجاوز قصده مجرّد المعنى الحرفي لخطابه ،فيعبّر عنه بغير ما يقف عنده اللّفظ مستثمراً في ذلك عنصر السّياق»[5] السّياق»[5] وممّا يدفع بالمخاطِب لاستعمال هذه الاستراتيجيّة غير المباشرة ،هو مبدأ التأدب في الخطاب ،فبهذه الطّريقة يتعدّى قصد المتكلّم ما قاله، أو ما يدلّ عليه الشّكل

---

[1]- المرجع نفسه، ص ن

[2]- العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني ، ص86

[3]- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 73

[4]- المرجع السابق، ص 73

[5]- عبد الهادي بن ظافر الشهري،استراتيجيات الخطاب مقاربة تداولية ، ص 37

اللفظي ،أي لا تدلّ هيئة الفعل السّطحية على زيادة المعنى[1] ،فالفعل الإنجازي وسيلة يستعملها المخاطِب للوصول إلى هدفه ،وبحسب ما يقتضيه المقام ومقتضى الحال ،فلا يعدو كون الفعل متلفظ به على إحدى استراتيجيتين ،الاستراتيجية المباشرة أو التصريحية والاستراتيجية غير المباشرة ،ومن هنا توصل سيرل ليضيف مبدأ جديداً لنظرية أوستن هو مبدأ قابليّة التّعبير ،والذي يتضمّن مفهومين أساسيين هما : القصد و المواضعة[2] فمعرفة مقصد المخاطِب ضروريّة لفهم الخطاب ؛ولذا«اشتهرت المسلّمة القائلة: إنّه لا سبيل إلى فهم اللّغة ،إذ نحن لم نفهم الخطاب ،ولا يمكننا فهم الخطاب إذا لم نأخذ بعين الاعتبار مقصد التّواصل»[3].

استنادا لما سبق يقترح "سورل" نسقا من القواعد

الاستدلالية لوصف قدرة المخاطب على استنتاج ، وإدراك الفعل غير المباشر المنجز في مقام معيّن في صنفين هما : الأفعال اللّغوية المباشرة ، والأفعال اللّغوية غير المباشرة [4]، فكلّما «وجدت علاقة مباشرة بين البنية والوظيفة نحصل على فعل كلام مباشر" Direct speech act" بينما كلّما وُجدت علاقة غير مباشرة بين البنية ،و الوظيفة نحصل على فعل كلام غير مباشر " Indirect speech act "؛ لذا يُعتبر استعمال البنية الخبريّة لتكوين جملة خبريّة فعل كلام مباشر ولكن استعمال البنية الخبريّة لتكوين طلب فعل كلام غير مباشر »[5] ،والفيصل بين الاثنين هو القوّة الانجازيّة ،فإذا تطابقت مع مراد المتكلّم ،ويكون ما يقوله مطابقا لما يعنيه كان الفعل مباشرا ،أمّا إذا اختلفت القوّة الإنجازيّة مع مراد المتكلّم كان الفعل غير مباشر[6] .

---

[1]– محمود أحمد نحلة ،آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 81–82

[2]– ذهبية حمو الحاج ،التداولية واستراتيجية التواصل،ط1، رؤية للنشر والتوزيع ،القاهرة،2015م، ص 188

[3]– نصيرة محمد غماري، النظرية التداولية عند الأصوليين دراسة في تفسير الرازي(ت 606هـ) ، ط1، ، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع ، أربد ، الأردن، 2014م، ص 104

[4]– ينظر:أحمد المتوكل،دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي،دار الثقافة للنشر والتوزيع،الدار البيضاء المغرب 1986م ،ص95

[5]–جورج يول ، التداولية ، ص 92

[6]– ينظر: محمود أحمد نحلة ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ص50

وفي نهاية بحثه قام "سورل" ببناء نظريّة مكتملة الأواصر لأفعال الكلام ،والتي ترتكز على ثلاثة أسس منهجية هي:الغرض الانجازي، اتجاه المطابقة، شرط الإخلاص ،وعلى أساسها قسّم الفعل الكلامي إلى خمسه أصناف هي:الإخباريّات، التّوجيهيات، الالتزاميات التّعبيريّات،الإعلانيّات[1] ،وسنتطرق لها بالشّرح أثناء تطبيقها في خطب الديوان ، وقد تمّ اختيار التّقسيم الخماسي الذي تقدّم به الفيلسوف اللغوي "سورل" في استنطاق خطب الدّيوان ،لأنّه حاز على اهتمام الباحثين، كما أنّه يمثّل النّموذج الأكثر نضجا للنّظريّة بعدما طور فيه "سورل" خطى أستاذه "أوستين" الذي صرّح بعدم اقتناعه بتقسيمه الأخير لأفعال الكلام ،لنحاول الوصول في النهاية إلى حقيقة التّعامل الإجرائي لهذا المبحث التداولي مع خطب ابن نباتة كنموذج للدّراسة.

ثانيا–أفعال الكلام وقوتّها الإنجازيّة في الدّيوان :

2-1: الإخباريّات:Assertives:

هي أولى التّصنيفات السّورلية،وقد ترجمت أيضا إلى التّمثيليّات،والتّأكيديّات وأفعال الإثبات أو التّقريرات«والغرض الإنجازي فيها هو نقل المتكلّم واقعة ما(بدرجات متفاوتة) من خلال قضية proposition ، يعبّر بها عن هذه الواقعة، و أفعال هذا الصّنف كلّها تحمل الصّدق الكذب ،واتّجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم»[2] وهي التي يكون الهدف منها «تطويع المتكلّم حيث الكلمات تتطابق مع العالم – كما ذكر سابقا–وحيث الحالة النّفسيّة هي اليقين بالمحتوى مهما كانت درجة القوة»[3] ،وغايتها الكلاميّة تكمن في «جعل المتكلّم مسؤولا عن وجود وضع للأشياء،وتشمل التّأكيد والتّحديد والوصف »[4] ،واتّخذها الخطيب حلقة وصل بينه ،وبين مخاطبه للتّعبير عن مقاصده ومحقّقا بها غرضا إنجازيا ،يتمثل في نقل الوقائع بكلّ أمانة، محقّقة شرط الإخلاص المتمثّل في صدقه كمتكلّم ،ونقله الأمين للواقعة ،وحمل المتلقّي على التّصديق ،ومن أمثلتها قول الخطيب :«**أيُّها النَّاسُ: إنَّ الدُّنيَا مَتاعٌ ،مَقَامكُم فيها اطّلاعٌ ،ووَصلُها لكُم انقطاع**

[1]– ينظر: المرجع نفسه، ص 49–50

[2]– محمود أحمد نحلة ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، 78–79

[3]– فليب بلانشيه ، التداولية من أوستن إلى غوفمان،ص 66

[4]– عمر بلخير، مقالات في التداولية ، دار الأمل ، تيزي وزو، الجزائر، 2013 م ، ص 171

،وارتفاعُها بكم اتّضَاع تحلّى مذاقةَ ما تُمِرُّ خِتامَه ،وتُصبي بالرّضاع من تُسرُّ فِطامُه ،وتُظهِر مصافاةَ مَن تُضمِر حِمامُه ،وتَختِل بالصِّغارِ من تَظهِرُ إكرامَه، وما نالَ أحدٌ رغَدَ مراعيها،إلّا مِن أَنيابِ أفَاعِيها،ولا ثُوّبَ بالسّرور داعيها إلّا أجَابه بالثُّبورِ نَاعيهَا... »[1]

يوجّه ابن نباتة خطابه في هذا النّص إلى مخاطبه الذي حدّدت صيغة النداء **(أيّها النّاس)** مرجعه ،وهم أهل زمان الخطيب ،وهو في الوقت نفسه فعل انجازي يؤثّر تأثيراً مباشراً ،إذ يلزم المخاطب بالامتثال ،وفيه يظهر حرص المتكلّم على إقبال المخاطب وهو ما يدل على أن الخطاب معتنى به ؛لأنّ غايته الإصلاح، وهدفه التّغيير في العالم الخارجي،وبعد هذه الصّيغة النّدائيّة افتتح الخطيب نصّه بتوكيد (**إنّ الدّنيا متاع مقامكم فيها اطلاع ،ووصلها لكم انقطاع،وارتفاعها بكم اتّضاع)** ،وهو «فعل كلامي يندرج ضمن الإخباريّات ،والغرض الإنجازي لهذا الفعل هو الإخبار أو التقرير»[2] ؛حيث أقرّ من خلاله حقيقة يعيشها الإنسان الغافل مع الدّنيا الذي يظنّ بأنّ مقامه فيها دائم ،ووصلُه لها غير منقطع ،ومهما نال فيها من مقام رفيع فلن ينزل منه ،ولكن في الحقيقة هو عكس ذلك فالدنيا لا تؤمن بوائقها وهو ما بينه باقي قول الخطيب الذي تضمن سلسلة من الأفعال الكلاميّة الإخباريّة **(تحلى مذاقة ما تمرّ ختامه،وتصبي بالرّضاع من تسرّ فطامه ...)** التي تكمن قوّتها الإنجازيّة في الوصف ،إذ وصفت أفعال الدّنيا مع الإنسان الذي صاحبها ،واهتمّ بشأنها ،ولكنّه لم ينل مراده منها فمات بغصّته ،وإن سرّته في بعض الأحيان فهي ،وإن أحسنَت فلإحسانُها لا يسلم من الكدر ؛لأنّ من عادتها أن تردّ ما أحسنت به ،أو تدخل عليه أحوالا أخر تنغّصه وتفسده .

فيكون الخطيب بهذا النّقل الأمين للدّنيا مع الإنسان قد حقّق شرط الإخلاص ؛لأنّه يقصد ،وله نيّة الإبلاغ ،والتّعبير الصّادق عن الحدث ،فهو يصف واقعا نعيشه ،ونشهده مع أيّام الدنيا ،ولا يختلف فيه إثنان في حوادثها مع الإنسان ،وقد تولّد عن الفعل الإخباري في هذا النّص فعلا تأثيريّا ،وهو التّرغيب في الزّهد في الدّنيا ؛لأنّ ما تريده النّفوس من جاهها زائل ،وأحقر من أن نجعله همّا نعيش لأجله ،ونسعى لتحقيقه.

[1]- ديوان خطب ابن نباتة، ص 199

[2]- أحمد حسن كنون، التداولية بين النظرية والتطبيق ، ط1،دار النابغة للنشر والتوزيع،القاهرة،2015م،ص 424

ويقول في السّياق نفسه في خطبة أخرى عن الدنيا « **إنَّ الدُّنيَا مُحالٌ ،يَقتضِيه زوالٌ يَقتفِيه مآلٌ يَحتذِيه وَبالٌ ،أوقاتُهَا سِهامٌ أنتم أغراضُها ،وغَايَاتُها حِمامٌ مُفعَمَة لكم حِياضُهَا ،وعِداتُها بُروقٌ مُخلِفٌ إيمَاضُها ،وكرّاتها دفوقٌ مُتلَف مَخَاضُها**» [1] .

يتوجّه الخطيب بهذا القول إلى مخاطبه الذي لم تتضّح ملامحه من خلال ظاهر لفظ (فعل القول) ؛إذ لا يوجد ما يدلّ على مخاطب معيّن بذاته ؛لذا فإنّ أقرب ما يقودنا إليه التّخمين هو أنّ ذلك المخاطب لا يعدو أن يكون أهل زمان ابن نباتة الفارقي فإنّهم – بحكم واقع الحال – المعنيّون بالخطاب قبل غيرهم ،وتبدو الأفعال الكلاميّة لهذا النّص من الإخباريّات غايتها وصف حالة بصورة دقيقة [2] ،وقد ابتدأ الخطاب فيها بفعل كلامي إثباتي متصدّر بأسوب التّوكيد(إنّ) الذي أُقرّ من خلاله في أنّ الدّنيا محال ديمومتها.

والخطيب التزم في تعبيره عن تلك القضيّة بالصّدق ؛لأنّه اعتمد على معلومات المتلقّي في بداية نشأة الخليقة ،وكذا الحقائق الإسلاميّة المشتركة في نهاية الحياة الدنيا ،وما يتبعها من وبال على بعض النّاس ،ونعيم على آخرين، ثم استعمل بعد ذلك أفعالا كلاميّة تقريريّة تحمل قوّة انجازيّة ،تتمثّل في تحذير المتلقي من الاغترار بالحياة الدنيا ،فما أوقاتها الجميلة التي نعيشها إلّا سهام الشّياطين التي يرمون بها النّاس ليزلوهم عن جادّة الصّواب ،وغاياتُها التي نسير بها ليست إلّا أشكال الموت التي أعدّت لنا ،ووعودها التي وعدتنا بها ،وتلك الأمانيّ التي تمنّيناها ليست إلا بُرُوقا لا تخلف وراءها إلّا الإيماض فهي أماني زائلة ،وأعمالنا التي نفتخر بها تشبه الناقة الدّفوق السّريعة التي يتلف مخاضها من سرعتها، كما تولّد عن تلك الأفعال الإخبارية ،فعل تأثيريّ يتمثّل في حمل المخاطب على الإقرار بالواقع الموصوف، والتّفاعل معه بإيجابيّة من خلال تذكيره ،وتهويله بحال الدّنيا ونصحه ،وإرشاده بوجوب الحذر منها.

ويقول في خطبة له في ذكر الموت: «**مَن استمعَ لخطوبِ الأيّام ؛غَنيَ عَن خَطب الأنامِ ،ومَن ارتدَعَ عن رُكُوب الآثام ؛رقِي أَعلَى دَرجَات الكِرامَ ،ومَن قَدَحَ بَصيرَته بزِنادِ الاعتبار ؛أنَارَت له ظُلَم العَواقِب بمصابيحِ الاستبصَار** »[3].

---

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ،ص 173

[2]– ينظر: محمود أحمد نحلة ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 49

[3]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 222

تظهر الأفعال الكلاميّة لهذا النّص من الإخباريّات ؛لنقلها واقعة بصورة أمينة وصادقة والمخاطب على علم ودراية مسبقة بهذه الأمور ؛لأنّه شهدها وعاينها ؛بل وعاشها ، ويبدو من ظاهر فعل القول أنّه لا يوجد ما يدلّ على مخاطب بعينه ،وإذًا لا مناص من التّعويل على السّياق الخارجي ؛لأنّه الوحيد الذي يحيلنا على المخاطب الذي هو هنا أهل زمان الخطيب دون سواهم ،والقوّة الإنجازيّة لهذه الأفعال الإخباريّة في هذا الخطاب هي إثبات وتقرير حقيقة واقعية يحكمها المنطق ،مفادها أنّ كلّ من استمع لحوادث الزّمان أو عاينها واعتبر منها أغناه ذلك عن خطب الناس الواعظة ،فقد اكتسب العظة معاينة ،وليس نقلا ومن ردع نفسه عن ارتكاب الآثام ؛كان ذلك سببا في وصوله إلى أعلى درجات الكرام ومن لاحت له حوادث الدهر واعتبر منها ،وتعلّم من نتائجها ،أنارت له مبهمات الحوادث وأعطته خبرة في الحياة ؛تغنيه عن طلب النّصح ،والشّورى إنّ هذه الأفعال، وما تحمله من قوة انجازيّة كامنة يمكن اعتبارها شواهد يبرهن بها الخطيب على صدق ما يقرّره.

ويتحدّث في السّياق نفسه مؤكدا على قضية الزّوال ،والفناء فيقول: «**أينَ مَن كانَ قَبلَكُم من القُرونِ ،أهل العِزّ المَصونِ؟ ،الذين كَانُوا أَطولَ منكُم أَعمارًا ،وأكثرَ في الأرض آثارًا ،قَصفَت والله المُنونُ أَعمَارَهُم ،ومَحَت الحَوادث آثارهُم،وعطَّلت لفَقدِهم عِشارَهم ،وأخرَب الموتُ دِيارهُم ،فأضحوا رَميمًا تَحت أَطباقِ الثَّرى ،وعَادُوا رُفَاتًا مِن طُولِ البِلَى ،أُكلًا للهَوامِ ،وَمرتَعًا للسَّوَام**»[1].

المتأمّل في هذا النّص يجد أنّ المخاطب لا يعكسه فعل القول،وعليه يُتّكأ على السّياق الخارجي في تحديد مرجعه ،وهو هنا أهل زمان الخطيب ،ولا ضير في أن يتّسِع الخِطابُ ليشمل غيرهم ،ولا عبرَة بكون الخطيب لم يقصد ذلك المخاطب المحتمل ،والذي لم يستحضره ابتداء لحظة إنشاء الخطاب، فقد يتّسع الخطاب ليشمل مخاطبين لم يكونوا قد خطروا ببال الخطيب لحظة الإنشاء ،ولا شك في أنّ الغاية من الاستفهام الذي افتتح به الخطيب قوله (**أين من كان قبلكم...؟**) ليس لطلب الاستعلام؛لأنّ الجواب بدهي عند المسؤول ،فالفعل الإنجازي خرج من كونه فعلاً مباشراً إلى فعل غير مباشر ،وهو تقرير ما هو حاصل فعلا في الحياة ،وهو أن المنايا ما فتئت تلاحق الإنسان أينما حل ،وحيثما

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص273

ارتحل لا يدفعها عنه دافع ،ولا يحول دونها معتصم،ولنا في هلاك الأمم السّابقة عبرة .

وقد اعتمد الخطيب على الأفعال الإخباريّة في وصف حال هذه الأمم آنذاك بصورة صادقة أمينة،واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات ؛إذ أنّها حدثت سابقا ،وقد نقلها المتكلّم من الحدث إلى الكلمات ،والمخاطب لديه بعض المعلومات باعتباره مسلما لما ورد في القرآن الكريم منها قوله عزّوجل:﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۝٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ۝١٤﴾-(الفجر:6-14)- ،لذا افترض المتكلّم وجودها لدى مخاطبه موضّحا لها ،وشارحا ومزيدا عليها ما يمكن له أن يزيده بما يناسب المخاطب وقد جاءت تلك الأفعال الإخبارية حاملة لقوّة انجازيه تقريرية التي أثبتت حقيقة مفادها أنّ بالرّغم مَا أُوتيَ للأقدمين من جاه وسلطة إلّا أنّ يدُ المُنون قضت عليهم ،فأصبحوا تحت التّراب مرتعا للبهائم والأنعام، وقد تولّد عنها فعل تأثيري هو حمل الخطيب على الإقرار بهذه الحقيقة رجاء الاستعداد للموت ،ووضعه نصب عينيه في كلّ لحظة ،وحين ،وذلك يقتضي الزّهد في الدّنيا ،ومغرياتها والتّهوين من شأنها حتى يكون من الفائزين بجنّة الخلد التي وعد بها الرّحمن ،وعن ذلك يقول الخطيب: « **فوُجُوهم مِن النَّعيم نضرة ،وأنديتهم عَلى الدَّهرُ المُقيمِ خَضِرةٌ،ورائحتُهم من طِيَب النّسيمِ عَطرَة ،وقُلُوبُهم بجِوارِ الغَفُور الرَّحيمِ مُستبَشِرة ،وقَد ذَهب عَنهُم الحزَنَ ،وطابَ لَهم المَقيلُ ،والوَطنُ في دارٍ اتَّسعَت أَقطَارُها ،وأَينَعت ثِمارُها ،واطَّرَدَت أنهارها ،وتَميّدَت أَشجارُها ،وغَرّدَت أَطيَارُها ،وعَليَت مَجالِسُها ،وحَليَت عَرائسُها، واشرَقَت قِبابُها ،وأُدهِقَت كُؤُوسُها ،وَحَسُنت بدائعها ،وأَمنَت فَجائعُها**»[1].

تظهر الأفعال الكلاميّة لهذا النّص من الإخباريّات لنقلها واقعة ستكون في المستقبل بصورة أمينة ،وصادقة ؛لأنّها تستنِد على مرجعيّة دينيّة ،وهِي حالة أهل الجنّة ،والنّعيم الذي يعيشون فيه ،والمخاطب هنا ليس جاهلا بكلّ هذه الأمور باعتباره مسلما ،وموحّدا

[1]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص43

بالله مؤمننا بالغيبيّات يكون قد قرأ عنها أو سمعها في آي القرآن الكريم الذي فيه تفاصيل ذلك ،فالنّص الذي أورده الخطيب في وصف أهل الجنّة ،ونعيمها يبدو فيه تأثّر الخطيب واضحا بما جاء في كتاب الله تعالى من قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾﴾(النبأ:31-35) وقوله تعالى :﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ (القيامة:22-23)،وقوله تعالى:﴿قَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ -(فاطر:34-35)-،وتتّضح القوّة الإنجازيّة للأفعال الكلاميّة الإخباريّة في نصّ الخطيب في الوصف ،فقد عمدت الأفعال الكلاميّة في بداية النص إلى وصف أهل الجنّة ،ونعيمهم الدّائم ،وكيف أنّ وُجوهَهُم مشرقة مضيئة، رائحتهم طيّبة عطرة مستبشرين فرحين بما آتاهم الله بعدما أُذهبت عنهم جميع معاني الحزن ، ثم انتقل الخطيب بتصوير متفرّد بلفظه ومعناه ،باستخدام جمل قصيرة إخباريّة لكنّها تحمل قوّة انجازيّة وصفيّة عالية (**اتّسعت أقطارها ،أينعت ثمارها،اطّردت أنهارها،تميّدت أشجارها غرّدت أطيارها ،عليت مجالسها،حليت عرائسها...)** إذ بيّنت الصّورة الجميلة للجنّة التي فيها ما لا عين رأت ،ولا أذن سمعت ،وذلك من أجل التّأثير في المخاطب ،وإغرائه بهذا النّعيم المنتظر ،وحثّه على بذل الجهد إلى ما هو أبقى وأجدى بطاعة الله ،والابتعاد عن المعاصي،وكبح جماح النّفس اللّجوج حتى ينال هذا الجزاء،ويكون من الفائزين في الآخرة.

كما ورد في الدّيوان أفعالا كلاميّة مباشرة إخباريّة حاملة لشحنة تقريريّة رغبة من الخطيب في تبليغ قصده ،على اعتبار أنّ « الأصل في الكلام القصد »[1]، وتحقيق هدفه الخطابي دون إعطاء فرصة للمتلقي للتهرب أو التّملص من مسؤولية الخطاب؛لأنّها لا تحتمل إلّا تأويلا واحدا ،ومن أمثلتها قول الخطيب: «**والأُمَم فِي فِرقِ أَديَانِهَا عَابدَة لأَوثَانِهَا ،عَاكِفةٌ علَى نِيرانِها ،مُتمرِّدة في عُدوانِها ،مُصرَّة على إِدمَانِها مُنكرة لله في**

[1]- طه عبد الرحمن،اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، ص 103

عِرفَانِها،فأَنارَ اللهُ بمحمَّدَ صلَّى اللهُ عليه ظُلَمَها ،وفرَّجَ عَن القُلوبِ غِممَها ،وجَلا عن الأبصارِ بَهَمَهَا»[1].

بدأ الخطيب نصّه بأفعال كلاميّة إخبارية مباشرة ؛لأنّها نقلت واقعة بصورة أمينة صادقة أفادت الإخبار ،والإعلام من خلال وصف المتكلّم لحال العرب قبل مجيء الإسلام ،وهذا مكن قوّتها الإنجازيّة ،فقد كَانَ العَربُ في جميع نواحي حياتهم مثالاً للتخلّف ،والجهل والضّلال ،م عظم أفكارهم ومعتقداتهم كانت مبنيّةً على الباطل والعرف الخاطئ حتى بعث الله النّبي عليه الصّلاة والسّلام ليبدّد هذا الظّلام القاتم ،وليضع للنّاس منهجًا ربانيًّا واضحًا في الحياة ،يضمن للنّاس حياة السّعادة والطّمأنينة التي ينشدون وقد عبّر عن هذا الفضل بجملة من الأفعال الكلاميّة الإخباريّة التي تضافرت معا لتقرّ بهذه الحقيقة **(أنار،فرج،جلا)**، فالزّمن الماضي كما هو معلوم يفيد تقرير الحقيقة ،وقد كان الخطيبُ صادقا في إبلاغ هذه الحقيقة ؛لأنّه على علم ومَخاطِبُه أيضا بفضل هذه الرّسالة السّماوية ،التي جاء بها النّبي محمد عليه أفضل الصّلاة والسّلام على البشريّة قاطبة والفعل التّأثيري النّاتج عن هذا القول هو حمل المتكلمّ مِخاطبه على الإقرار بما أثبته وذلك بوجوب إتّباع منهج النّبي محمّد بطاعته ،ومحبّته وتعزيره وتوقيره والقيام بأداء حقوقه التي أمر بها فطاعته من طاعة الله.

ويتحدّث في خطبة له في عيد النّحر يصف كتاب الله قائلا:«**كتابُ الله بيِّنَة بَصائرُه وآيٌ مُنكشِفةٌ سَرائرُه ،وبُرهانٌ مُنجَلِيَةٌ ظَواهِرهُ ،مُديمٌ للبَريَّة إسماعَه ،قَائدٌ إلى الرّضوانِ أتباعَه ،مُؤدٍّ إلى النّجاة أَشيَاعهُ ،فيه بَيانُ حُجَجِ الله المُنوَّرةِ ،وعَزائمُه المفسِّرةِ ومَواعِظُه المَكرَّرةِ ،ومَحَارمُه المُحذّرة ،جُملةً كَافيةً ،وفِسرَةً شَافيَةً ،وتِبيَانَة جَاليَةً**»[2]

أنجز الخطيب في هذا النّص جملا إخباريّة تحمل قوّة إنجازيّة تقريريّة بيّنت حقيقة وضع الله للقرآن الكريم ،وأثره في حياة الفرد المسلم ،فهو كتاب تدعو آياته إلى الخير ،وتقود البشريّة إلى الرّشد ،كتاب جامع شامل لأمور الدّنيا والآخرة، والفرد والجماعة ؛إنّه الدّستور المنظّم لحياة المسلم في جميع مناحيها ،وقد اعتمد المتكلّم –الخطيب– في ذلك

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص327

[2]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص328

على استخدام الأساليب المباشرة ؛لأنّها لا تترك للمرسل إليه مجالا للتّأويل، ولا توقعه في مزالق الفهم الخاطئ ،فهناك سياقات تحتاج إلى هذا النّوع من الأساليب، التي لا تناسبها الخطابات غير المباشرة، التي تعطي الأولوية للمتأدّب، ومردّ ذلك إلى أسباب كثير منها ما يتعلّق بأولويّة التّوجيه على التّأدب، فالمرسل يولي عنايته فيها لتحقيق قصده، وتحقيق هدفه الخطابي[1] ،وهو لَفَت الانتباه إلى أنّ القرآن معجزة خالدة، ولن يستطيع أحد المجيء بأصغر سورة،أو آية من مثله، ويرمي بذلك إلى أنّ الإسلام هو دين الحق الذي يجب إتباعه ،وهو الفعل التّأثيري الناتج عن هذا القول.

ويقول في خطبة له في النّكاح بعد حمد الله تعالى والثناء عليه والصلاة على رسوله « **ثمّ إنّ اللهَ سُبحانَه جَمعَنَا لأَمرٍ وضَعَ به عنّا إصرًا ،وجَبر مِنّا به كَسرا ،وسدّ به من ذَوي الفَاقةِ فَقرًا ،وأَحكَم بإبرَامِه مُتباعِد الأنسابِ ضَفرًا ،وصيَّر كَلامَنا في عِقدِ نِظامِه شَذرًا ،وأعادَ بِبرَكَتِه قِلَّ التَّناسُل كُثرًا ،وأَصَارَ بِيُمنِه نَجسَ المَوالِيد طُهرًا** »[2].

جاءت أفعال هذه الخطبة إخبارية بأسلوب مباشر ،وحمِلَت قوّة إنجَازِيّة تقريريّة خاصة بحِلّ النّكاح ،فهو ما أباحه الله ،وحلّله ،وأمر به ،وأذن فيه لحِكمةٍ ربّانيّة ،فقد رَفع الله به عن النّاس إصرَهم ،وجبر كسرهم ،وسدّد به فقر ذوي الفاقة ،وأحكم بقرانه متباعد الأنساب وكثّر به التناسل، وقد تضمنت فعلا تأثيريا يكمن في دعوة المتكلّم مخاطبه للزواج إذا استطاع الباءة لتعمير الأرض من أجل عبادة الله .

التّوجيهيات Directives:

هي ترجمة لمصطلح (Directives)، ويستعملها المتكلّمون ليجعلوا شخصا آخر يقوم بشيء ما ،و«غرضها الإنجازي محاولة المتكلّم توجيه المخاطب إلى فعل شيء ما واتّجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات worlds–to–words، وشرط الإخلاص فيها يتمثّل في الإرادة أو الرّغبة الصّادقة ، والمحتوى القضوي فيها هو دائما فعل السّامع شيئا في المستقبل»[3]،حيث أنّه«يمكن لهذه الأوامر أن تنطلق من الاقتراح الخجول لتصل إلى

[1]– ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري،استراتيجيات الخطاب،ص 32

[2]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 348

[3]– أحمد حسن كنون، التداولية بين النظرية والتطبيق ،ص 384

المطابقة الإجبارية»[1] ،و«يدخل في هذا الصّنف الاستفهام والأمر والرجاء،والاستعطاف والتشجيع ،والدّعوة والإذن،والنّصح بل التّحدي أيضا الذي جعله"أوستين" من أفعال السّلوك ،وكثيرا من أفعال القرارات عند " أوستين" تدخل في هذا الصنف»[2] .

والأفعال التّوجيهية تربط المتكلّم بمخاطبيه ؛لذا فقد تنوّعت دلالة ،ومقصديّة الأفعال التوجيهيّة في الدّيوان فهي تعدّ أصنافا جزئيّة من السّياق المقامي، «إذ يقصد المرسل انجازها،ويريد أن يدرك المرسل إليه هذا القصد »[3] ، ومن أمثلة ما تضمّنه خطب ديوان الخطيب قوله:«**اقطَعُوا بتَقوَى اللهِ أودِيَة الأَعمارِ، وارفَعُوا في جهاد عدوِّ اللهِ أَلوِيَة الأبرار واصدَعُوا بكِتابِ الله قُلوبَ المُنافِقين ،وانزعُوا بادِّكار المَردّ إلى الله عن موبقات الأوزار والتَمسُوا كُنوزَ القُرآنِ في أَمثالِه وقِصَصِه**»[4].

نلحظ في النص استعمال الخطيب للأفعال التوجيهية بصيغة الأمر **(اقطعوا،ارفعوا اصدعوا انزعوا،التمسوا)** ،والأمر«هو طلب تحقيق شيء ما، ماديّ أو معنوي ،وتدل عليه صيغ كلاميّة أربعة هي فعل الأمر، المضارع إذا دخلت عليه لام الأمر، اسم فعل الأمر المصدر النّائب عن فعل الأمر»[5]، وارتبطت الأفعال التّوجيهية السّابقة بضمير متّصل **(واو الجماعة)** ،وهُو يُحيل على المخاطب ،ولكنه غير معروف لدينا ،وعليه فإنّنا نرجّح أن يكون المحال عليه بهذا الضمير أهل عصر الخطيب ،ونخصّ منهم المجاهدون في سبيل الله ،فإنّهم بحكم الافتقار إلى القرينة اللّفظيّة الصّارفة ،المعنيون بالخطاب قبل غيرهم ،وقوّتها الإنجازيّة تكمن في الحثّ والتّشجيع ،بشحذ الهمم ورفع الروح القتاليّة ،وقد استخدم الخطيب سلطة الخالق (الله عزّ وجلّ) عندما جعل عدوّهم عدوّ الله ،وبذلك يكون قتال العدوّ قتالا لعدوّ الله ،ممّا يضفي على المعركة الصّفة الدّينية والشّرعية،واتجاه المطابقة في تلك الأفعال كان من العالم إلى الكلمات ؛أي جعل الواقع يلائم الكلمات

---

[1]–فرنسواز أرمينكو،المقاربة التداولية،ص 67

[2]– محمود أحمد نحلة ، آفاق جديدة في البحث الغوي المعاصر ، ص 89

[3]– علي آيت أوشان،السياق و النص الشعري من البنية إلى القراءة، ط1،دار الثقافة للنشر و التوزيع، الدار البيضاء، المغرب،2000م،ص60

[4]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 302

[5]–عبد الرحمان حسن حبكه الميداني،البلاغة العربية أسسها وعلومها،وفنونها، ج1،دار القلم، دمشق،1996م، ص228

فقد«شهِدت الفترة التي عاشَها ابنُ نباتة صراعاتٍ داخليَّة، وتفكُّكًا في الولايات الإسلاميَّة وتعرَّضت حدودُ الإسلام لهجمات شرِسة من قِبَل الرّوم،ثمَّ ظهور حركات منحرِفة كالقرامِطة وغيرهم» [1] ،والفعل التّأثيري المطلوب حصوله من هذه التّوجيهيات هو دفع المتلقّي ،وحثّه على الجهاد نظرا للقيمة العليا لهذا الحدث،وتأثيره على مصائر المسلمين.

ويمكن تمثيل ما سبق بالمخطّط التّالي :

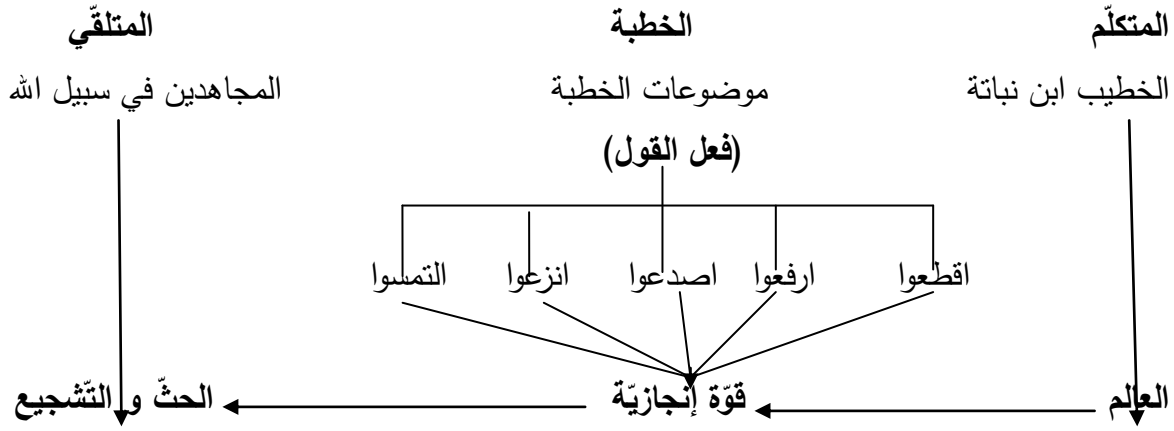

ويقول أيضا في خطبة يذكر فيها دخول شهر رمضان: «**اقتحمُوا حَلبةَ السِّباق إلى الفوزِ الأكبرِ ،واغتنمُوا صُحبَة الرِّفاقِ في الشَّهرِ الأَزهَر ،وتسبّبُوا لادّخار الزّاد في العمر الأقصر،وتأهّبوا للمعادِ إلى يومِ المحشرِ،فقد عَمَّتكُم-رحمكُم الله- من شَهرِ رَمضانَ النِّعمةُ السَّابغَة ،ولزِمتكُم من الله الحُجّةُ البَالغَة**»[2]

يتوجّه الخطيب بهذا القول إلى مخاطبه،الذي استحضره في ذهنه لحظة إنشاء الخطاب ونرجّح أن يكون ذلك المخاطب المستحضر ،أهل زمان الخطيب ابتداء ،ثمّ لا مانع من أن يتّسع الخطاب لكلّ من قدر له أن يتلقاه ،ولو بعد حين ،واعتمد في هذا القول على الفعل التّوجيهي الذي تضمّنه الأمر في الأفعال (**اقتحمُوا،اغتنمُوا،تسبّبُوا،تأهَّبُوا**) ،وقوّتها الإنجازية هي التّوجيه والإرشاد ،من خلال توجيه المخاطب إلى حمل نفسه على الطّاعة والاجتهاد فيها ،في شهر رمضان الذي يكون فيه الأجر مضاعفا ،والمخاطب ليس جاهلا بهذا الأمر ،لكنّه في غفلة عنه ؛لذا افترض المتكلّم وجود هذه المعلومات لدى المخاطب لأنّه مسلم فذكّره بها للضّفر بالمبتغى ألا وهو إعداد الزّاد ليوم الحساب ،والتزم ابن نباتة

[1]- مرشد الحيالي، ديوان ابن نباتة في الميزان، مقال منشور على موقع شبكة الألوكة،2010/06/19م، تاريخ الزيارة 2019/03/23، في الساعة 21:51 ، https://www.alukah.net/sharia/0/22791/

[2]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 88

في هذا التّوجيه بالرّغبة الصّادقة ؛لأنّه إمام فقيه دوره توجيه ،وإرشاد أمته،والفعل التّأثيري المتوخّى من قول الخطيب هو نصح مخاطبِه ،وإرشاده إلى بذل الجهد ،والإسراع في اغتنام فرص مواسم الخير التي امتنّ بها الله على عباده ،ومنها شهر رمضان الذي تُضاعَف فيه الحسنات، وتمحى السيئات،وترفع الدرجات.

والخطيب في خطب ديوانه يحرص دائما على دعوة متلقّيه لما فيه خير وصلاح له في الدّنيا والآخرة فيقول:«**فبَادرُوا –عبادَ الله– فِكاكَ رُهونِكُم قبل أن تغلقَ ،إدراك نُفوسَكُم قبل أن تُزهَق ، وشمِّرُوا للعَملِ قبل أن يَقطَعكُم الفَوت ،فمَا بينَ أَحدَكِم ،وبينَ مُعايَنة هذا الأمرِ العَظيمِ إلّا الموت**»[1].

تضمّن مقطع الخُطبة أفعالا كلاميّة أمريّة قوّتها الإنجازيّة التي أفادتها هي التّحذير والوعيد ،فيجب على النّاس أن يُبادروا ،ويفكّوا ما رهنوا به لخالقهم ،وأن يدركوا أنفسهم بالعمل الصّالح قبل أن تزهق نفوسهم ،ويفوت عليهم الثّواب ،كلّ تلك الأفعال التّوجيهيّة تضافرت ؛لأجل فعل تأثيري يتمثّل حثّ المتلقّي مخاطبه على الاعتبار،وتحذيره من خطورة ما هو مقبل عليه.

يقول أيضا:«**وكُونُوا قومًا سلمت قُلوبُهم من دنس النِّفاق ،واتَّخذُوا العدّةَ لِيومِ التَّلاقِ فإنَّ الأجرَ على حَسبِ الأَعمالِ وَزنًا بِوزنٍ ،وَمِكيَالًا بِمكيَالٍ ،ومَن كَانَ معَ الله ،كانَ اللهُ معه ،ومَن زَرعَ التّقوَى حمَد عندَ الحَصادِ ما زَرَعهُ،فلا تَجعلُوا لِمعاصِي الله عليكُم سَبيلًا ولا تشتغلُوا بالدّنيا اشتغالَ مَن لا يَجدُ عَنهَا تَحوِيلًا، وأرفُضُوها فلَيسَت لكم مقرّا،ولا مَقِيلا واعملُوا للآخرة ،فإنّها خير لمن اتَّقَى،ولا تُظلمُون فَتِيلًا**»[2].

المخاطب في هذا النّص غير مدلول عليه بظاهر اللفظ ،وإنّما يستخلص استخلاصا وذلك المخاطب هو أهل عصر الخطيب ،وكلّ من قدّر له أن يتلقّ الخطاب ،ولو بعد حين،وقد بدأه الخطيب بأمر **(كونوا،اتخذوا)** ، وهو يتضمّن فعلا كلاميّا توجيهيّا غرضُه الإنجازي هو النّصح والإرشاد ،من خلال دعوة الخطيب المتلقي إلى أن يكونوا قوما صادقين ،قلوبهم غير مدنسة بالنّفاق ،وكذلك الاستعداد للقاء المولى الذي يحاسبهم على

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 173

[2]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 364–365

أعمالهم التي اجترحُوها في حياتهم الدّنيويّة،ثم جاءت بعده جمل توجيهيّة تحمل قوّة إنجازيّة لإقناع المستمع (**فإنّ الأجر على حسب الأعمال وزنا بوزن ،ومكيالا بمكيال ومن كان مع الله كان الله معه ،ومن زرع التقوى حمد عند الحصاد ما زرعه)** ؛ إذ أنّ المتكلّم يحاول انجاز الفعل التّأثيرى في مخاطبه ،ليبدأ فورا بالفعل المطلوب منه، ثم اتّجه ابن نُباتة إلى صيغة النّهي (**لا تجعلوا،لا تشتغلوا)** والنّهي«هو طلب الكفّ عن شيء ما مادي أو معنوي،وتدل عليه صيغة كلامية واحدة وهي، الفعل المضارع إذا دخلت عليه "لا "النّاهية»[1] ،وهذه الصّيغة فعل كلامي توجيهيّ ،حملت في النّص قوّة انجازيّه تتمثّل في تحذير المخاطب من الانزلاق في المعاصي ،والاغترار بالدّنيا ،والانغماس في ملذّاتها إذا ما هي أقبلت ،وبسطت سلطانها عليه ،وبعدها يعزّز خطابه بأفعال توجيهيّة صيغتها الأمر **(أرفضوها،اعملوا)** ،يدعو من خلالها الخطيب إلى الابتعاد عن الدّنيا الزّائلة ،بتجنّب شهواتها ،والعمل للآخرة الدّائمة التي لا يظلم فيها مثقال ذرّة ،فالجزاء فيها من جنس العمل والفعل التّأثيري المرجوّ حصوله من جملة هذه الأوامر ،والنّواهي هو سعي المخاطب حثيثا وأن لا يدّخر جهدا في العمل ،والاتّصاف بكلّ ما من شأنه أن يقرّبه لله ،والاجتناب عن كل ما يبعده ،ويحيده عن الطّريق المستقيم الذي رسمه الله حتّى تكون خاتمته سعيدة ويكون له مقام رفيع عنده عزّو جلّ.

ويعدّ الاستفهام من الأفعال التي تنتمي إلى صنف التّوجيهيّات إذ « يعدّ استعمال الأسئلة الاستفهاميّة من الآليّات اللّغوية التّوجيهيّة ،بوصفها توجّه المرسل إليه إلى خيار واحد،وهو ضرورة الإجابة عليها ،ومن ثمّ، فإنّ المرسل يستعملها للسّيطرة على مجريات الأحداث ؛بل وللسّيطرة على المرسل إليه ،لا حسب ما يريده الآخرون ،وتعدّ الأسئلة خصوصا الأسئلة المغلقة من أهمّ الأدوات اللّغوية لإستراتيجية التّوجيه »[2] ،وهو فعل انجازي من جهة المخَاطب ،والغرض منه تحقيق ما في ذهن المرسل ،والمخَاطب «والاستفهام لطلب حصول في الذّهن ،والمطلوب حصوله في الذّهن ،إمّا أن يكون بشيء

[1]- عبد الرحمان حسن حبكه الميداني،البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ج1،ص 231

[2]- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، ص35

على شيء أوّلا يكون »[1] ،ويخرج الاستفهام في كثير من الحالات عن مراده الحقيقي «والمتمثّل في طلب الإفهام ... ،ولكونه طلب ارتسام صورة ما في الخارج في الذّهن لزم أن لا يكون حقيقة إلّا إذا صدر من شاك مصدق بإمكان الإعلام، فإن غير الشّاك إذا استفهم يلزم منه تحصيل الحاصل ،وإذا لم يصدق بإمكان الأعلام انتفت عنه فائدة الاستفهام إلى إنجازات أخرى يتحوّل بموجبها من استفهام حقيقي إلى استفهام بلاغي»[2] و«إنّ الخروج من الاستفهام الحقيقي إلى الاستفهام البلاغي ،يهدف لتحقيق أفعال إنجازيّه»[3] ،ومن أمثلته في خطب الديوان: « **مَن أَسوَأ حَالاً مِمَّن استعبَده هَواهُ،أم مَن أكسَفُ بَالًا مِمَّن أَبعدَه مَالكَه ومَولَاه ،أم مَن أَخسَر صَفقَة مِمَّن بَاعَ آخرَتهُ بِدُنيَاه،أم مَن أَكبَر حَسرةً مِمَّن كَانَت النَّار مُنقَلَبَه ومَثوَاهر،فمَا للغَفلَة قد شَملَت قُلوبكُم ،ومَا للغَيرَة قد سَترَت عنكُم عُيوبَكم، ومَا للطَّمعِ صغَّرَ عِندَكُم ذُنوبَكم**»[4].

المخاطب في هذا المقطع هو ما يحيل عليه ضمير الغائب (الهاء)، وهو غير معروف وقصارى ما نعلم من أمر هذا الضّمير،أنّ الخطيب يخاطب شخصا هو عندنا إنسان عصره ؛إذ هو المعني بالخطاب أوّلا ،ولا مانع بعد ذلك أن يتّسع الخطاب لكلّ متلق ،وإن لم يقصد إليه الإمام قصدا على وجه التّعيين، وبُني هذا المقطع على استفهام أداته "مَنْ" التي يسُأَل بها عن العاقل،والذي خرج به الخطيب من حقيقة السّؤال إلى فعل إنجازي آخر هو التّوجيه والإرشاد ؛لأنّ الخطيب من خلال هذا الاستفهام نقل أذهان السّامعين إلى مفاضلة عقليّة بين عناصر خارجية محكومة بوقائع ثابتة،فقسّم أحوال النّاس على أصناف منهم من كان حرّا في معيشته لا يرى ربّا غير خالقه ،ولا يرى نفسه عبدا إلّا لله ،ومنهم من كان تابعا لهواه مستبعدا لملذّاته ،ثمّ قسّم النّاس على أحوال أخرى ،فمنهم من كان باله مرتاحا حينما قربه مولاه ،وخالقه منه ،وجعله في الدّرجات العليا ،ومنهم من كان كسيفا

---

[1]– أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي ، مفتاح العلوم، ط1، تحقيق : نعيم زرزور، دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان ،1983م ، ص 415

[2]–عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي ،الإتقان في علوم القرآن،ط1، المطبعة الأزهرية،مصر،1979م ج2،ص 79

[3]– شيتر رحيمة،تداولية النص الشعري جمهرة أشعار العرب نموذجا ، ص182

[4]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 146

باله مذموما ؛حينما أبعده مولاه عنه،ثم رتّب الحقائق في سلّم آخر عندما جعل في حياتهم وكأنّهم يعقدون صفقات تجاريّة ،فمنهم من باع دنياه بآخرته،ومنهم من باع آخرته بدنياه ثم جعل النّاس فيه على درجات منهم ،مَن تكون الجنّة مثواه فيعيش هانئا مرتاح باله،متنعما ،حامدا وشاكرا، ومنهم من تكون النّار مثواه فلا توجد أكبر من حسرته ،وكلّ تلك الأصناف الموضوعة لأحوال النّاس كانت تصبّ في خانة واحدة ،وهي حثّ المتلقّي وتوجيهه على أن يكون من صنف الأقسام المفضّلة،والتي جعل الخطيب أفضلها من كان عبدا لله وترك هواه ،ومَن قربه مولاه منه درجات ،ومَن ربحت صفقته بأن باع دنياه بآخرته ،ومَن كانت الجنّة مثواه ،وهذا ما يهدف إليه الفعل التأثيري في الخطاب.

ويقول أيضا:«**فيَا مَعشَر الشُّيوخِ هَل بَعدَ ابيِضَاضِ الزَّرعِ إلّا حَصادَه ،ويا مَعشَر الكُهولِ مَا نُصِّف من الثّمار فقد آن جِدادُه ،ويَا مَعشَر الشّبابِ كَم مِن زَرعٍ أبَادَه قَبل البُلُوغ قُمَّلَه وجَرَادِه** »[1].

حدّد أسلوب النّداء في هذا المقطع الفئة المستهدفة من الخطاب في كلّ مرّة إضافة إلى ذلك ،فهو يلزم المخاطب بالامتثال ،وفيه يظهر حرص المخاطَب على إقبال المخاطِب وقد طرح الخطيب من خلال أسلوب الاستفهام الذي ورد بالأداة "هل" فعلا طلبيّا توجيهيّا يتمثّل في ما يجب على المرء أن يفعله ،إذا ظهرت دلالات نهاية حياته الدّنيوية ،وقد اعتمد في ذلك على قياس التّمثيل حين قاس على ابيضاض الزّرع دلالة على أوان حصاده ،وما نصف من ثمار النّخيل فقد حان قطافه ،وهو قياس على ابيضاض شعر الإنسان دلالة على أوان نهاية عمره ،ولكن ينبغي الالتفات إلى قضيّة مهمّة في قياس الخطيب ،وهي أنّ الخطيب يقيس على نهاية عمر الزّرع ،وهي نهاية محمودة ؛ لأنّ نهاية عمره مؤذنة بجني الثّمار ذات الفائدة الكبيرة على الناس ،وكذلك يجب علينا أن ننتبه إلى قصده ،فإنّ نهاية عمر الإنسان يجب أن تكون ذات فائدة كبيرة بأن تجني منها ثمار العمل الصّالح الذي يجنيه الناس ،وينتفعون به من بعده ،وينتفع به في حياته الأخرى وهذا مكمن القوّة الانجازيّة فيه،فبهذا الأسلوب أراد أن يصحّح مسار حياة المسلم بإقناعه والتّأثير فيه ،وإرشاده إلى الوجهة الصّحيحة، ثمّ يعزّز الاستفهام السّابق بآخر(**كم من زرع**

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 115

أباده قبل البلوغ قمّله وجراده) ،وخرج عن حقيقته ليحقّق قوّة إنجازيّة هي التّنبيه والتّحذير والتي تولّد عنها فعل تأثيري هو الاحتراس ،والحيطة ممّا قد يفسد العمل الصّالح للإنسان في حياته الدّنيا ،وقد اعتمد في ذلك على القياس أيضا فهو يقيس فساد الزّرع بسبب الآفات التي تصيبه ،وهو لم يك ليبلغ النّضوج ،والقطاف بعد بعمر الإنسان الذي يجب أن ينتهي بثمار الأعمال الصّالحة ،ولكنّه يقترف الذّنوب والآثام فتفسد ما قدّمه.

ويقول الخطيب أيضا:«**أَينَ أهلُ المَعاقِل المَنِيعةُ ،والمَنازِل الرَّفيعَة ،والأبنِيَة العَجيبَة أَينَ مَن أَطالَ الأَمل ،واستعذب المهل، أَينَ المعجوب الممنع ،وأَينَ المُهيبِ المُمتِع ،وأَينَ الذّكي الأروع ،وأَينَ الفَصيحُ المِصقَعِ،أَينَ مَن كَانَ فيه مَنظَرٌ ،ومَسمَعٌ وخِلالُ الشَّرفِ الأَجمَع ،مَطرَت ،والله مِن السّماء سُحبٌ هُمعُ ،وحَامَت عَليهِم منَ الآفاتِ طير وُقَّعٌ وعَصفَت بهم مِن المَماتِ رِيح زَعزَع وابتلعتهم الفلاة البَلقَع**»[1].

في هذا النّص المخاطب لا يدلّ عليه ظاهر فعل القول ،وإنّما يستنتج استنتاجا،وذلك المخاطب هو أهل زمان الخطيب ،فإنّهم بحكم واقع الحال المعنيون بالخطاب قبل غيرهم ولا حرج في أن يتّسع الخطاب ليشمل كلّ مخاَطب قدّر له أن يتلقّ الخطاب ،ولو بعد حين ،وأنجز الخطيب من خلال الاستفهام الذي كانت أداته "أين" فعلا كلاميّا توجيهيّا بعد أن تجاوز قوّته الحرفيّة ،وهي الاستعلام والاستخبار إلى النّصح و الإرشاد ،فحينما قدّم الاستفهام حقائق مشاهدة من ذهاب عزّ،ومنعة من سبقنا من جبابرة العصور الآلفة وسلاطين العصور ،والذي أطال الأمل في الحياة ،واستعذب إمهال الله له ،وأرجأ العمل الصّالح ،وحتّى أصحاب العلم ،والنسب الرفيع فتح مجال التّفكر لدى المتلقّي بإدراكه ألا شيء دائم ،وكلّ نعيم لا محالة زائل ،وهو ما نتج عنه فعل تأثيري يتمثّل في حمل المخاطب ،وتوجيهه إلى الاستقامة في الحياة ،وتكون هذه الاستقامة بصلاح النّفس ،وكبح جماح هواها فهلاك السّابقين أبلغ واعظ ،وأصدق مثال عن المصير المحتوم الذي هو آيل إليه لا محال، فتحقّق شرط الإخلاص ،ومطابقة العالم للكلمات ؛لأنّ ابن نباتة صادق في تقديم النّصح والإرشاد.

ويقول الخطيب في السّياق نفسه :«**أَتظنّونَ أَنَّكُم في الدُّنيَا مُخلَّدُون؟،أم تَحسِبُون أَنَّكُم**

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 182

من الموت مُحصّنُون ،ساء ما تَتوهّمُونَ ،هيهاتَ هيهاتَ إنَّكُم إذًا لغرورون،جدّ والله الرَّحيلُ فاحتَقبُوا زادًا كَافيًا ،ووجب السُّؤالُ فأَعِدُّوا جَوابًا شَافيًا...فكَأن قد نَعق بكُم نَاعِق الشَّتَاتِ ،ودَارت عَليكُم رَحى الآفَات»[1].

افتتح الخطيب قوله بفعل كلامي طلبي خرج من معناه المباشر الاستفهام ،وأداته "الهمزة" –**(أتظنّون أنّكم في الدّنيا مخلّدون؟،أم تحسِبون أنّكم من الموت محصّنون)**– إلى معنى غير مباشر،وهو التّنبيه من حالة الغفلة التي يعيشها الإنسان بادّعائه أنّه محصّن من الموت ،وخالد في الحياة الدّنيا ،فالسّؤال « يشكّل في العادة محطة تنبيهيّة تكسّر حالة الصّمت ،وتحلّ الكلام محلها »[2] ،إذ سرعان ما ردّ الخطيب هذا الادّعاء والتّوهم السّيئ بحقيقة الرّحيل ،ويقصد الموت ،لذا عزّز الخطيب ذلك بأفعال أمريّة **(احتقبوا، أعدوا)** ،قوّتها الإنجازيّة هي النّصح والإرشاد من خلال إعداد الزّاد المتمثّل في الأعمال الصّالحة ،وبعد ذلك وجب الحساب ،والسّؤال والاستعداد لتقديم الجواب الشّافي والخطيب صادق فيما دعا إليه ؛لأنّه استقاه من حقيقة الشّريعة الإسلامية ،كما أنّه أيضا إمام فقيه دوره هو إرشاد وتوجيه أمّته.

2-3: الوعديّات Commissives:

هي ترجمة لمصطلح"Commissives" تقرّ معظم التّرجمات إلى أنّ الوعديّات هي الالتزاميّات ،والمقصود بالوعديّات «تلك التي يستعملها المتكلّمون ليلزموا أنفسهم بفعل مستقبليّ،لأنّها تعبّر عمّا ينويه،وهي وعود ،و تهديدات، و تعهّدات، و يمكن أن ينجزها المتكلّم فقط باعتباره عضوا في مجموعة »[3] ،وقد « تبنّى سيرل التّعريف الأوستيني للالتزامات كشيء لا يمكن تجاوزه ، فالالتزامات هي الأفعال الانجازيّة التي تكون فيها الوجهة في جعل المتكلم ينخرط في فعل مستقبليّ »[4]،و«اتّجاه المطابقة من العالم إلى الكلمات ، و يتعلّق بشرط النّزاهة ،والمحتوى القضويّ،هو أنّ المتكلّم سيقوم بشيء ما »[5]

---

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 272

[2] – شيتر رحيمة،تداولية النص الشعري جمهرة أشعار العرب نموذجا، ص 189

[3]– جورج يول، التداولية، ص 91

[4]– فرنسواز أرمينكو،المقاربة التداولية،ص89

[5]– جاك موشلار،آن روبيل ، القاموس الموسوعي للتداولية،ص76

فما يُلاحظ أنّ اتّجاه المطابقة بين الالتزاميّات ،والتّوجيهيّات واحد،و لكنّ الاختلاف يكمن في «أنّ المرجع في الالتزاميّات هو المتكلّم ،أمّا في التّوجيهيّات فهو المخاطب، والثّاني أنّ المتكلّم في الالتزاميّات لا يحاول التّأثير في السّامع ، وفي التّوجيهيّات يحاول التّأثير فيه »[1] ،وهذا مكمن الاختلاف بين الاثنين ، فالوعديّات هي أفعال يلتزم بها المتكلّم طوعا بفعل شيء ما للمخاطب في الحاضر،أو المستقبل مع إخلاص النّية، والقصد وعزمه على الوفاء بذلك ومنها أفعال الوعد، الوفاء المعاهدة،الضّمان، الإنذار...،وتكون مطابقة الفعل من الواقع الخارجي إلى الكلمات بحيث يصيغ المتكلّم أفعاله بناء على صورتها الخارجية فإن وعد بالزّيارة مثلا، فينبغي أن يطابق وعدُه الشّروط الخارجية التي يتحقّق بها أداء الزّيارة في الواقع،وإنّ تلفّظ بذلك، فينبغي أن يكون قادرا على الإحاطة بها،وأدائها،وقد كان حضور الوعديات في خطب الديوان قليل ومن أشكال تجسيدها في الدّيوان قول الخطيب: « **فحتَّامَ وإلامَ وعَلامَ التَّخلُّف والمَقامُ، أَتطمَعُون في بقاء الأبدِ، كَلّا ،والواحدُ الصّمدُ إنّ الموتَ بالرَّصدِ ،لا يُبقِي مِنكُم عَلى أَحدٍ ،فكَأَن دَارَت عَليكُم دَوائرُه ،ودَهمتكُم عَساكِرُه وكَشفَت لكُم سَرائرُه...**»[2].

أورد الخطيب في بداية النّص أفعالا كلاميّة صيغتها الإستفهام الذي خرج عن قوته الحرفية إلى انجاز الاستبطاء في قوله: (**فحتام وإلام وعلام التخلف والمقام؟)** ،أي تخلّف المخاطب عن ركب الطّاعة الإلهيّة مظنّة خلوده في هذه الدنيا، ثم أفاد معنى النّفي في قوله (**أتطمعون في بقاء الأبد؟)** ، أي نفي بقاء خلودهم المزعوم ،ثم جاء بفعل كلامي وبكّت به حججهم في قوله:**(كلا والواحد الصمد إن الموت بالرصد، لا يبقي منكم على أحد ...)** وهو من صنف أفعال الوعد التي تفرض على الكلام التزاما معينا بكلامه وهنا المتكلّم يملك سلطة استقاها ووفّر المقبولية لها الاقتضاء المشترك بينه ،وبين المتلقّي فحقيقة الموت ظاهرة للعيان ،ومتّفق عليها من لدن طرفي الخطاب ،فلا يحتاج الخطيب إلّا إلى التّذكير بها ،واستعمالها بوصفها سلطة قوليّة تساعده في عمليّة الإقناع ،وصولا إلى غاية الحدث الإقناعي ،وهو الوعظ بما له فائدة على المتلقّي.

[1]– محمود أحمد نحلة،آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 79

[2]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 147

ويقول الخطيب: «**أُوصِيكُم عِبادَ الله ،وإيَايَ بتَقوَى الله ،فإنَّها أمنع المَعاقِل ،وأَنفَع الوَسائِل ،مَن لَزِمَها فَازَ ،وسَلِمَ ،ومَن حرمها امتازَ ونَدم**»[1].

في هذا النص غرض الفعل الكلامي إنجازي ،ويتمثّل في التزام التّقوى ،واتّخاذها شعارا لا يحاد عنه ،وقد صرّح الخطيب أسباب التّمسّك بها ،ولكلّ من التزم بها فهي كالدّرع الحصين له ،كما تعود عليه بالخير النّافع ،كما يظهر فعل الوعد في قوله :(**من لزمها فاز وسلم ،ومن حرمها امتاز وندم)** ،فالخطيب قطع على نفسه وعداً لمتلقيه بأنه إذا لزم التقوى كان من الفائزين،وإن حرمها كان من النادمين،والمحتوى القضوي لنتيجة هذا الالتزام أو عدمه سيتحصل مستقبلاً عند الباري عزّ وجلّ ، والخطيب في قطعه لهذا الوعد كان صادقا وموقنا بتحقّقه ؛لأنّه استقاه من حقيقة يؤمن بها هو ،ومتلقّيه وهي القرآن الكريم إذ قال عزوجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾(الأنفال:29)، ويقول أيضا:﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّـٰتٖ وَنَهَرٖ ﴿٥٤﴾ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۢ ﴿٥٥﴾﴾-(القمر:54-55)- ،والفعل التّأثيري المقصود هو جعل المتلقّي لتقوى الله ذخره في حياته ،فمع أنّ الخطيب يخيّر متلقّيه بين طريقين ،ويستعمل في ذكرهما المتناقضين (الفوز والندم) ،ولكن تخييره يضمر توجيها لأحد الطّريقين ،ويضمر فرضا لإحدى الجهتين من خلال ذكر مساوئ طريق النّدم ومحاسن طريق الفوز ،وهذه المقابلة دفعت بالمسار الإقناعي للمتلقي لاختيار الوجهة الصّحيحة .

وفي خطبة له في الموت يقول :«**حَاكِمُوا نُفوسَكم الظَّالمَة إليها ،وتَحمّلُوا بها في خلاصِها عليها ،وذَكِّرُوهَا أهوَالَ مَا بينَ يَديهَا ،واعلَمُوا أنَّ المَوتَ مَعصُوب برُؤوسِكم ومُنشِب مَخالبَه في نفوسكم**»[2].

ابتدأ الخطيب خطابه بمجموعة من الأفعال الكلاميّة التي اكتسبت قوّة إنجازيّة من معانيها المستلزمة التي ثوت خلفها فقوله:(**حاكموا نفوسكم الظالمة إليها ،وتحمّلوا بها**

[1]- ديوان خطب ابن نباتة ،ص57

[2]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 155

في خلاصها عليها) ،أفعال كلاميّة قوّتها الإنجازية التّهديد ،والوعيد للإنسان الذي يهمل مراجعة نفسه بقرينة (الظالمة) ،ثم استعمل الخطيب خطابا تلميحيا آخر بقوله:(**واعلموا أنّ الموت معصوب...)** ، فبما أنّ المقام هنا هو مقام تهديد ،ووعيد تخيل الموت كالوحش له مخالب فقد ركّز الخطيب في ذهن المتلقّي بأنّ من يعص الله سيكون عقابه أليما وكذلك فإنّ الوحش عندما يفترس الأشياء ،وينشب مخالبه فيها فإنّ ذلك من أقسى الآلام التي يتحمّلها المفترَس فقوله كناية عن عقاب العاصي بعد الموت .

وكلّ تلك الأفعال الكلاميّة التي تضمّنت التّهديد ،وتنفيذ الوعيد،تصنَّف ضمن الأفعال الالتزاميّة التي تجعل المتكلّم يلتزم بفعل الشيء ،وقد حقّق المتكلّم أفعاله الإنجازيّة هذه لتوفّرها على شروط الاستعلاء ،والسّلطة فالمخاطَب ،وحتى المتكلّم باعتبارهما مسلمين مؤمنين بالغيب لا يختلفان في أنّ الله سيحاسب كلّ إنسان على أفعاله بعد مماته وسيجازيه الجزاء الذي يستحقّ مصداقا لقوله تعالى:﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾(البقرة:281).

ومن الوعيد أيضا قول الخطيب معبّرا عن حال أهل النار: «**وكَم يَومَئِذٍ مِن شَابٍّ يُنادِي في نَار جَهنَّم وَاشَبَاباهُ ،ومَحاسِن وَجهَاه ،وكَم يَومَئِذٍ مِن كَهلٍ يُنادِي في نَارِ جَهنَّم وَاكهلَاه، وَا قِلَّة حِيلَتَاه ،وكَم يَومَئِذٍ من شَيخ يُنادِي في نَار جَهنَّم وَا شَيخَاه،وا كِبر سنَّاه ،وكَم يَومَئِذٍ مِن امرأةٍ تُنادِي في نَارِ جَهنَّم وَا فَضِيحَتاه ،وا مُصيبَتَاه ،شَرَابُ أَهلِها الحَمِيم ،وعَذابُهم أبَدا مُقيمٌ ،الزَّبَانيَة تَقمَعُهُم ،والهَاويَة تَجمعُهم لهُم فِيها بالوَيل ضَجيجٌ ولِلَهِبهَا فِيهُم أَجِيج**»[1] .

يقدّم لنا الخطيب في هذا النّص صورة معبّرة عن عذاب المجرمين في نار جهنّم الذين ألهتهم حياتهم الدنيا ،فانشغلوا في ساعاتها القليلة عن أمر الله ،وأعطوا لكلماته ظهورهم وغرّتهم شهواتهم ،وغرّهم الشّيطان فأبعدهم عن سبيل الرحمن ،فاستحقّوا العذاب الذي لا يخفّف عنهم ،ولا ينقطع في دار خلود لا فناء فيها ،جزاء بما قدّمت أيديهم من مظالم وكل تلك الأوصاف جاءت في سبيل تعزيز فعل الوعيد الإنجازي الذي توعّد به الله عزّ وجلّ

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 40

لعباده العاصين ،والخطيب افترض مسبقا وجود هذه المعلومات لدى المخاطبين ؛لأنهم من المسلمين المؤمنين بما جاء في كتاب الله عزّ وجلّ الذي يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا تُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦﴾ (فاطر:36)، ويقول أيضا:﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ٧٥﴾(الزخرف:74-75).

والغاية التّأثيريّة لهذا الفعل الالتزامي الذي أدّى غرض التّهديد ،والوعيد هو التّأثير في نفوس المتلقّين ،ورسم مسارا بحيث يبتعد فيه المخاطبون عن كلّ ما يؤدّي إلى هذا الهلاك والخسران المبين .

ويقول أيضا:«**ومَن أُوتيَ عِلمَ القُرآنِ فَلَم يَنتَفِع ،وزَجَر بنَواهِيه فَلم يَرتَدِع ،وارتكبت من المَآثِم قَبيحًا ،ومِنَ الجَرائِم فضوحًا ،كَانَ القُرآنُ عَليهِ شَهيدًا مَقبُولًا ،ولَقيَ بما فرَّط مِنه في الآخِرة حُزنًا طَوِيلًا**»[1].

يتحدّث الخطيب في هذا النّص عن الجزاء الذي ينتظر المسلم الذي يحفظ القرآن الكريم ،ولا ينتفع به ،ولا يعمل بأوامره وينتهي بنواهيه ،وفي حديثه عن ذلك يتّضح الفعل الإنجازي الذي يمثّله الوعيد بالهلكة في قوله:(**ولقي بما فرط منه في الآخرة حزنا طويلا)** ويكون هلاكه كبيرا ؛لأنّ هذا القرآن بمثابة الحجّة الشّاهدة على أفعاله عند الله تعالى يوم الحساب ،وفعل الالتزام هذا له فعل تأثيري يتمثّل في الحرص على كتاب الله،وعدم التفريط به ،وذلك بتعلّمة ،والالتزام بما جاء فيه من أوامر ،ونواهي فبِهِ يعرف العبد أمورَ دُنياه وأعمال أُخراه .

ويقول الخطيب في خطبة يوم النجر «**فَعظِّمُوا-عبادَ الله- ما عظّم اللهُ مِن حُرمةِ يَومِكم هذا بِالإيثارِ لِطَاعتِه ،والنُّزوع عن مَسَاخِطِهِ ،ومُخالِفتِه ،والتّوبَة إليه،واحضُرُوه بِسكِينة،ووقَار،ونِيّات خَالِصَة ،فإنَّ بالنِّيَات الخَالِصة،والأعمالِ الصَّالِحة ،يَستَنقِذُ اللهُ أهلَ الذُّنوبِ مِن مَصَارِع الهَلكَة ،ويُنجِّيهُم مِنَ الخَطَايَا المُوبِقَة**»[2]

[1]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 390

[2]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 326

استهلّ الخطيب حديثه في هذا النص بمجموعة من الأفعال الكلاميّة المباشرة **(عظموا،احضروه)** ،قوّتها الإنجازيّة هي التّوجيه ،والتّعليم إذ أنّ الخطيب بين من خلالها الآداب التي يتحلّى بها المسلم في يوم العيد المبارك ،وذلك بتعظيم شعائره ،وطاعته والابتعاد عن المحرّمات مع التّوبة وإخلاص النّية في ذلك ،ومن ثمّ عرض الفعل الوعدي-**(فإن بالنيات الخالصة والأعمال الصالحة يستنقذ الله أهل الذنوب من مصارع الهلكة وينجيهم من الخطايا الموبقة)**- المتمثّل بالمكافأة ،والجزية التي يحصل عليها كلّ من يتّصف بالنّية الصّادقة ،والأعمال الصّالحة،وهو وقوعه تحت طائلة لطف الله عزّ وجلّ ،وشموله بالسّرور الدّنيوي والأخروي ،حينما يغفر ذنوبه المهلكة ،وينجيه من خطاياه التي ارتكبها ،وهي محفّزات وقواعد رسمت سلوك المتلقّي باتّجاه مرمى الخطاب المتمثّل في المُواظبة على طاعة الله ،وشدّ الهمّة،والاجتهاد في عمل الخيرات بنيّة صافية والابتعاد عن المعاصي المهلكة .

3-4: التّعبيريات Expressives:

وترجمت أيضا إلى التّصريحيّات،وهي«تلك التي تبيّن ما يشعر به المتكلّم فهي تعبّر عن حالات نفسيّة يمكن لها أن تتّخذ شكل جمل تعبّر عن سرور ،أو ألم أو فرح ،أو حزن أو عمّا هو محبوب أو ممقوت ،يمكن أن يسبّبها شيء يقوم به المتكلّم أو المستمع ،غير أنّها تخصّ خبرة المتكلّم،وتجربته»[1]، فوجهة الانجاز فيها «هو التّعبير عن الموقف النّفسي تعبيرا يتوافر فيه شرط الإخلاص، وليس لهذا الصّنف اتّجاه مطابقة، فالمتكلّم لا يحاول أن يجعل الكلمات تطابق العالم الخارجي ،ولا العالم الخارجي يطابق الكلمات ،وكلّ ما هو مطلوب الإخلاص في التّعبير عن القضيّة ،ويدخل في هذا الصّنف أفعال الشّكر والتّهنئة،والاعتذار، التّعزية، والتّرحيب»[2] ،وهي تقابل الأفعال التّمرسيّة عند أوستين، ومن أمثلة هذا الصّنف قول الخطيب:[3] «**إنَّ الدَّهرَ ذُو عَجبٍ ،يَتقلَّبُ بِأهلِه كلّ مُنقَلبٍ ،عِداتُه خِدعٌ ،وهِباتُه لُمَعٌ مِنه ،وآفَاتُه دُفعٌ ،وكرَّاتُه قُرعٌ ،لا يَدعُ جَديدًا ،إلّا أَخلَقه ،ولَا عَتيدًا إلّا أنفَقُه ،ولَا مَريدًا إلا وهَّقَه ،ولَا عَديدًا إلّا فرّقه،أدَار رَحى المُنون على مَن سَلَف ،وسيُوردُ**

[1]- جورج يول، التداولية ، ص67

[2]- محمود أحمد نحلة،آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ،ص 80

[3]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص135

مَوارِدَهُم مَن خَلَف حتَّى يُلحقَ بعضًا بِبعض»[1] .

المخاطب في هذا النّص هم أهل زمان الخطيب ؛لأنّ أهل زمان كلّ عصر معنيّون قبل غيرهم بخطاب أهل زمانهم ،والخطيب يعبّر فيه متعجّبا من حال الدّهر مع النّاس وما فعله بهم ،وكيف أنّه يتقلّب بهم من حال لحال ،فيصف فعله معهم **(عداته خدع هباته لمع منه ،آفاته دفع،...،أدار رحى المنون على من سلف ،وسيورد مواردهم من خلف)** ،فالفعل الكلامي التّعبيري هنا هو الأسى ،والتّحسر على حال الخلق مع الدّهر الذي يعيشون فيه ،والخطيب يسعى لوصف شعوره هذا ،والتّعبير عن موقفه ،وما يراه اتّجاه ذلك ،من أجل التّأثير في المتلقّي،وحمله على الاعتبار من أحداث الدّهر مع النّاس لأجل أن يغتنم حياته بما فيه خير له بعد أن يكون قد استحضر الموت والحساب.

ويقول أيضا:«**مَا الانتِظارُ بِطولِ الغَفلَة عمّا أنتم إليه مُوجفُون ،ومَا الاعتِذاز عِندَ التَّقرِير بمَا أَنتُم به مُعترِفُون ،كَلَّا لَتعُضنّ الأنَامل على التّقصيرِ ،أَسفًا، ولَيفضَنَّ الكتابُ عمّا لا تَجدُون عنه مُنصرفًا ،يومَ عَطشِ الأَكبادِ ،وذُبولِ الشّفاهِ ،يومَ نُطقِ الجَوارِح وخَتمِ الأفوَاه ،يومَ يُعرفُ المُجرمُون بوَشمِ الجِباه ،يومَ لا تملِك نَفسٌ لنَفسٍ شَيئا ،والأمرُ يومئِذٍ لله**»[2] .

المخاطب في هذا النّص هو ما يحيل عليه الضّمير "أنتم" ،وهو لا يعدو أن يكون أهل زمان الخطيب فهم المعنيّون بالخطاب دون سواهم ،ولا مانع بعد ذلك أن يتّسع الخطاب لكل من قدِّر له أن يتلقّاه ،والخطيب يتحدّث ،وهو في حالة تعجّب من الحال الذي آل إليه الغافلون في هذه الدّنيا الذين يعيشون حالة لامبالاة غير آبهين بما ينتظرهم من حساب ،وعذاب وحملت عبارة **(كلّا لتعضنّ الأنامل على التّقصير أسفا)** جزاء هذه الغفلة المطبقة على قلوبهم ،وهي توحي بطاقة تعبيرية كبيرة ،قوّتها الإنجازية تعبّر عن حالة النّدم الشّديدة التي يعيشها ذلك الغافل ،الذي قصّر في حق الله عند لقاء ربه يوم القيامة والذي قدّم له الخطيب أوصافا **(يوم عطش الأكباد وذبول الشّفاه،يوم نطق الجوارح وختم الأفواه،يوم يعرف المجرمون بوشم الجباه،يوم لا تملك نفس لنفس شيئا)** ، وقوّتها

[1]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 111-112

[2]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 186

الإنجازيّة توحي بحالة الخوف التي يعيشها الإنسان المقصّر من هول ،وعظمة هذا اليوم خاصّة عندما تشهد عليه جواره بما عملته ،بعدما أنطقها الله الذي أنطق كلّ شيء ،فلا يمكن حينها الإنكار ،ولا عدل في العباد من جعل شهودهم من أنفسهم، في ذلك اليوم يعرف المجرمون وسماهم في وجوهم من أثر التّقصير ،والمخاطب هنا يعلم بعض هذه الأمور ،وافترض الخطيب وجودها لديه ؛لأنّها وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥﴾ -(ياسين:65)-،وقوله أيضا:﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يُعۡرَفُ ٤١ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ٤١﴾ -(الرحمن: 40-41)- ،وإنجازيّة الأفعال التّعبيريّة السّابق ذكرها تكمن في تثبيتها للفعل القولي،وتتعدّى إلى التّأثير في المتلقّي لإحداث الأثر النفسي فيه من خلال رسم طريق سلوك المتلقّي بشكل إيجابي ،وذلك بإقناعه بأهميّة الالتفات إلى نفسه الغافلة ليحاسبها على ما كان منها من تقصير ،ولا سيما ،وأنّ سبيل إقناع النّفس وردّها عن غيّها متاحة لكلّ مسلم ذي عقل يفكّر به خاصّة ،وأنّ لها ربّ سيحاسبها وجزاء سينتظرها.

ويقول في إحدى خطبه الجهادية: «**مَا لأَفرَاسِ الجِهادِ صَافتَة لا تَركُض ،ومَا لآسَادِ الجِهادِ خَادِرة لا تنهضُ ،أَحينَ تَألَّق شِهابُ الإيمَان فسَطع ،وتمَزَّقَ ضَبابُ البُهتانِ فانقَشعَ ،وزهُق بَاطلُ ذوي الأبطَالِ فانقَمَع ،أخلَدتُم إلى الدَّعةِ قبل أوانِ الأَخلَاد ،وأَغمَدتُم سُيوفكُم مِن مَقارعَة الأضدَادِ ،وقَعدتُم عن الأخذِ بنَارِ الحُرم والأولاد** »[1] .

إذا كان الفعل هنا أقرب إلى التّعبير –وهو كذلك– فإنّ المعني بالخطاب في المقام الأوّل هو الخطيب ذاته ؛لأنّه يجد في التّعبير عمّا يحسّه في قرارة نفسه متنفّسا ثم لا مانع بعد ذلك من أن يتّسع الخطاب إلى آخر ،وهو حسب ما يحيل إليه فعل القول المسلمين المجاهدين في سبيل الله ، حيث قدّم نصّ الخطبة مشهدا لحيرة وقع فيه الخطيب فاحتار من تقصير المسلمين ،وتوانيهم عن الجهاد ،واستكانتهم للرّاحة بعدما منّ الله عليهم بنعمة النّصر ،ويظهر ذلك من خلال الفعل الكلامي التّعبيري الذي مضمونه استفهام **(ما لأفراس**

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 306-307

الجهاد صافتة،وما لآساد الجهاد خادرة ،أحين تألّق شهاب الإيمان...) خرج من معناه الحرفي إلى معنى إبداء الحيرة ،والخطيب في التّعبير عن هذه الحالة النّفسية التي اعترته مدرك عاقبة ذلك ،مخافة أن تُبدل هذه النّعمة نقمة عليهم ،والفعل التّأثيري في هذا الموقف النّفسي الذي عبّر عنه الخطيب بكلّ صدق وإخلاص هو تحفيز المجاهدين في سبيل الله على مواصلة الجهاد ضدّ أعدائهم من الكفّار،حتّى يحافظوا على هذه النّعمة ،ولا يفرّطوا فيها ،وأن يقدّروا للعدوّ قدره فلا يستهينوا ،ولا يركنوا إلى الدّعة ،ولا يهادنوا حتى يبقى نور الإسلام ساطعا وراية المسلمين شامخة.

وفي خطبة له عن عيد الفطر يقول فيها: «**اللهُ أكبر الله أكبر واجتنبُوا الخمرَ فإنَّها أوبقُ مصائِد الشّيطان ،ورأسُ الإثمِ والعُدوانِ ، ومِفتَاح الفُسُوق والعِصيان ،وأَعطَب مواردِ الإنسانِ ،تُزيلُ مَا أَلبسكُم اللهُ بَهجتَه ،وألزَمكُم بكُم حُجّته ،وسَلك بكُم مَحجَّتهُ من العقل الذي مَن عَدمَه بهِم، وَمن لَزِمهُ عَلم ،ومَن إِئْتَمَّهُ سَلمَ**» [1] .

عبّر الخطيب في هذا النّص عن الشّعور الذي يشعره اتّجاه ما حرّمه الله ،ألا وهو الخمرة ،فبالرّغم من كون نصّ الخطبة توجيهيّا ،إلّا أنّ الخطيب عبّر عن فاحشة شرب الخمر ،ووصفها بأوصاف بيّنت خطورتها على الفرد والمجتمع ،وذلك إنَّها مفتاح كلِّ شرٍّ ومنفّذ كلِّ بلاء، فهي تجمع كل الخبائث الدّينية والدنيوية ،فصاحبها مفسد ة لعقله، مفسد ة لبدنه ،وقوته ومنهكة لصحّته ،وقد ولّدت تلك الأوصاف التي نسبها الخطيب للخمرة فعلا تعبيريّا ،بيّنت قوّته الإنجازيّة مدى كره الخطيب ،وشدة مقته ،واستقباحه لهذا الفعل الذي سمّي بأمّ الخبائث ،وذلك من أجل أن ينفرَ الخطيب المتلقّي منها ،ويرشده لاجتنابها بعدما أعلمه بخطورتها ،وهو الفعل التّأثيري المرجو تحقيقه من قبل المت كلّم ،وهذا إن دلّ على شيء ،فإنّما يدلّ على أنّ أثر الفعل التّعبيري يتجاوز صاحبه ليحقّق أغراضا إنجازيّة أخرى غير التّعبير عن الموقف النّفسي ،إذ ليس من اللّازم،أن تقتصر هذه الأفعال على ما هو خاصّ بالمتكلّم من أحداث، بل تتعدّاه إلى ما يحدث للمشاركين في الفعل[2].

فمن أقسام الأفعال التّعبيرية ما يصطلح عليه بالتعبيريات الاجتماعية ، وهي التي

---

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 322

[2]– ينظر: محمود أحمد نحلة ،آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 104

تتّصل بوجدان المتكلّم،لكنّها تقتضي مشاركة من المتلقّي،بحيث يلتفت المتكلّم إلى حالة المتلقّي وكون هذا المتلقّي مشاركا أساسيّا في الموقف التّداولي [1] ،ومن أمثلتها قول الخطيب: « **أيُّهَا النَّاسُ:إنَّ المَوتَ بَابٌ لابُدَّ مِن دُخُولِه، وضَيفٌ لا رَيبَ في نُزُوله، وهَاجِمٌ لا مُدفعَ مِن حُلولِه ،وصَارِمٌ لا مَطمَع في كُلولِه** » [2] .

لقد عبّر الخطيب عن شعورة وحالته النّفسية اتّجاه الواقع الخارجي حينما تحدّث عن الموت ،وبيّن حقيقته للمخاطب ،وهي تعبيرات اجتماعيّة ،تستلزم تزهيد المتلقّي في الدّنيا والإشارة إلى مصيره ،ونهايته الحتميّة ،فقد ركّز الخطيب على حدث الموت ،ووقوعه ليُنبِّه المتلقّي فيستَعدّ له ،فاعتبره كالباب المفتوح ،ولكن كلّ النّاس داخلونه ،وكالزّائر يطرق أبوابنا فجأة ليختطف أحدنا ،وتارة كالعدوّ الذي يحلّ فيهجم دون سابق إنذار ،وأخرى كالسّيف القاطع الذي يقضي على عمر الإنسان ،وقد جسّدت كلّ تلك التّشبيهات السّابقة حالة خوف المتلقّي ،وشعوره الدّاخلي إزاء الموت ،وتدلّ في الوقت نفسه على صدق تعبير المتكلّم ،وإخلاصه واعتقاده فيما يقول.

ويقول الخطيب أيضا« **أيُّهَا النَّاسُ:إنَّ الفِتنَة نارٌ شَديدٌ ضِرامُها ،بَعيدٌ مَرامُها،جَائرةٌ أَحكامُها ،دَامرةٌ أَعلامُها مَسمُومةٌ سِهامُها ،مَذمُومَة أيَّامُها ،تُغيِّر النِّعَمَ ،وتُعجِّلُ النِّقمَ وتَقطَعُ وَشايِجَ التَّواصِل ،فتَصِير بِأهلِها إلى البَغضَاء ،والتَّخاذُل**» [3].

عبّر الخطيب في هذا النّص عن الخطر الكبير،والشرّ المستطير لأحد الآفات التي قد تنخر المجتمع ،وتهلكه ألا ،وهي الفتنة فهي إذا ما أُيقضت نار شديدة الضّرام تأتي على الأخضر واليابس ،وتفرّق وتمزّق أواصر المجتمع ؛بل وتقلّب نعمه نقما ناهيك على أنّها تنشر العداوة والبغضاء بين أفراده ،وما ذكر الخطيب لتلك الأوصاف التي نعت بها الفتنة إلّا تعبيرعن موقفه النّفسي اتّجاهها فهو يكنّ لها كلّ مشاعر الكره والذمّ ،والخطيب صادق في إحساسه باعتباره فردا موجّها لإخوانه المسلمين الذين جعلهم الله إخوانا ،وأمرهم أن يكونوا على البرّ والتّقوى أعوانا ،وهو مؤمن بما جاء في القرآن الكريم الذي تأثّر به حين

---

[1]- زهراء جياد البرقعاوي،الأفعال الكلامية في خطب الإمام الحسين دراسة تداولية،مجلة الكلية الإسلامية الجامعة النجف الأشرف، العدد43،ج2، ص 604

[2]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص361

[3]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 283-284

تحدّث ع ن خطورة الفتنة في خطبته ؛إذ قال عزّ وجلّ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥ ﴾ -(الأنفال: 25)-، فما صرّح به الخطيب من مشاعر اتّجاه الفتنة يعدّ أيضا من التّعبيرات الاجتماعية التي تستلزم تبغيض المتلقّي لها بنبذها ،واتّقاء شرّها ،وهذه القوّة الإنجازيّة ، تلقي بظلالها على الفعل التّأثيري للخطاب عن طريق ابتعاد المتلقّي ،وتحذيره من أن يسلك سبلها.

كما أنّ الأفعال التّعبيرية تكشف خفايا النفس البشرية ،وتبيّن انفعالاتها ،والهدف منها هو«التّعبير عن حالة سيكولوجيّة محددة»،[1] وشرط هذه الحالة النّفسيّة هو عقد النّية والصّدق في محتوى الخطاب،وفي ذلك يقول الخطيب: «**محمّدُ سَليلُ الحَواصنِ ،ولُبابُ خَيرُ المُعاونِ ،ابتَعثَه الله نَبيًّا ،وانتَخَبه نَجيًّا ،واصطَفاه وَليًّا،طَيِّبا طَاهرًا عَربيًّا ،مُوجَّها مُشَرِّفا قُريشيًّا،صلّى الله عليه ،وعلى آله وسلّم، كما أعزّهم به وكرم**»[2] .

يعبّر الخطيب في هذا المقطع عن المشاعر التي تختلج في نفسه ،ويكنّها للنّبي محمّد عليه أفضل الصلاة والتّسليم ،وبما أنّ الفعل الإنجازي هنا هو أقرب إلى الفعل التّعبيري منه إلى الأفعال الحاملة للقضايا ،فإنّ المخاطب هو ذات المتكلّم في المقام الأوّل ،ولا ضير بعد ذلك من التّكهّن بوجود مخاطب ،والمتوارد إلى الذّهن أن ذلك المخاطب هو أهل زمان الخطيب فإنّهم–بحكم واقع الحال– المعنيّون قبل غيرهم ،ولا مانع من أن يتّسع الخطاب ليشمل غيرهم ،ممّن قدّر له أن يتلقّى الخطاب ،وإن لم يقصد إليه الخطيب والمقطع السّابق قدّم جملة من الأحاسيس التي تحمل كل معاني الحبّ ،وقد بيّنت في الوقت نفسه المكانة العالية للرّسول في قلب الخطيب ،وظهر ذلك جليّا في إشادته ومدحه لشخصه عليه الصّلاة والسّلام بذكر فضله ومآثره وعلوّ نسبه وطيبة نفسه الطّاهرة فاختاره الله نبيّا واصطفاه مرشدا معلّما وموجّها للأمّة العربيّة التي كانت تعيش في غياهب الجهل والوثنية ،وهذا الفعل التّعبيري يتعدّى أثره من الخطيب إلى المتلقّي(أهل زمان الخطيب) حينما يوقظ فيهم أحاسيس المودّة والتّعظيم اتّجاه نبيّهم محمّد صلّى الله عليه وسلم ،فتهفو

[1]– صلاح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد ،ط1،دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان 1993م، ص234

[2]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 319–320

قلوبهم لجعله القدوة الحسنة في حياتهم ،فيسيروا على خطاه ،ويسلكوا سبيله مصدقا لقوله تعالى:﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ -(الأحزاب:21)-.

2-5: الإيقاعيات Déclarations:

هي الصّنف الخامس* من الأفعال السّورلية تتحقّق حين التّلفظ بذاته [1] ،وما يميّز هذا الصّنف من الأفعال «أنّ أداءها النّاجح يتمثّل في مطابقة محتواها القضوي للعالم الخارجي...،وأهمّ ما يميّز هذا الصنّف من الأفعال عن الأصناف الأخرى ،أنّها تحدث تغييرا في الوضع القائم،فضلا على أنّها تقتضي عرفا غير لغوي ،واتّجاه المطابقة في أفعال هذا الصّنف قد يكون من الكلمات إلى العالم ، ومن العالم إلى الكلمات ، ولا يحتاج إلى شرط الإخلاص»[2] ويشمل هذا التّصنيف أفعال البيع والشّراء ،والهبة والوصيّة والإقرار والوقف والاجازة ،والابراء من الدّين،والتّنازل عن الحقّ والزّواج،والطّلاق،والدّعوى والقذف والوكالة...،وفي كلّها يقع الفعل بمجرّد النّطق بلفظها [3] أمّا عمر بلخير فقد جعل «غايتها إحداث تغيير عن طريق الإعلان،وتشمل الأفعال الدّالة على ذلك:الإعلام والإخبار والإعلان...، وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا التقسيم يتوقّف على مجموعة من التّباينات في الخصائص:

1 -التّباين في غاية الفعل الكلامي .
2 -التّباين في مطابقة العالم للأشياء.
3 -التّباين في الحالة النّفسية المعبّر عنها. »[4]

وقد كان حضور هذا الصّنف من الأفعال محتشما في خطب الدّيوان ؛لأنّ معظمها تركّزت على الوعظ الديّني ،والخطيب فيها كان حريصا على نزعته الإصلاحيّة من خلال

---

* وترجمت أيضا إلى الادلاءات و الادلائيات و الاعلانيات

[1]- خليفة بوجادي ، في اللسانيات التداولية، ص100

[2]- أحمد نحلة ،آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ،ص80

[3]- المرجع نفسه، ص98

[4]- عمر بلخير، مقالات في التداولية و الخطاب، ص 171

الدّعوة إلى الأمر بالمعروف ،والنّهي عن المنكر ،وتقويم الأخلاق والسّلوك ،والنّقد لمظاهر الانحلال ،والفساد الذي علق في مجتمعه ،والحثّ على الزّهد في الدّنيا والجهاد في سبيل الله فهو أقرب إلى شخصيّة المعلّم ،والفقيه والمصلح منه إلى شخصيّته كخطيب ،فكل خطبه هي توجيهات وإرشادات أو نقل لأخبار ووقائع عاشها أو حقائق رآها.

والأفعال الإيقاعية تحقّق فائدة عامّة على التّواصل، وذلك لأنّ من ميزاتها أنّ المتكلّم يساهم في المخاطب عن طريق التّأثير ،وإحداث التّغيير بصفتها «تغيّر الحالة عبر لفظها»[1] ،فدلالتها تتحدّد بمجرّد النّطق بها، حيث يكون إيقاع الفعل فيها موحيا بالدّلالة المقصودة في الوجود ومن أمثلتها في خطب الدّيوان نجده يقول في أحد خطب الجهاد معلّلا سبب هزيمة المسلمين :«**واللهِ لَو صَفتْ الضَّمائِر مِن كدرِ نِفاقِها ،وانكَفَت السَّرائِر إلى الثِّقة بخلّاتها لأَعذَب لكُم من الحياة مُرَّ مَذاقِها ،ولَحكَّم سُيوفَكُم فِي قُلِ الأَعداءِ وأعنَاقِها ،ولكن قِلَّة نَصرِكُم إِيَّاهُ فَقلَّ النَّصيرُ ،وجَعلتُم كِتابَه وَراءَ ظُهُوركُم ،واعتَصَمتُم بِغيرِ حَبلِه ،فكَبُر عِندكُم الصَّغيرُ،وأَفشَيتُم بَينكُم الفَواحِش فَفَشَا فِيكُم التَّقصِيرُ ،وَحَجَبتُم قُلوبَكم بالقَسوَة فلَم يَصل إليهَا التَّحذيرُ ،وأهمَلتُم النَّفيرّ إلى أَعداءِ الله ،فاتَّصَل إِليكُم النَّفيرُ**»[2].

المتكلّم في هذا النّص هو الخطيب ،ويُحيل عليه السِّياق الخَارجي ،والفعل الإيقاعي تتحدّد دلالته بمجرّد نطق المتكلّم بها ،ويكون هذا الفعل موحي بالدّلالة المقصودة ،وهي هنا القسم بالله–**(والله)**– من قبل الخطيب ،وهذا القسم منسوب له ،وأداؤه تمّ بنجاح ؛لأن الخطيب تلفّظ بحلف ليصف وضعا معيّنا ،ويؤكّد عليه ،وهو الأسباب الكامنة وراء هزيمة المسلمين في حروبهم التي أرجأها إلى ضعف إيمان النّفوس بالدرجة الأولى ،والفعل التّأثيري النّاجم عن ذلك هو حمل المتلقّي على الإقرار بكون الهزيمة مركونة للنفس ،وإذا ما أراد الانتصار في حربه ،فما عليه إلّا أن يخلص النّية ،ويتّكل على الله ،ويقاوم شهوات نفسه ،ويلجمها عن المعاصي.

ويقول أيضا: « **وإنّي وإيَّاكُم لَفقراءَ إلى رحمَة مَولَى سَبق إفضالُه ،وعمَّ كَرمهُ وإجمَاله**

---

[1]– جورج يول، التداولية،ص89

[2]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 310

،فوَا أسَفا على التَّقصِير ،و وَاحذَرا مِن حُلُولِ نِقمَتِه ،وَ وَا حُزنًا مِن تَوبيخِه إيَّايَ في مَحفلِ القِيامَة عَلى رُؤوسِ الخَلائِق عَامَّة»[1] .

أنجز الخطيب في هذا النّص فعلا إيقاعيّا عند تلفّظه بقوله **(وإنّي وإيّاكم لفقراء إلى رحمة مولى سبق إفضاله ،وعمّ كرمه وإجماله)** إذ أَعلَن من خِلالِه ضعفه ،وأدلى به أمام الله فهو يعتبر نفسه العبد الفقير إلى الله الذي منّ عليه بالنّعم التي لا تحصى ،وأكرمه بكلّ خير في هذه الدّنيا ،ويلاحظ في ذلك أنّه ابتدأ خطابه بأدا ة التوكيد "إنّ" التي أدّت غرضا تداوليّا إنجازيّا ،يتمثّل في شدّ الأسماعِ ،وتأكِيد المسألة التي يريد الإشارة إليها وبيانها ،وأداؤُه تمّ بنجاح خاصّة عندما أكّد كلامه مرّة ثانية بلام التّوكيد **(لفقراء)** ،ولم يستثن الخطيب المتلقّي فيما أقّر به ،والذي دلّ عليه الضّمير المخاطب المتّصل "كم" وهو من بدائل الضّمير "أنتم" ،وهذا المخاطب هو أهل زمانه ؛لأنّهم الملزمون بالخطاب قبل غيرهم –بحكم واقع الحال– ،وذلك يستلزم فعلا تأثيريّا هو تنبيههم ،وإرشادهم لحالة الغفلة التي هم عليها بالإسراع بالتّوبة ،والرّجوع إلى الله عزّ وجلّ، ثمّ يردف ذلك الفعل الإيقاعي بفعل تعبيري كان أسلوب النّدبة –**(وا)**– أداته ،وقد عبّر من خلاله عن أسفه وحسرته على التّقصير فيما أمره الله ،وعن خوفه من حلول نِقمتِه ،وحزنه يوم القيامة عند محاسبته أمام الخلق ،وهذا يدلّ على شدّة إيمان الخطيب وورعه وزهده في الدنيا.

ويقول الخطيب في إحدى مقدّمات خطبه: « **الحمدُ للهِ عَلى مَا سَاء وسرَّ من القَضَاء وأشهد أن لا إلهَ إلّا اللهُ وَحدَه لا شَريكَ له ،رَبَّ الأرض والسّماء ،وأَشهدُ أنَّ مُحمّدا عبدُه ورسولُه ،خَاتِمِ الرُّسلِ ،والأَنبِياءِ ،وسَيِّد الأُمنَاء صلّى الله عليه ،وعلى آله في جميع الأوقاتِ والأَناءِ»**[2] .

بعدما حمد الخطيب الله عزّ وجلّ حمدا موقنا بإيمان صادق ،أدّى فعلا كلاميّا تمثل في أداء الشهادة بالله ،وإفراده بالرّبوبية ،وغرضه إنجاز إعلان الخضوع ،والامتثال لأوامر الله تعالى ،وتجنّب نواهيه ،والاعتماد عليه في جميع الأمور ،ثمّ قدّم فعلا كلاميّا آخر كشهادة ثانية يعلن فيها الإمتثال التّام لأوامر رسول الله صلّى الله عليه وسلم ،باعتباره

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص100

[2]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص339

رسولا مبعوثا من عند الله ،ختم به الأنبياء والمرسلين ،وقد جاء الفعل الكلامي بزمن الحاضر الذي يدلّ على الاستمراريّة **(وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله)** ، وقد أعلن به الخطيب إيمانه منذ تلفظه به إلى غاية موته ،فالفعل الكلامي وقع بمجرد نطق الإمام به بإعلان شهادته مخلصا فيها لله تعالى ،ولمحمّد عليه أفضل الصلاة والتسليم ،ونجد هذا الفعل الإيقاع ي قد وُظِّف في جميع مقدّمات خطب الدّيوان ،فالخطيب لم يخرج عن سُنن الأوّلين في الابتداء بحمد الله تعالى ،والحديث عن ذاته وصفاته وأسمائه ووحدانيته وغير ذلك، والإشادة برسول الله ،وذكر فضله ومآثره ،ولا يجوز بأيّ حال إهمالها في مثل هذه الخطب الدينية ،فهي سنّة علّمنا إياها رسول الله واقتفاها من بعده الخطباء.

ويقول في أحد خطبه الثّواني:«**اللَّهمَّ عُمّ بالصّلاحِ والتّوفيقِ رَعايَا المسلمين،ورَعاتَهم وأُمراءَهم،وولَّاتَهم ،وحُكّامهم ،وقُضاتَهم ،وعُلماءَهم،وهُداتَهم،وعمَّالهُم،وكُفاتَهم،وأيّد اللّهمّ بعَونِك أنصارَهم،وحُماتَهم،واجمع فِرقَهُم ،وأَشتَاتَهم،واحرس اللّهَمَّ فُرسَانهُم،وكُماتَهم**»[1].

الغرض الإنجازي للفعل الكلامي في هذا النّص هو الدّعاء ،ونسبته تعود إلى المتكلّم وحسب السّياق الخارجي فهو هنا الخطيب ابن نباتة الفارقي ،وقد توفّرت فيه نيّة الدّعاء فتحقّق شرط الإخلاص والقصد ،إذ أنّ الفعل الإيقاع ي أنجز عند تلفّظ المتكلّم به ،ووقع فعل الدّعاء ،وهو ما دلّت عليه عبارة (اللّهم) الذي يبلّغه الخطيب إلى الله تعالى ؛ويعلن اتّجاهه قصد طلب الصّلاح لرعايا المسلمين في كلّ الأمور ،والغرض التّأثيري للفعل الانجازي الإيقاعي هو توثيق الصّلة بين العبد ،وربّه وزيادة قوة إيمانه ،ونجد الخطيب أيضا يلتزم بالدّعاء ؛إذ لا تستقيم خطبة عنده دونه ،وهو ما جرت عله العادة في الخطب ختمها بالدّعاء ،والمتصفّح لخطب الدّيوان يجد أنّ الدّعاء فيها جاء مُوجزا يتلاءم مع موضوعها ،وقد يأتي مطوّلا متعدّد الجوانب يتّصل بالدّعاء لرسول الله والملائكة المقرّبين والأنبياء والمرسلين ،وأهل الطّاعة أجمعين ،وقد يخصّه لولاة المسلمين بمختلف طبقاتهم .

ونخلص ممّا تقدّم أنّ الأفعال الكلاميّة تتمظهر كإستراتيجية أسلوبيّة في الخطاب الدّيني عند ابن نباتة الفارقي،من خلال خطبه لتأدية مجموعة من الوظائف كالإخباريّة ، والأمريّة

[1]– ديوان خطب ابن نباتة ، ص 379

والتّعبيرية ،وكذا الوعدية والإيقاعية ،بهدف التّأثير في المخاطب وتغيير واقعه الإنساني فلا يخلو خطاب الإمام من الفعل التّأثيري ، الذي يهدف من ورائه إلى الإصلاح ،و بناء الإنسان روحيّاً وفكريّاً مع ما يتوافق وروح الشّريعة الإسلاميّة السّمحاء.

الفصل الرّابع:

الحجاج وآليّاتة الإقناعيّة في خطب ابن نباتة

أولا: مفهوم الحجاج

ثانيا: آليات الحجاج الإقناعية وتطبيقاتها في خطب ابن نباتة

2-1: مقدّمات الحجاج

2-2: تقنيّات الحجاج وطرائقه

ثالثا: آليات الحجاج البلاغي

3-1: الصور البيانية

3-2: البديع

رابعا : السّلم الحجاجي

4-1: أدوات السلم الحجاجي

أوّلا: مفهوم الحجاج:

1-1- لغة:

يؤخذ اسم الحجاج من مادة (ح.ج.ج) التي وردت في المعاجم بمعان عدّة منها القصد والبرهان والمناظرة، فالحجّ إلى الشّيء القصد إليه ،وخصّه الشّرّع بقصد البيت على وجه مخصوص،وقد يأتي بمعنى الدّليل والبُرهان ،وعليه يكون المحاجج المغالب بإظهار الحجة[1] لذا جاء في لسان العرب « حَاجَجْتُهُ أُحاجهُ حجاجًا ومُحاجة حتى حَجَجْتُهُ أَيْ غَلبتُهُ بالحُجج التي أَدْليتُ بها،وحاجُه محاجةً وحِجَاجًا نازعْتُهُ الحجة (...) وقيل:الحجّة ما دوفع به الخصم(...) واحتجّ بالشيء :اتّخذه حجّة، قال الأزهري: إنما سُمّيت حجّةً لأنها تُحجّ أي تُقصد لأن القصد لها وإليها(...) والحُجّة الدّليل والبرهان»[2] ، ويأتي الحجاج بمعنى الطلب والاختلاف إلى الشيء يقال: «حج بني فلان فلانا أي أطالوا الاختلاف إليه وحججت فلانا إذا أتيته مرة بعد الأخرى»[3]، ومن خلال ما تقدم يتبين أن الحجاج في اللغة يرتكز في الأساس على الدليل لأجل إثبات قضية معينة أو دحضها عن طريق مواجهة الآخر بواسطة الأدلة والبراهين من أجل الظفر بالغلبة وهذا يشير إلى وجود تصادم بين المتكلم والمتلقي الغاية منه حمل أحد الطرفين على الإذعان ومن ثم الإقناع.

يقابل لفظة الحجاج في الفرنسية مصطلح (Argumentation) «والتي تدل على معاني متقاربة أبرزها حسب قاموس "petit Robert ":

.القيام باستعمال الحجج،

.مجموعة من الحجج التي تستهدف تحقيق نتيجة واحدة. أمّا

في الانجليزية فيشير لفظ "Argue" إلى وجود اختلاف بين طرفين ومحاولة كل منهما إقناع الآخر بوجهة نظره، بتقديم الأسباب أو العلل "Reasons" التي تكون الحجّة "Argument" مع أو ضدّ فكرة أو رأي أو سلوك ما»[4] ،وعليه يتبيّن أن المعنى اللّغوي للحجاج في المعاجم الغربيّة لا يكاد يختلف عنه في المعاجم العربيّة.

2-2- اصطلاحا:

يعتبر الحجاج (argumentation) إجراء يقوم على تلك العلاقة التّخاطبية الجامعة بين المتكلّم والمخاطَب في إطار تواصلي يُستهدف من خلاله حمل المتكلّم مخاطِبه على تبنّي موقف معيّن عبر اللّجوء إلى حجج تبرز صحّة هذا الموقف ،لذا فأهمّ شيء تتأسّس عليه دلالة الحجاج هو«وجود اختلاف بين المرسل للرّسالة اللّغوية ،والمتلقّي لها،ومحاولة الأوّل إقناع الثّاني بوجهة نظره بتقديم الحجّة ،والدّليل على ذلك . فالحجاج انتهاج طريقة معيّنة في الاتّصال غايته استمالة عقول الآخرين ،والتّأثير فيهم وبالتّالي إقناعهم بمقصد معين»[5] فلا حجاج دون اختلاف،ولا حجاج دون القدرة على الإقناع بالأدلّة،باعتباره

---

[1]- ينظر: عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد (جلال الدين السيوطي) ، الدر النثير في تلخيص نهاية ابن الأثير تحقيق: محمد نزار تميم ،هيثم نزار تميم، دار الأرقم للطباعة، ص 95

[2]-ابن منظور :لسان العرب، دار الصادر، بيروت، مج2 ، مادة (ح ج ج)، ص228

[3]- لويس معلوف،المنجد في اللغة و الأدب والعلوم،ط18، المطبعة الكاثوليكية، بيروت،ص 118

[4]- هاجر مدقن،آليات تشكل الخطاب الحجاجي بين نظرية البيان ونظرية البرهان،الأثر، مجلة الآداب واللغات،جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، العدد الخامس، مارس 2009م، ص 190

[5]- عبد الحليم بن عيسى ،البيان الحجاجي في إعجاز القرآن الكريم "سورة الأنبياء نموذجا"،العدد102، مجلة التراث العربي اتحاد الكتاب العرب –دمشق، السنة السادسة و العشرون،نيسان 2006م، ص 04

«يعدّ الآليّة الأبرز التي يستعمل المرسل اللّغة فيها،وتتجسّد عبرها إستراتيجيّة الإقناع»[1] .
ويعرّفه طه
عبد الرّحمان بقوله:« كلّ منطوق به موجّه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحقّ له الاعتراض عليها»[2] ،إذ يتصوّر أنّ الحجاج هو« كلّ خطاب يضام قصودا أربعة: قصد التّوجّه إلى الغير ،وقصد إفهامه ،ثمّ قصد الادّعاء ،وقصد الاعتراض»[3] بحيث يختصّ قصد الادّعاء بالمتكلّم الذي يجب أن يكون على بيّنة من أمره فيما يقول بالدّليل المقنع ،في حين يختصّ قصد الاعتراض بالمخاطب الذي يملك الحقّ في المطالبة بأيّ تفسير ،حتى وإن كان له رأي مخالف ،فله أن يدلي به إن كانت له أدلّته المقنعة هو أيضا فيما يدعيه ،وهما بذلك يتناوبان على دوري الادّعاء والاعتراض ،فتباين وجهات النّظر أمر حتميّ في العمليّة الحجاجيّة ؛لأنّ وظيفة الحجاج «ترتدّ إلى طرح الحجج التي تضمن النّفادية للخطاب اللّغوي ،وبالتّالي حصول الاقتناع الفعلي بالقضية المطروحة ،وهذا يعني توظيف الآليّات التي تجتاز الاعتقاد الأوّلي نحو التّغيير،وبناء الموقف المغاير»[4]؛ لذا يعتبر الإقناع من أهمّ استراتيجيات الخطاب الحجاجي ،باعتباره موقفا تواصليّا ،ولقاء تفاعليّا بين الأنا والآخر،يتأسّس على تبادل رسائل لغويّة تتراوح بين التّعارض والتّوافق ،و«تستعمل إستراتيجية الإقناع من أجل تحقيق أهداف المرسل النّفعيّة،بالرّغم من تفاوتها تبعا لتفاوت مجالات الخطاب أو حقوله»[5] ،وكذا بيان موقفه تأثيرا في المتقبّل بدفعه إلى ترجيح رأي على آخر،أو الانتصار إلى غاية يتبعها المرسل في ذهنه،ولقيمة ذلك فإنّ روبول "REBOULE" قد جعل«الوظيفة الإقناعيّة من وظائف البلاغة،بالإضافة إلى الوظيفة التأويليّة والوظيفة الكشفية، والوظيفة التّربوية»[6] وسيلة تساهم في فهم قصديّة الخطاب،وتأويله. هذا وارتبط فنّ الإقناع في التّراث العربي بفنّ المناظرة ،فقد «كان خطاب المناظرة في التّراث العربي، ومازال من أهمّ أنواع الخطاب الذي ينتجه المرسل للإقناع»[7]،أمّا في الأبحاث المعاصرة فيعتبر الحجاج المبحث الرئيسي له. والحجاج مدروس منذ بلاغة القدامى ،إذ اقترن في الماضي بالجدل والمناظرة التي كانت تعدّ من ألوان الخطابة الاستدلالية التي يتبارى فيها المتناظرون لكسب تأييد المتلقي ،ودفعه لفعل المرغوب فيه[8]،أما اليوم فقد برز الاهتمام به من خلال الدّرس البلاغي المعاصر،ودخل حقل التّداولية علي يد بيرلمان(Perlman) مؤسّس البلاغة البرهانيّة الجديدة إلى جانب زميله تيتيكا(teteka) ،حيث أسهما معا في الكشف عن جوانب عديدة من البلاغة الكلاسيكيّة الأرسطية ؛«ذلك أنّ أرسطو قد جعل الخطابة مجالا للممارسة الحجاجيّة ؛لأنّه يضع التّصديقات ،أي الحجج عمدة للعلاقة الخطابيّة بين القائل والمقول إليه ،فدرس أخلاق الأوّل وانفعالات الثّاني خلال هذه العلاقة ،ويركّز بذلك على صلة الخطابة بالجدل ،وهو في رأيه

---

[1]- عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استيراتيجية الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، ص 456
[2]- طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ص 226
[3]- المرجع نفسه،ص225
[4] - عبد الحليم بن عيسى ،البيان الحجاجي في إعجاز القرآن الكريم "سورة الأنبياء نموذجا"،ص4
[5] - عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استيراتيجية الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، ص 445
[6] - المرجع نفسه ، ص ن
[7] - المرجع نفسه ، ص 449
[8]- ينظر:مصطفى البشير قط،مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم،دار البازوري للنشر،الأردن،2009م ص 115

مجال الحجاج ،ودائرة حدوثه»[1] .

الأكثر من ذلك « فإنّ برلمان قد وسّع مجال البلاغة أكثر ممّا هو عليه عند أرسطو الذي اقتصرت البلاغة عنده على الخطاب الشفهي...فالبلاغة في شكلها الجديد عند برلمان أصبحت تشمل كلّ الخطابات الموجّهة إلى كل أنواع المستمعين»[2]، فتُعدّ سنة 1958م، هي سنة تأليف كتاب (مصنّف في الحجاج، البلاغة الجديدة) من طرف الباحثين الذين أعادا الاعتبار للحجاج بعد تخليصه« من التّهمة اللّائطة بأصل نسبه ،وهو الخطابة...وعمل الباحثان من ناحية ثانية على تخليص الحجاج من صرامة الاستدلال»[3] ،ويريان أنّ «موضوع نظريّة الحجاج هو درس تقنيّات الخطاب التي من شأنها أن تؤدّي بالأذهان إلى التّسليم، بما يعرض عليها من أطروحات ،أو أن تزيد في ذلك التسليم»[4] ، والمؤلّفان يعتبران أنّ الغاية منه هي الفعل في المتلقّي على نحو يدفعه للعمل ،أو يهيّئه للقيام به ،إذ«غاية كلّ حجاج أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها من آراء، أو أن تزيد في درجة ذلك الإذعان فأنجع الحجاج ما جعل حدّة الإذعان تقوى درجتها لدى المستمعين ،بشكل يبعثهم على العمل المطلوب (إنجازه أو الإمساك عنه) ، أو و على الأقلّ ما وفق في جعل السّامعين مهيّئين للقيام بذلك العمل في اللحظة المناسبة»[5] . أمّا

النّظر إلى الحجاج من زاوية لغويّة بحتة فقد تميّزت به دراسة ديكرو (Ducrot) مع أنسكمبر (Anscombre) من خلال كتابهما "الحجاج في اللّسان" (l argumentation dans la langue) سنة 1983م، وذلك في حصره له داخل اللّغة دون النّظر إلى خارجها والحجاج في اللغة هو« بيان بما يتضمّنه القول من قوّة حجاجيّة تمثّل مكوّنا أساسيّا لا ينفصل عن معناه يجعل المتكلّم في اللّحظة التي يتكلّم فيها يوجّه قوله ،وجهة حجاجية ما»[6] باعتباره يراعي مستمعا وجب مخاطبته بأسلوب واضح سهل الفهم ،وذلك لدوره في تشكيل معالم المادّة الحجاجيّة الكبرى التي يقدّمها المتكلّم ؛ لذا لا يمكن إغفاله ؛لأنّه «السّبب الفعلي الذي لولاه لما كان" الحجاج "أصلا»[7] ، إنّه –الحجاج- وفق هذا المنظور علاقة دلاليّة تربط الأقوال بعضها ببعض فـ« يكون بتقديم المتكلّم قولا (ق1) يفضي إلى التّسليم بقول آخر(ق2) فهو انجاز لعمليتين هما: عمل صريح بالحجّة من ناحية ،وعمل الاستنتاج من ناحية أخرى، سواء أكانت النتيجة مصرّحا بها أم مفهومة من (ق1) »[8] ، أما مايير (Michel Meyer) فيرى أن الحجاج مرتبط بنظرية المساءلة وهو« يشتغل باعتباره ضرورة تؤدّي إلى نتيجة أو موقف، نحمل الغير على اتّخاذه إزاء مشكل مطروح في السّياق يوفّر للمتخاطبين مواد

---

[1]- ليلى جغام، الحجاج في كتاب"البيان و التبيين" للجاحظ، رسالة دكتوراه، إشراف : محمد خان ، جامعة محمد خيضر بسكرة،السنة الجامعية: 2012-2013م، ص 12 ، كما يمكن الرجوع لمدخل الرسالة بغية تتبع نشأة الحجاج و أهم نظرياته عند الغرب و العرب ،ص 01 إلى ص50

[2]- عبد العزيز لحويدق ، الأسس النظرية لبناء شبكات قرائية للنصوص الحجاجية ، مجلة الحجاج مفهومه و مجالاته ، دراسات نظرية و تطبيقية في البلاغة الجديدة ، ط1، ج 3، 2012م، ص 346

[3]- سامية دريدي،الحجاج في الشعر العربي القديم ، ط1،عالم الكتب الحديث للنشر،الأردن، 2008م، ص22

[4]- عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط2، دار الفارابي،بيروت لبنان ، ص27

[5]- عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ، ص 27

[6]- حمادي صمود وآخرون،أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ، إشراف حمادي صمود،سلسلة آداب،جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية،كلية الآداب،منوبة، تونس ،دت ،ص352

[7]-محمد سالم ولد محمد الأمين،مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة،مجلة عالم الفكر،ع2 ، يناير / مارس ، 2000 م، ص 61

[8]- خليفة بوجادي ،في اللسانيات التداولية ، ص 89

إخبارية ضروريّة للقيام بعملية الاستنتاج المتّصل بالزوج سؤال/ جواب»[1] ؛لأنّ طبيعة الكلام مبنية على السّؤال والجواب ،وهما يولّدان النّقاش،والتّفاوض بين المتحاورين ،والذي بدوره يمثّل الحجاج، ولأجل هذا يعطي ميار(Michel Meyer) أهميّة قصوى لنظريّته التّساؤليّة لما لها من آثار حجاجيّة؛لأنّه بالنّسبة إليه كلّ كلامنا قائم على التّساؤل الذي ينتهي في الأخير بعمليّة الاستنتاج.

ثانيا: آليّات الحجاج الإقناعية وتطبيقاتها في خطب ابن نباتة:

2-1: مقدّمات الحجاج:

يستدعي الحديث عن تقنيّات الحجاج المعتمدة من طرف المتكلّم لإقناع المخاطب الوقوف أوّلا على مقدّماته الّتي تشكّل نقطة انطلاق الاستدلال ،وتشمل الوقائع والحقائق والافتراضات، وهرميّة القيم والمعاني أو المواضع.

فالوقائع(les faits) تمثّل«ما هو مشترك بين عدّة أشخاص أو بين جميع النّاس، كذلك فإنها لا تكون عرضة للدّحض أو الشّكّ»[2]، ويمكن تقسيمها إلى؛وقائع مشاهدة وأخرى مفترضة ،أما الحقائق (Realites) فهي«القضايا التي يؤمن بها أفراد المجتمع ،وتقوم على الرّبط بين الوقائع ،ومدارها على نظريّات علميّة،أو مفاهيم فلسفيّة أو دينيّة،كما تقوم على الرّبط بين الوقائع والحقائق من حيث موضوعات متفق عليها»[3]،أمّا الافتراضات (Presomption) ،فـــ« تحضى بالموافقة العامّة ،بيد أنّ الإذعان لها ،والتّسليم بها لا يكونان قويّين، إلّا إذا جاءت في مسار الحجاج عناصر أخرى تقويها ،والافتراضات إنّما تحدّد بالقياس إلى العادي أوالمحتمل»[4] وبخصوص القيم(Valeurs) فهي عنصر هام من عناصر الحجاج «التي يعوّل عليها في جعل السّامع يذعن لما يطرح عليه من آراء،والقيم نوعان: قيم مجرّدة: نحو العدل والحقّ، وقيم محسوسة نحو الوطن»[5] ،ولمّا كانت القيم غير مطلقة، فإنّها تخضع للتّراتبيّة؛ حيث تحصل المفاضلة بينها،«وهي خاضعة لهرميّة ما ،فالجميل مثلا درجات ،وكذلك النّافع وهي نوعان؛مجردة مثل:العدل أفضل من النفع ،ومادية مثل:الإنسان أعلى درجة من الحيوان»[6] فهرميّة القيم في البنية الحجاجيّة أهمّ من القيم نفسها؛لأنّ ما يميّز كلّ جمهور ليس القيم الّتي يسلّم بها ؛بل مستوى ترتيبه لها، في حين أن المواضع(Lieux) تعتبر مقدّمات أعمّ ،وأشمل من العناصر السّابقة ،إلّا أنّها تشترك مع القيم والمقام بصفة عامة في تفاوتها ،ونسبيّتها في الزّمان والمكان بين الأشخاص، وقد اعتبرت البلاغة اليونانيّة القديمة المواضع مخازن للحجج[7].

إنّ المقدّمات السّالف ذكرها تظلّ ضروريّة لكلّ نشاط حجاجيّ، لكنّها غير كافية؛ إذ لا يكفي أن يحوز الخطيب مقدّمات؛ بل لا بدّ له من الاختيار بينها، وجعلها ذات فاعليّة حجاجيّة وذلك بالاعتماد على تقنيّات أو طرائق تستخدم لجعل الحجج مقبولة من طرف المتلقّي.

---

[1]- حمادي صمود وآخرون ، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص394

[2]- علي محمد علي سلمان،كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج،"رسائله أنموذجا"، ط1،دار الفارس للنشر والتوزيع، الأردن ، 2010م، ص 91

[3]- المرجع نفسه، ص 92

[4]- المرجع نفسه ، ص ن

[5]- علي محمد علي سلمان،كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج،"رسائله أنموذجا"، ص 93

[6]- المرجع نفسه ، ص ن

[7]-ينظر : محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، بحث في بلاغة النقد المعاصر ،ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت، لبنان ، 2008م ،ص 112-113

وابن نباتة الفارقي عكف على اختيار ما يجعل خطبه ذات فاعليّة حجاجيّة ،بانتقاء طريقة العرض لكلّ محاججة ،بهدف التّأثير في جمهور المتلقّين، بتهيئتهم للقيام بسلوك معيّن وتوجيه أذهانهم نحو وجهة معيّنة من النّاحية الفكريّة ،ومن ذلك قوله:«**أَيُّها النَّاس: مَا هَذهِ السِّنة ،وأَنتُم مُنتَبهُون ،و مَا هَذهِ الحيرة، وأَنتُم تنظرُون،مَا هَذهِ الغَيبَة ،وأَنتُم تَنظُرون،ومَا هَذهِ السَّكرَة ،وأنتُم صَاحُون ،وما هذه الطُّمأنِينَة ،وأَنتُم مطلوبون ،و مَا هَذهِ الإقامَة،وأَنتُم رَاحلُون ،لقد صدَقكُم الموت عنِ الخَبرِ،وآذنكُم بالرّحيلِ، وقَدَّمكُم جِيلًا بعدَ جيلٍ ،فمَا للقُلوبِ لا تَتصدَّعُ خُشُوعًا ،ومَا للدُّموعِ لا تَجرِي بَدلَ الدّمُوع نَجيعًا، كَلَّا لَتَرِدنَّ الصّمَّة الصَّمَّاء والدَّاهيَة الدَّهياءَ ،المُكفهِرَّة الشَّنعاءَ ،المُدلهِمَة السَّوداء ،التي لا يُنادَى وَليدُها ،ولا تُكذَّب شُهودُها** »[1].

افتتحت الخطبة بمجموعة من الاستفهامات هي بمثابة مقدّمات حجاجيّة عرضها الخطيب كبداية للشّروع بعمليّة إلقاء الحجة ،وهي حقائق قدّمها الخطيب ،تحتاج الرّبط بين وقائع معيّنة ،واستنتاج حقائق ثابتة فهو يستفهم مستنكرا عن ذهاب انتباه الإنسان عن حقائق ثابتة في الوجود ،وهي فناءه ،وزواله بالموت ،وعبّر عن حاله مجازا بالنّعاس ،ويستفهم عن سبب حيرة الإنسان مع أنّه منتبه لحقيقة الوجود ،وعن غيبته الرّوحية والفكرية على الرّغم من حضوره الجسدي ،وعن سكرته ،وذهاب عقله من غير تناول المسكرات ،وعن طمأنينته مع أنّه مطلوب للحساب على ما اجترحه في حياته الدنيا،كلّ تلك الحقائق التي عرضها يتبعها بتقنيّات حجاجيّة مهمّة ،يبدأ بالاستنتاج أن من اتّصف بالصّفات السّابقة هم راقدون وغافلون ومذهبو عقولهم ،ويجب عليهم الاسيقاظ والتّفكر والاتعاظ ،والاعتبار،فيبدأ الخطيب في هذه الخطبة بحجّة التّرتيب ،ويوجهها توجيها إثباتيّا بترتيب وقائع الموت عليهم **(لقد صدقكم الموت عن الخبر،وآذنكم بالرّحيل ،وقدّمكم جيلا بعد جيل** -ثم يستنتج نتيجة ضمنيّة- **فما للقلوب لا تتصدع خشوعا ،وما للدّموع لا تجري بدل الدّموع نجيعا)** ،فيستنتج نتيجة ضمنيّة بأنّ القلوب قاسية إذ لا تجري الدّموع خشية، وبعدها يعرض في الخطبة بعض الحجج الرمزية المدعومة بافتراضات دينية (**الصّمّة الصّمّاء ،الدّاهية الدّهياء المكفهرّة الشّنعاء،المدلهمة السّوداء)** ،وكلها رموز وكنايات عن يوم القيامة وأوصاف له[2].

وفي خطبة أخرى له في الموت يقول:« **مَا أعظمَ المُصيبَة عَلى مَن فَقد قَلبًا وَاعيًا وأَسرَعَ العُقوبَة إلى مَن عَدِم طَرفًا بَاكيًا.**

لقَد غَلبَ عَلَى قُلوبكُم الطَّمعُ ؛فتَملَّكهَا ،واستحوَذ على نُفوسِكُم الطَّمَع فَأهلَكَها ،وأَنتُم عمَّا يُرادُ بكُم غَافلُونَ ،وبِخِلافِ مَا قَد عَلمتُمُوهُ عَاملُون ،كَأنّكُم بمَا قَد تحققتُمُوه جَاهلُونَ فَلا الوَعظُ يَشفي مِنكُم غَليلا ،ولا الإنذَار يجدُ إلى قَلبكُم سبيلا»[3]

استعمل الخطيب في بداية خطبته مقدّمة حجاجيّة مُهمّة ،وهي القيم فاستعمل قيمة الخُشوع لله ،وجعل فقدها من أعظم المصائب التي تحلّ على الإنسان ،وكذا فإنّ من مستلزمات الخشوع وجود عين باكية،وقلب واعي ،وفقدان ذلك يستلزم عنه كثرة الخطايا التي يكتسبها المرء ،وهي وسيلة دفع إقناعية تحثّ المتلقّي على تجسّد فعل الخشوع خوفا من حصول المصيبة التي عرضها ،ثم قدّم سببا لحصول النّتيجة المتقدّمة (فقدان الخشوع) وهوغلبة

[1]- ديوان خطب ابن نباتة ،ص 139-140

[2] باسم خيري خضير ،الحجاج وتوجيه الخطاب، ص 66

[3] - ديوان خطب ابن نباتة ، ص 144

الطّبع السيئ على قلوب المؤمنين ،وعملهم وتملّكه منها ؛بل وصار ذلك الطّبع ملكة لديهم ،واستحواذه على نفوسهم ،ونتيجة ذلك هو الهلاك ،ثم استعمل حجيّة أخرى وهي حجية السّخرية والاستهانة عندما ذكر غفلة الإنسان عمّا يراد به ،وأنّهم يعملون بخلاف ما يعلمون كما استعمل حجّة التّشبيه التي تعدّ من الحجج المهمّة فشبّههم بالجهلاء الذين لا ينفع معهم الوعظ والإرشاد ،ولا يجد الإنذار ملجأ في قلوبهم ،فقلوبهم غلف عمّا يراد لهم وغير واعية عما يقال لهم من النّصح والتّوجيه.

ونجد في الخطبة نفسها استعمال الخطيب لحجّة السلطة عندما أراد الدّفع باتّجاه تخويف المتلقّي من يوم القيامة ،يوم حساب المرء على ما اقترف من أعمال سيّئة ،فقدّم لها بحقائق وتصورات فلسفية دينية يقول:«**جُثِيّا على الرُّكبِ،بُكيًّا مِن فَضَائح ما سطّر في الكتب،ترتجّ بهم الأرضُ بأقطارِها ،وترميهم النّار بشرارِها ،وتعرِض الخليقة على جَبَّارهَا ،فيُحَاسبُها بإعلانِها وإسرارِها**»[1] ،فاستعمل الخطيب حجيّة السّلطة في قوله (**فيحاسبها**) فلا يحاسب إلّا من كان ذا سلطة قاهرة متينة ،وقد ذكر مستلزماتها في قوله: (**جبّارها**) ؛فكانت الحجّة قويّة بقوّة الجهة التي مثّلتها ،وهي سلطة دينيّة غذّتها هيبة صاحبها ،ونفوذه ،وهي سلطة الخلق والتفضّل والحساب ،والواقع أنّها حجّة كثيرة الشّيوع في خطب ابن نباتة ،وطاقتها الحجاجيّة ثابتة ،ولكن إذا أراد الخطيب دفعها بخطاب معارض جيء بأحداث تفنّدها أو وجهت بسلطة أخرى ،وفي هذا المقام لا يمكن ؛لأنّ سلطة الخالق تمثّل أعلى السّلطات ؛بل على العكس من ذلك ،فإنّ الخطيب نفسَه يتحوّل إلى سلطة دافعة وواعظة ،ومتحكّمة ،آخذ تلك السّلطة من قوّة السّلطة التي استعملها في خطابه[2] .

ومن حقائق المشاهد العينيّة التي استعملها الخطيب بوصفها مقدّمات حجاجيّة قوله: « **...مَا وَلدتُم فللتُّرابِ ،ومَا بَنيتُم فللخَرابِ ،ومَا جَمعتُم فللذّهاب ،ومَا عملتُم ففي كتاب مُدّخَر ليوم الحِساب**»[3] ، فاستعمل حقائق مشاهدة من قبل الجميع ،فلا اختلاف بين اثنين أنّ كلّ مولودٍ آخره تراب ،وكلّ بنيان آخره خراب ،وتلك حقائق ووقائع شاهدها النّاس من تداول الأيّام ،وتعاقبها على النّاس ،وتلك المدن الخراب التي ورثنَاها عن سالف الأقوام والأزمان التي وشت بحال العّز والجبروت التي عاينوها[4].

أمّا المواضع(Lieux) فتتشعّب إلى أقسام منها مواضع الكم التي نتمكّن بواسطتها أن نثبت أنّ أمرا أفضل من آخر ،انطلاقا من معايير كميّة كقولنا : الكلّ أفضل من الجزء ،وما يترتّب على هذه القاعدة من نتائج في حياتنا اليومية[5] ، وقد وظّف ابن نباتة موضع الكمّ[6] بما يخدم غرض الخطبة ،ويقوّي حجّتها في إقناع المتلقّي فيقول :«**واللهِ لَو صَفتِ الضَّمائرُ مِن كَدرِ نفاقِها ،وانكَفَت السَّرائرُ إلى الثِّقَة بخلّاقها،لأعذَب لكم من الحياة مُرّ مَذاقِها ،ولَحَكَّمَ سيوفَكُم قُتلَ الأَعدَاء وأَعنَاقَها ، ولكن قِلَّة نَصرِكُم إيّاه فقلّ النَّصير**»[7] ،فعندما فرغ الخطيب من تعداد أسباب الهزيمة المسلمين في جهادهم للعدوّ ،جاءت الحجّة مبنيّة على موضع الكمّ في

---

[1]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 145

[2]- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، ص 235

[3]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 153

[4]- ينظر: باسم خيري خضير ،الحجاج وتوجيه الخطاب،ص 73

[5]- محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، بحث في بلاغة النقد المعاصر ،ص 113

[6] باسم خيري خضير ،الحجاج وتوجيه الخطاب، ص 88

[7]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 310

قوله(**ولكن قلّة نصركم إياه فقل النصير**) ،فالموضع حُدّد بسبب المعيار الكمّي الذي كان سببا في الانهزام فقلّة نصرهم في حروبهم ؛بسبب قلّة نصرتهم لله ،وذلك مصداقا لقوله تعالى﴿ ☎✁☑❑⇱☪♦✋✁✁◆➚ ⌘♊③⇘♎✎✎✁ ✍❑✍☺⑨❑🕯✳①♦③ ⬀☠➚✍⬀⬀❸⇑⇦☪♦③ ⚘✎✍✁ ☎✁❑←❸⇑⇦☪⬩✍ ♌⚘☽ ❑◆③⇱☯⬩⌛❍⚘☺➚⇳📖❑⚗⑨⊠✁✋♦➚▤⬀⬀ ⇦⚘⬀ ﴾ -(محمد:7)- ،وفي المقابل فإنّ مواضع الكيف[1] التي تعتمد على الكيفيّة ،وهي ضدّ الكمّ «من حيث إنّها نسيج وحدها ، فهي واحد ضدّ جمع ،وتستمدّ قيمتها من وحدانيتها تلك ،وهي من أهمّ مدارات الحجاج»[2] ،وهي من المنطلقات الحجاجية التي تستعمل في مقارنة شيء بأشياء أخرى ،وقد وظّفها الخطيب في خطبة له في الموت والمعاد، يقول:« **فَرحِمَ اللهُ امرأً ذَلَّلَ للحقِّ قَلبًا وسَمعًا ،وأَسبَلَ الفائتَ من زَلَلِه دَمعًا ،وقَمَعَ بذِكرِ المَوتِ جَامح هَواه قَمعًا، وكَانَت الموعظَة أَشدُّ منَ السَّيفِ فِي جَوارِحِه وَقعًا ،قَبلَ أَن يَقتَسِم جِسمَه المُشيَّعُون ربعا ربعا**»[3] .

فاعتمد الإقناع الحجاجي في هذا النّص على إبراز قوّة تأثير مواضع الكيف بجعلِه مِسبَارا بانتقاء المَوعظَة ،ودَورِها في عمليّة الوعظ لما لها من تأثير أعظم من تأثير السّيف في الجسم فالموعظة ،وإن كانت فعل لسانيّ ، ولكنّها ذات وقع كبير في نفس من خشع قلبه لله وذلّل جوامح نفسه.

2-2: تقنيّات الحجاج وطرائقه:

تهدف هذه التّقنيات إلى الوصول للغاية الاستدلالية للحجاج ،فما الحجاج إلّا «جملة التّقنيّات التي تراعي توظيف الحجّة ،وبنائها بكيفيّة فنّية ،إضافة إلى كونه جملة التّقنيات التي تراعي دراسة الاختيارات اللّامنطقيّة والبراغماتيّة على مستوى السّياق اللغوي»[4] ،وقد أكّد بيرلمان (Perelman) وتتيكا(teteka) على وجود نوعين من الطّرائق الحجاجيّة، هما : الطرائق الاتصالية والطرائق الانفصالية.

1- الطرائق الاتّصالية: وسميّت كذلك؛«لأنّها تقرّب بين العناصر المتباينة، بهدف إبرازها في بنية واضحة»[5] وتتضمّن ثلاثة أنواع من الحجج هي :

***الحجج شبه المنطقيّة**:وتعتمد في قوّتها الاقناعيّة على بعض البنى المنطقيّة ومن قوانينها:التّناقض ،وعدم التّلاؤم، والمقصود به : «وجود قضيّتين في نطاق مشكلتين، تعدّ إحداهما نفيًا للأخرى، ونقضًا لها، كقولنا :المطر يسقط ولا يسقط[6]»،والتّماثل مداره أن« يكون فيه المعرَّف والمعرِّف متماثلين لفظا ،الأمر الذي يجعلنا نعتبر الثّاني محمولا على المجاز»[7]

وتشكّل العلاقة التبادلية إحدى الحجج القائمة على بُنى شبه المنطقيّة ،وهذه الحجج تتمثّل في معالجة وضعيتين إحداهما بسبيل من الأخرى معالجة واحدة ،وهو ممّا يدلّ على أنّهما متماثلتان بطريقة غير مباشرة ،فهي قائمة على حجج عكسية ،ودعوة لتطبيق قاعدة العدل

---

[1] باسم خيري خضير ،الحجاج وتوجيه الخطاب، ص75

[2] -حمادي صمود وآخرون،أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ، ص 312

[3] - ديوان خطب ابن نباتة ، ص 162

[4] - هناء حلاسة ، بلاغة الحجة في خطاب الخلفاء الراشدين " دراسة وصفية لنماذج خطابية،ط1، مركز الكتاب الأكاديمي عمان، 2016م، ص 29

[5] - عز الدين الخطابي ،حجاج الفلسفة و بلاغتها،مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث،الرباط، 26 /2017/09م،ص 7

[6] - عز الدين الخطابي ،حجاج الفلسفة و بلاغتها ، ص 7

[7] - محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، بحث في بلاغة النقد المعاصر ، ص 128

على وضعيتين متناظرتين[1] ،وتعتبر حجج التّعدية خاصيّة شبه منطقيّة شكليّة؛ لأنّها تقوم على استنتاج علاقات عن طريق عنصر ثالث ،يتمّ المرور من خلاله لتأكيد صدق العلاقة بين العنصرين الأول والثاني،كما في قولنا:(عدوّ عدوّي صديقي ،وما يستنتج منها أن صديق عدوّي عدوّي)،ومبدأ التّعدية يعتمد على القياس في تطبيقه ،ولا يطبّق كثيرا على وقائع إنسانيّة.

ومن الحجج شبه المنطقيّة أيضا ما يعتمد على علاقات رياضيّة ،ومن أشكالها مبدأ إدماج الجزء في الكلّ أي: ما ينطبق على الكلّ ينطبق على الجزء من قبيل القاعدة الفقهية في تحريم الخمر "ما أسكر كثيره فقليله حرام"،ومبدأ تقسيم الكلّ إلى أجزائه المكوّنة له ليتسنّى للمحاجج توظيف تلك الأجزاء ،وتحميلها الشّحنة الاقناعيّة التي كانت لها مجتمعة وعلى المتكلّم عند استعماله لهذا النّوع الحرص على أن يكون تعداده للأجزاء شاملا[2] .

***الحجج المؤسّسة على بنية الواقع:** وهي حجج «تستخدم بدورها الحجج شبه المنطقيّة للرّبط بين أحكام مسلّم بها ،وأخرى يسعى الخطاب إلى تأسيسها ،وتثبيتها وجعلها مقبولة»[3] وتقسّم إلى:حجج مبنيّة على الاتّصال التّتابعي ،وحجج مبنيّة على الاتّصال التّواجدي.

ومن أنماط حجج الاتّصال التّتابعي «حجج تسعى إلى الرّبط بين حدثين متتابعين بواسطة علاقة سببية ،ففي هذه العلاقة يحاول المتكلّم ربط السّبب بالنتيجة برابط سببي»[4] وكذا حجّة التّبذير التي تقوم«على الاتصال والتتابع دون الاعتماد على السببية»[5]،وهي تركّز على الغاية،أما حجّة الاتّجاه فهي تقوم على فكرة التّحذير؛لأنّها«تهدف إلى التّحذير من مغبّة اتّباع سياسة المراحل التّنازليّة ،أو مغبّة انتشار ظاهرة»[6] ،ومن ضروب حجج الاتّصال التّواجدي ، حجّة الشّخص وأعماله :ذلك أن الإنسان في الدّرس الحجاجي« ذو صفات معيّنة مُنشئا لأعمال ،وأحكام معيّنة ،كذلك هو موضوع تقويم من قبل الآخرين في ضوء تلك الصّفات ،والأحكام ،فالشّخص هو مجمل المعلوم من أعماله ،فهو العلاقة بين ما ينبغي أن نعتبره جوهر الشّخص ،وبين أعماله التي هي تجليّات ذلك الجوهر»[7] ،وأيضا حجّة السّلطة فـ«تغذوها هيبة المتكلّم ،ونفوذه وسطوته ،وتستعمل أعمال شخص حجّة على صحّة أطروحة ما ،وقد تكون السّلطة بالإجماع ،وقد يعمد فيها إلى ذكر أشخاص بأسمائهم على أن تكون سلطتهم معترف بها من قبل الجمهور»[8]،وقد تكون هذه السّلطة غير شخصيّة،مثل العقيدة أو العلم،أما حجّة الاتّصال الرّمزي ،فتنطلق من مبدأ«الانتقال من الرّمز إلى ما يُرمز إليه وتعتمد على ما تثيره هذه الرّموز من عواطف ،وأحاسيس تحكمُها العلاقة بين الرّمز والمرموز إليه»[9].

---

[1] -ينظر:عبد الله صولة،في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات،ط1،ميسكيلياني للنشر والتوزيع،تونس،2011م،ص45-46

[2] - ينظر: محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، بحث في بلاغة النقد المعاصر ، ص 129

[3]- عز الدين الخطابي ،حجاج الفلسفة و بلاغتها، ص 8

[4]- هاني يوسف أبو غليون ،الحجاج في النص القرآني "سورة الحواميم أنموذجا،رسالة ماجستير،إشراف:زهير المنصور جامعة مؤته،2018م، ص 51

[5] - قادا عبد العالي ، بلاغة الاقناع-دراسة نظرية تطبيقية- ،ط1،دار كنوز المعرفة،عمان،2016م، ص 171

[6] - المرجع نفسه، ص ن

[7] - عبد الله صولة، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات ، ص 51

[8] - المرجع نفسه، ص 52-53

[9] - قادا عبد العالي ، بلاغة الاقناع-دراسة نظرية تطبيقية- ، ص 172

***الحجج المؤسّسة لبنية الواقع:** منها؛ الحجّة بالمثال (l'exemple) ،وبالتّمثيل (analogie) ،ويؤتى بالأولى لتأكيد الفكرة المطروحة في حالات لا توجد فيها عادة مقدّمات ،وكذلك الاستشهاد بالمقولات الدّينية والأدبيّة ،وتتجلّى أهميّة التّمثيل في قوّته الحجاجيّة المتأتّية من قدرته على إبراز تشابه العلاقات ،وإن كان مصدرها من مجالات مختلفة[1]، أمّا التّمثيل في الحجاج « هو أداة برهنة، وتظهر قيمته الحجاجيّة، حين ننظر إليه على أنّه تماثل قائم بين علاقتين ،فما يؤسّس أصالة التّمثيل، وما يميّزه عن مفهوم المشابهة :هو أنّ الأمر يتعلّق بتشابه العلاقة، وليس بعلاقة المشابهة»[2] .

2- الطّرائق الانفصاليّة: وهي تقوم بوظيفة الفصل بين المفاهيم في الدّرس الحجاجي و«يحدث الانفصال الحجاجي في العناصر التي تؤلّف وحدة يتمّ تجزيئها لغايات حجاجيّة من ذلك توظيف عناصر الرّبط والوصل والعطف النّحوي في الخطاب الحجاجي،وكذلك استخدام جمل اعتراضيّة تحمل أفكارا معيّنة مؤكّدة أو ناقصة لما قبلها أو بعدها ،وغالبا ما يستخدم ذلك في الحدود والتعريفات،لأنّ الهدف من الفصل بين عناصر الحدّ الواحد أو البنية القوليّة الواحدة إسقاط أحد العنصرين المفصولين ثمّ التّأكيد على الباقي منها»[3]،ويكون الفصل باستخدام أفعال اليقين(زعم،ظن، شكّ...) بهدف الفصل بين عنصريين ،وتقوية الآخر،وهذه التّعابير تستمدّ مظهرها الحجاجي من فصلها داخل المفهوم الواحد بين ما هو ظاهري يسمه ،وما هو حقيقة ليست له على نحو يصبح المفهوم الواحد منقسما إلى حدّين فيحمل ذلك السّامع أو القارئ على تمثّل مظهرين لمعطى واحد زائف ظاهري ،وهو أوّل ما تصادفه الحواس ،ويراه الفكر ،ومظهر هو الحقيقة عينها ،وطريقة الفصل تعين المخاطب على تمثّل الأشياء ،وتدعوه بإلحاح إلى معانقتها فهي الحقيقة [4]. وقد استعمل الخطيب ابن نباتة الفارقي في خطبه بعض أنماط الحجج شبه المنطقيّة[5] منها حجّة التّناقض في خطبة له يقول فيها:«**أَيُّها النَّاس: مَنْ أَسوَأ حَالاً مِمَّن استعبَدَه هَواهُ ،أَم مَنْ أَكسَف بَالًا ممّن أَبعدَه مَالِكَه وَمَولَاه، أَم مَنْ أَخسَر صَفقَة ممَّن بَاعَ آخِرتَه بدُنيَاه ، أَم مَن أَكبرُ حَسرَةً مِمَّن كَانَت النَّار مُنقَلبَه وَمثوَاه ، فَمَا للغَفلَة قَد شَمِلَت قُلُوبكُم ،ومَا للغَيرَة قد سَتَرَت عَنكُم عُيُوبكُم ،ومَا للطَّمَعِ صَغَّر عِندَكُم ذُنُوبكُم**»[6]. فعرض الخطيب نقيضين من أحوال النّاس ، من يتّق الله ويسير بهداه، ومن يستعبده هواه ومن يكون قريبا من الله منزلا ، ومن يشتري ابتغاء مرضاة الله ،ومن تخسر صفقته ببيع آخرته بدنياه ، فعرض النّقيضين ، وأصدر الحكم الواضح على المتلقّي في كون الصّنف الآخر من الأخسرين أعمالا ،والصّنف الأول من الفائزين ،وبذلك يوجّه عمل المتلقّي ،ويقنعه بتبنّي الطّريق الأولى ،والابتعاد عن الأخرى.

ومن الحجج القائمة على العلاقات التّبادليّة[7] ، التي تقوم على معالجة وضعيّتين إحداهما بسبيل الأخرى قوله:«**أَيُّهَا النَّاسُ:استدركُوا سَوابِق الحَوبَات بِلواحِق التَّوبَاتِ ،واغسِلُوا**

[1] - ينظر: عز الدين الخطابي ،حجاج الفلسفة و بلاغتها، ص 8
[2] - المرجع نفسه ، ص 9
[3] - محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، بحث في بلاغة النقد المعاصر ، ص 132-133
[4]- ينظر: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات ، ص 63-64
[5] - باسم خيري خضير ،الحجاج وتوجيه الخطاب، ص69
[6] - ديوان خطب ابن نباتة، ص 146
[7] باسم خيري خضير ،الحجاج وتوجيه الخطاب،ص80-81

دَرنَ التَّبِعاتِ بِسِجَال العَبرَات ،وأَديمُوا ذِكرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ فِي مَواطِنِ الخَلَوَات»[1]،فهي حجج قائمة على علاقات تبادليّة عكسيّة ،وهي في الوقت نفسه متماثلة ،فلا يتمّ استدراك الآثام إلّا بالتّوبات اللّاحقة ، ولا يتمّ غسل درنات التّبعات ،وأوسَاخِها إلّا بسِجَال العبَراتِ .

ومن الحجج شبه المنطقيّة القائمة على العلاقات الرّياضيّة ،حجّة تقسيم الكلّ إلى أجزاء[2] إذ يقول:«**...لِيَومِ عَرضِ النُّشورِ،يَومَ يُكشَف عَن المَستُورِ،ويَحصَّلُ مَا في الصُّدورِ ،ويَقِ الحِسابَ على الفَتِيل ،والنَّقِير ،فَفرِيقٌ فِي الجَنّةِ،وفَريق في السَّعِيرِ»**[3] . لقد اعتمد الخطيب في تقسيمه هذا على حجج مختلفة ، منها حجّة الرّمز (يوم عرض النّشور) ،وهو رمز ليوم القيامة ،ولكنّه وجّه خطابه لمتلقّ يؤمن بهذا الرّمز،ويقع ضمن فلسفته في الحياة والوجود ،وإلّا فلا يمكن أن توجّه هذا الرّمز نحو متلقّ لا يؤمن باليوم الآخر؛ولذا جاءت حجّته الرّياضيّة في تقسيم الكلّ (النّاس)على صِنفين ،صنف في الجنّة وصنف في النّار،استنادا على متلقّي الحجّة الأولى ، وإلّا فلا يمكن لمن لا يؤمن باليوم الآخر أن تحاججه بتقسيم النّاس يومئذ ؛لأنّه لا يؤمن بهذا اليوم أساسا ،ومن الحجج شبه المنطقيّة أيضا ،والتي تعتمد على العلاقات الريّاضية ،حجّة سريان حكم الجزء على الكلّ فما ينطبق على الجزء بطبيعة الحال ينطبق على الكلّ المكوّن من أجزاء ، يقول في خطبة في تصرّف الزّمان والمعاد :« **فَيَا مَن أُخرِجَ أَبُوه مِن الجَنَّة بِذنبٍ وَاحدٍ ،بعدَ أن كَان لَها مَلكًا ،كَيفَ تَطمَع في دُخُولِها بذُنُوب كالجِبالِ لَستَ لَهَا تَارِكًا»**[4]. اعتمد الخطيب قبل أن يبدأ بحجته على حقائق دينية مشتركة بين مجموعة كبيرة من المتلقين،وهي مسألة أخراج نبي الله آدم من الجنة ،وهو ما حاكاه الآي الكريم﴿ ﴾(**البقرة:35-36**) فالعقوبة التي سرت على الذّنب الواحد-كما مثّل الخطيب- تسري بالضّرورة على الذّنوب الكبيرة التي تشبه الجبال ،ممّا يقترفه الإنسان ،وتخرجه من نعيم الجنّة إلى جحيم النّار[5].

ومن الحجج المؤسّسة على بنية الواقع[6] في خطب ابن نباتة قوله:« **فرَحِم اللهُ أمرأً مَحَّضَ نَفسَه النَّصيحَة ،وجَنّبها العَارَ ،والفَضِيحَة ، قَبلَ سُلوكِ سُبلِ الأوَّلِين ،والحُصول في جَرائِد الرَّاحِلِين ،الذين عَمَّرُوا الدُّنيَا زَمَانًا ،واتَّخذُوهَا أَوطَانًا ،واعتَقَدُو مِنها أَموَالا وأَعوَانا**

---

[1]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 273

[2] باسم خيري خضير ،الحجاج وتوجيه الخطاب،ص73

[3]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 153

[4]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 176

[5] باسم خيري خضير ،الحجاج وتوجيه الخطاب،ص78- 79

[6] المرجع نفسه،ص74

،فـأُخرِجُوا مِنهَـا وحـدانا ،وزَوّدُوا مِـن مَتَاعِهـا أَكفَانًـا ،وبَـدَّلُوا بعزّهـا هَوانًـا ،ولَـم يَجِـدُوا مِـن خَوفِهـا أَمَانًـا»[1] جمع الخطيب في هذه الخطبة بين حجّة السّبب ،والنّتيجَة ،وحجّة الشّخص وَأعمَالِه،فَعرَض للسَبب الذي يجب على الإنسان اتّباعه ؛كي لا يصل إلى نتيجة العار والفضيحة ،وهو سلوك سبل نصح النفس ،ومن ثم عرض لحجّة الشّخص وأعماله ،فعرض لنوع من النّاس الذين ارتكبوا أعمالا أدّت بهم إلى نتائج سيّئة ،دفعا باتّجاه عدم سلوك سبيلهم ،وسلوك السّبيل المناقض له كي لا نصل إلى النتيجة التي وصلوا إليها ،فالتداخل قائم بين الفعل (عدم نصح النفس) وبين الخطاب ،وهو خطاب نصح ،وبين الشّخص (الأوّلون) ،وبذلك يتمّ التّحاجج سلبا أو إيجابا بأعمال ذلك الشّخص ، وصولا إلى إقناع المتلقّي بضرورة الابتعاد عن سلوك مسلك المثال السّيئ كي لا نصل إلى نتيجته ، والمضيّ بطريق سلوك الشّخص (المثال الحسن) ،وصولا إلى النّتيجة الحسنة التي وصلها.

كما عرض ابن نباتة لحجّة الشّخص وأعماله في موضع آخر،ولكن الشّخص هنا لم يكن ماديّا ؛بل شخصا معنويّا [2]، أعماله معروفة لدى المتلقّي ،يحذّر الخطيب النّاس منه لقسوة أعماله ، ولما تدرّه على الناس من فضح للعيوب وكشف للمستور ، يقول:« **فحتّامَ وإلامَ وعَلامَ التَّخَلُّف والمَقامُ، أَتطمَعُون في بَقاء الأبَد، كَلّا والواحد الصّمد ،إنّ الموت بالرّصد، لايُبقِي مِنكُم عَلى أَحدٍ ،فكَأن دَارت عَليكُم دَوائِرُه، ودَهَمتكُم عَسَاكرُه، وكَشفَت لكُم سَرائِرُه...»**[3] فاستعمل الحجاج بالشّخص المعنوي (الموت) ،وأعماله التي تقطع الناس عن حيواتهم وتهدم لذاتهم، وتسلب منهم المال والبنون، ورغد العيش، وكأن له عساكر تغير على الناس وتدهمهم في بيوتهم وتسلبهم أشياءهم الثمينة بسلب حياتهم ، كانت هذه الحجة دامغة في مسار وعظ الناس، وتذكيرهم بالحياة الآخرة التي يجب أن يقدموا لها. إنّ الصّور المصنوعة لشخوص الخطاب الفاعلة تحدّد في هذا المقام الأعمال المقدرة والمآلات الممكنة، فكلما كانت صورة الشخص كاملة كان العمل أكمل ،وكلما كانت صورة الشّخص ناقصة كان العمل أنقص ،وهذا التّجادل بين الشّخص والعمل مأتاه كون الثّقافة العربيّة الإسلاميّة ثقافة قائمة على سلطة الرّجال باعتبارهم حملة الحقائق ومخازن تجارب[4].

وتعدّ حجّة الاتّجاه[5] من الحجج المبنية على الاتّصال التّتابعي ،وقد استعملها الخطيب في سياق التحذير من الأعمال التي تتبعها مضاعفات على المرء يقول في خطبة له « **فَبَادرُوا – عبادَ الله- فِكَاكَ رُهونِكُم قَبل أن تُغلَق ،وَإدرَاك نُفوسِكُم قَبل أن تُزهَق ،وشَمِّرُوا للعَمَلِ قَبلَ أن يقطعكُم الفَوت»**[6] .

استعمل الخطيب حجّة الاتّجاه ،التي حذّرت من التّنازل الذّي يقع فيه الفرد ،إذ استعمل سياسة ما ،فحذّر في هذا السّياق من ثقافة الإهمال التي يسير بعض النّاس ،وشبّههم بالذي رهن نفسه أو ماله أو أرضه عند أحد ما ،فيجب عليه أن يبادر بفكّ ذلك الرّهان ،قبل أن يغلق باب التّسديد ،ومن ثمّ إدراك النّفوس بالعمل الصّالح ،قبل أن تزهق ،وتضيع فرصة الاكتساب ،ويجب عليهم الجدّ في العمل قبل أن يقطع الموت فرص العاملين.

---

[1] - ديوان خطب ابن نباتة ، ص 156

[2] باسم خيري خضير ،الحجاج وتوجيه الخطاب،ص69- 70

[3]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 147

[4]- ينظر : على الشبعان، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل،ط1،دار الكتاب الجديد،بنغازي، ليبيا،2011م، ص 291-292

[5] باسم خيري خضير ،الحجاج وتوجيه الخطاب،ص78

[6]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 174

وحجّة الاتّصال الرّمزي[1] نمثّلها بقول الخطيب:« **فَيَا لهُ مِن مَوقِف ،مَا أَكربَه ،ومَشهَد مَا أَصعَبُه ،وطَرِيقٍ مَا أَشقَّه، وصِراطٍ ما أَدقَّه ،وكِتاب مَا أَجمعَه ،وعِقَاب مَا أَفظَعُه ،ومَقَامٍ مَا أَطوَلَه ،ويَومٍ مَا أَثقلَهُ، وحَاكِمٍ مَا أَعدَلَه، وظَالِمٍ مَا أَخذَلَهُ ،وسِجنٍ مَا أَكظَمَه ،وسَجَّانٍ ما أَفظَّه، لا يَرحَم مَنْ بَكَى،ولَا يَسمَع الُمشتَكَى ،قد نَزَع الله الرَّحمَةَ مِن قَلبِه، فالوَيلُ كلُّ الوَيلِ لِمَن كَان في حِزبِه**»[2]. استعمل

الخطيب رموزا كثيرة منها(**حاكم، ظالم، سجن، سجّان**) ،وكلّها رموز تدلّ على مرموز بمساعدة قرائن معيّنة ،ولكن شَرطُ قَبول المتلقّي متوفّر في الخطاب المعروض ؛لأنّ أمامه حاكما عادلا ،لا يمكن أن يزلّ حكمه، ولا يغادر صغيرة أو كبيرة ،فالعدل في الحكم رمزلله سبحانه وتعالى مصداقا لقوله عزوجل:﴿ ﴾ -(فصلت:46)- ،والظّلم رمز للإنسان دليل قوله تعالى:﴿ ﴾ -(الأحزاب: 72)- والسّجن رمز للنّار،والسّجان رمز لخازنها ،نلحظ أنّ الرّموز التي استعملها الخطيب جاءت في سياق المعارِف المشتركة بين المتكلّم ،والمتلقي فرموزهما مشتركة؛لذا وجدت صدًا لَها ،وتَأثِير في نفس المتلقّي ،ودفعت باتّجاه معيّن أراده الخطيب.

ومن حجج الاتّصال التّواجدي حجّة السّلطة[3] التي أوردها الخطيب في خطبة له في ذكر الموت :«**أَسكَتَهُم واللهِ الذي أَنطَقَهم ،وَأبَاد الذي خَلقَهم ،ويَجمعَهم كَما فَّرقَهُم ،يوم يُعِيد الله العَالمِينَ خَلقًا جَدِيدًا ،ويَجعلَ الظَّالِمينَ لِنارِ جَهنَّم وَقودًا ،من تكُونُونَ شُهداءَ على النَّاسِ ويَكُون الرَّسولُ عليكُم شَهِيدًا**»[4].

استعمل الخطيب في هذا النّص مجموعة من السّلطات ،الأولى سلطة الخالق والموجد والمحاسب والرقيب والمعاقب ،وكذلك استعمل سلطة النّبي محمّد صلّى الله عليه وسلم الذي يكون شهيدا على أمّته يوم القيامة ، فإنّ للأنبياء سلطة يستمدّونها من قداسة مأتاهم ،ومنبع مجيئهم ،فهم صفوة مصطفاة ورهط مختار ،يمتازون بقدرات تخرق العادة ،وتتجاوز الإلف وهذه الهيئة التي تقدم من خلالها الذاكرة الجمعية للأنبياء ،تجعل من ينسلك في مسارهم اعتقادا واعترافا يزكي تلك الصفات ويرسّخ تلك الهيئات[5].

ومن الحجج الاتّصالية المؤسّسة لبنية الواقع قوله:«**...كَلَّا لَيَحصُدُنَّ الزَّارِعُ مَا زَرعَ ولَيزهُدنَّ الجَامع فِيما جَمع ،ولَيَجدنَّ الصَّانِع غِبُّ مَا صَنَعَ**

---

[1] باسم خيري خضير ،الحجاج وتوجيه الخطاب،ص77-78

[2]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 162

[3] باسم خيري خضير ،الحجاج وتوجيه الخطاب،ص89

[4]- ديوان خطب ابن نباتة ،229

[5]- ينظر:محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي(ت1393ه)، التحرير و التنوير،ط1،مؤسسة التاريخ العربي،بيروت، لبنان،2000م، ج2، ص 19

،ولَيطُولنَّ نَدمُ النَّادمُ إن نَفعَ»[1] . اعتمد الخطيب في هذا النّص على حجّة التّمثيل ،إذ أراد أن يؤسّس لفكرة مفادها أنّ كلّ شخص عمل عملا صالحا أو طالحا ؛سيلقى جزاءه بالثّواب أو العقاب ،ومن ثم طرح قضيّة مفروغ منها،وهي مسألة الزّرع الذي يزرعه الفلّاح ،فمن زرع زرعا يحصد مثله ،ولا يمكن له أن يحصد زرعا من جنس أو نوع آخر ،وهذه من الحقائق العلميّة الثّابتة التي لا يختلف فيها اثنان ،وكذا بالنّسبة للصّانع، فإنّه سيجد عاقبة صنعه ،سواء حسنة أم سيّئة ،وهذه الحقائق ساقها في إطار تشبيه حذف أحد طرفيه ،والطّرف المحذوف هو أعمال الإنسان فكل إنسان
سيجد عملا ،وسيجزى به صالحا أم طالحا.

ويعدُّ التَّناص[2] (Intetextuality) من أنماط الحجج الاتّصاليّة المؤسّسة لبنية الواقع يقول:«**فدَراكِ دراكِ ...قَبلَ حُلولِ الهَلاكِ ،قَبلَ هُجُومِ مَا لا يَدفَع ، قَبلَ شُخوصِ الأَبصَار في المَحاجِر، وبُلوغِ القُلوبِ إلى الحَناجِر...هُناكَ يَبرُق البَصرُ ،ويَنزِل القَدرُ،ويَتحَقَّق الحَذرُ ويَقولُ الإنسَانُ يَومَئذٍ:أينَ المَفرُّ،ألا إنَّ السَّاعَة أدهَى وأَمر**»[3] ،وهو تناص مع قوله تعالى:﴿ ﴾-**(القيامة:7-10)**- ،وتعتمد حجيّة التّناص على إلغاء الحدود الفاصلة بين النّص ،والنّصوص«التي يتضمّنها منتج النّص الجديد،إذ تأتي هذه النّصوص متماهية داخل هذا النّص،ومذابة فيه،فتفتح آفاقا أخرى عديدة ؛ممّا يجعل من النّص ملتقى لأكثر من زمن وأكثر من حدث ،وأكثر من دلالة ،فيصبح النّص حافلا بالدلالات،والمعاني»[4]،وهو ما يسمى بتناص النّصوص ،والخطبة انفتحت على نصّ مهمّ ،وهو النّص القُرآني ،واكتسبت حجّيته منه ،ومثّلت تلك النّصوص المتناصة حقائق ثابتة ،وأدوات استعملها الخطيب في مسار العملية الحجاجيّة.

ومن الحجج القائمة على العلاقات الانفصاليّة[5] قوله:« **أَتظُنّونَ أنَّكُم في الدُّنيَا مُخلَّدُون ؟ أم تَحسِبُون أنّكُم مِنَ المَوتِ مُحصَّنُونَ ،ساءَ مَا تَتوهَّمُون، هَيهَاتَ هَيهَاتَ ،إنَّكم إذا لَغرَورونَ،جدّ والله الرّحيلُ ،فاحتَبِقُوا زَادا كَافيًا ،وَوجَب السّؤال فَأَعدُّوا جَوابًا شَافيًا ...فَكأَن قد نَعقَ بِكُم نَاعِقُ الشَّتاتِ، ودَارَت عَليكُم رَحَى الآفَات**»[6].

وقع الفصل بين مفهومين ينتميان إلى مفهوم واحد في الأصل ،فما هو ظاهري إدّعاء النّاس أنّهم محصّنون من الموت ،وخالدون في الحياة الدّنيا ،وجاء الفصل بالأفعال **(تظنّون،تحسبون)** ،ثمّ جاء القول بردّ الادّعاء **(ساء ما تتوهمون)** ،فهو من التّوهّم السّيئ والحقيقة هي أنّ الرّحيل بدأ ؛فاحملوا زادكم ،وهي كناية عن الموت،والزّاد كناية عن الأعمال الصّالحة ،وبعد ذلك وجب الحساب والسّؤال ؛فأعدّوا جوابا كافيا. فهذا النّوع من الحجج قائم على مبدأ الفصل الوهمي بين الأقضية ،والتّصوّرات التي كان

---

[1]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 303
[2] باسم خيري خضير ،الحجاج وتوجيه الخطاب،ص67-68
[3]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 144
[4]- حافظ إسماعيل علوي،الحجاج مفهومه ومجالاته،عالم الكتب الحديث،إربد ، الأردن،2010م، ص 310
[5] ينظر: باسم خيري خضير ،الحجاج وتوجيه الخطاب،ص81
[6]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 272

بينها وصل ،قبل أن يجري عليها التّحويل ،ويمارس عليه التّبديل ،وهو ما يعني أنّ الحدث الحجاجي حدث مقام على منطق العمل إحداثا إنشاء ،وهذا التصور يجعل الحجاج عملا يتجاوز الأبعاد الشكلية الخاوية،ليقيم الوصل بعالم بناء التصورات وتوليد المعارف وهو ما يصير الغاية من الحجاج كامنة فيما يؤوّل إليه من عوالم ممكنة تتولّد عنه وتنبع به[1] .

وقد عرض الخطيب لحجّة الفصل ،وحجّة التّناقض[2] في خطبة يقول فيها :«**أَفيَظنُّ ظَانٌّ أنّ الله خَلقَ الخَلقَ ليُهمِله ،أم أَبدأ العَالم ليَغفله ،كَلَّا ليَبعَثَنّ من أماته ليَسألَه عن الرَّسُول ومَن أَرسَلَهُ ،وعَن القُرآنِ ،ومَن أَرسَلهُ ،وعمَّا قَطعَه عن الحقِّ وشغله وعمَّا اجترحَه في دُنيَاه وفعله، وعَنِ الحَرامِ الذي أَكلَه**»[3].

عرض الخطيب في هذا النّص لفرضيتين متناقضتين ، ثمّ دحض إحداهُما ،وأثبت الأخرى واصلا بذلك إلى معتقد المتلقّي، ومقنعا إيّاه بضرورة ترك الفرضيّة التي تركها ،واعتناق الأخرى التي قبلها ،فعرض لمسألة: هل أن الله خلق الخلق ليهمله؟، وهل من جدوى لهذا الخلق؟،وهل بدأ العالم كله ليغفله ولا يهتم لأمره ؟-وصولا إلى نتيجة مفادها أنّ حقيقة الخلق عبثيّة لا جدوى منها- ،ثم قام بالفصل بين الفرضيتين ،وإثبات أحدهما بتبيان أنّه سبحانه لا يهمل خلقه- وصولا إلى نتيجة مفادها أن حقيقة الخلق غير عبثيّة – ،وأنّه سيبعث من أماته ليسأله عن الرّسول ،ومن أرسله ،ولا يقصد بذلك اسم الرّسول ،ومن أرسله ،إنّما التّصديق بالتّعاليم والقيم والنواهي ،والفرائض والحقوق والواجبات التي جاء بها الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ، ومعرفة من أرسله معرفة حقّة ،باجتناب معاصيه ،وسلوك دروب طاعته ،ويسأله عن كتابه الكريم ،وكيف تدبّره ،وعن أفعاله التي اجترحها في الحياة الدّنيا ،وعن حلال الله وحرامه ،وقع الفصل في هذه الحجّة في اتّجاه فلسفي معيّن ،فالظّاهر لدى الفلسفات الماديّة عبثيّة الخلق ،وعدم وجود داع معين لإيجاده ،وأن هذه الحياة غير مبنيّة على محرّكات نظاميّة دقيقة ،ولكن الباطن ممّا لا يعرفونه أنّ ثمّة داعيا لها ،وأنّ كلّ شيء يسير باتّجاه مرسوم له، فما الله غافل عن خلقه، وكل يسير لأجل هو عارف به.

ومن خلال ما تقدم يتبين أن ابن نباتة في خطبه قد استعمل مجموعة من المقدّمات الحجاجية التي مهّدت الطريق أمامه لإطلاق حججه التي بدورها تنوّعت بين حجج قائمة على الاتّصال ،وأخرى على الانفصال ،وجميعها لعبت دورا في إظهار خطابه بصورة متناسقة ،وموجهة نحو هدف إقناعي معين.

ثالثا: آليّات الحجاج البلاغيّة ،وبنياتها الإقناعيّة في خطب ابن نباتة:

تعدّ المباحث البلاغية من أهم الآليات الحجاجيّة التي يستعملها الباثّ لاستمالة المخاطب ،والتّأثير فيه ؛لما تحمله أساليبها من شحنات تأثيريّة في نفس المتلقّي ،ولكن الحجاج ليس علما يوازي البلاغة ؛بل هو ترسانة من الأساليب والإمكانات اللّفظية والأدواتيّة يتمّ اقتراضها من البلاغة خدمة للعمليّة الاقناعية ؛ لذلك من اليسير الحديث عن اندماج الحجاج بالبلاغة في كثير من الأساليب ،ولما كان مجال الحجاج هو المحتمل وغير المؤكّد ،والمتوقّع فكان من مصلحة الخطاب الحجاجي الاعتماد على الأساليب البلاغيّة ،والبيانيّة التي تظهر المعنى بطريقة أجلى وأوقع في النفس[4] ،« فالأساليب البلاغيّة قد يتمّ عزلها عن

---

[1]- ينظر:علي الشبعان، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، ص 315

[2] باسم خيري خضير ،الحجاج وتوجيه الخطاب،ص74-75

[3]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 158

[4]- ينظر : صابر حباشة، التداولية و الحجاج مداخل و نصوص،ط1، سورية ،2008م، ص 50

سياقها البلاغيّ؛ لتؤدّي وظيفة لا جماليّة،بل تؤدّي وظيفة إقناعيّة استدلاليّة، ومن هنا يتبيّن أنّ معظم الأساليب البلاغيّة تتوفّر على خاصية التّحول لأداء أغراض تواصلية، ولانجاز مقاصد حجاجية»[1] ،والبلاغيّون العرب ركّزوا على استمالة المتلقّي بطرق عدّة ، من أجل الإقناع ؛لأنّ«مدار البلاغة كلّها عليه ، لأنّه انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرّائعة، ولا المعاني اللّطيفة الدقيقة ، دون أن تكون مُسْتَجلِبَةً لبلوغ غرض المخَاطَب بها»[2] ، وتكمن أهميّة هذه الوسائل البلاغيّة ، فيما توفّره للقول من جماليّة قادرة على تحريك وجدان المتلقّي ،وإذا انضافت تلك الجماليّة إلى حجج متنوّعة أمكن للمتكلّم تحقيق غايته بقيادة المتلقّي وتوجيهه، خاصّة إذا تمهّر في فنون القول ،فسيفعل في المتلقّي فعل السّحر بما يضطلع من إفصاح بالحجّة ، ومبالغة في وضوح الدّلالة ،والواقع أنّ الإقناعيّة غاية أيّ حديث ،وخطب الدّيوان باعتبارها حدثا خطابيّا حجاجيّا ،هي فعل بيانيّ يتوصّل بتقنيّات الإخراج البلاغي قصد لفت الانتباه ،وإيقاع التّأثير في المتقبّل،وقد وجدنا أنّ اهتمام ابن نباتة بالإقناع واضح في الدّيوان ،وهو حريص على تبليغ مقاصده ، ورؤاه ،وذلك باستحضاره بعض الأساليب البلاغيّة التي أسهمت في إثراء مسالك الفهم،والإقناع ،والمتمثّلة في الصّور البيانيّة وفنون البديع.

1- الصّور البيانيّة:

تعدّ الصّور البيانيّة آليّة بلاغيّة ،لها القدرة على حمل المخاطب على التّمعن فيها والهدف في الأصل منها هو التّعبير عن قصد المتكلم ،وحمل المخاطب على إدراك ذلك القصد عن طريق تأويل العبارة اللّغويّة، فالصّور البلاغيّة «عمليّة أسلوبيّة تنشّط الخطاب ولهاوظيفة إقناعيّة[3]» ،ذلك أنّ ميزة الكلام بين اثنين التّخاطب مع وجود نيّة التّأثير،وبصور مختلفة،«واللّغات تتفاضل في حقيقتها،و جوهرها بالبيان،وهو تأدية المعاني التي تقوم بالنّفس تامّة على وجه يكون أقرب إلى القبول ،وأدعى إلى التّأثير، وفي صورتها وأجراس كلمها بعذوبة النّطق، وسهولة اللّفظ ، والإلقاء، والخفّة على السّمع »[4] ،وفحوى هذا الكلام، أنّ الذي يجيد استعمال اللّغة يبلغ مراده، ونشير هنا إلى الحجاج بالمجاز ، أي باستعمال الصّور البيانيّة كالتّشبيه ، والاستعارة ، والكناية ،وغيرها، وهي تعدّ من أشكال المجاز، و ذلك استنادا لقول الجرجاني (ت471ه) في تعريفه للمجاز« كلّ كلمة جزت بها ما وَقعت له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له من غير أن تستأنف فيها وضعا لملاحظة بين ما تجوز بها إليه ، وبين أصلها الذي وضعت له في وضع واضعها فهي مجاز»[5]، فإقرار الرجل باستئناف الوضع أخرج اللفظة من دائرة المجاز إلى دائرة الحقيقة .

و« لإحساس ابن نباتة بما تحدثه الصّورة من وقع في نفوس سامعيه جنح في كثير من تعبيراته إلى أفنانها مستظلا بخيالها ومجازاتها»[6] ،وقد جاءت هذه الصّور البيانيّة حاملة لقيم حجاجيّة إقناعيّة ،وهذا بيانها :

---

[1]- ضياء الدين بن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر، ط2،تحقيق أحمد الحوفي و بدوي طبانة، دار النهضة مصر للطباعة و النشر القسم2، القاهرة ، ، 1962م،ص 250

[1]- صابر الحباشة ، التداولية و الحجاج مداخل و نصوص، ص50

[2]- ضياء الدين بن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ص 250

[3]- حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي،عناصر استقصاء نظري، مجلة عالم الفكر ، الكويت، ع 1 ، يوليو سبتمبر ،2001 م، ص110-111

[4]-عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني،أسرار البلاغة في علم البيان، دار الكتب العلمية ،بيروت لبنان ،1998م ،ص01

[5]- المرجع نفسه ، ص 304

[6]- خالد بن محمد الجديع،خطب ابن نباتة الفارقي:الرؤية والفن ، ص 479

2-1: التّشبيه: يعدّ التّشبيه من أوضح الصّور البيانيّة ، لأنّ العلاقة بين المشبّه، والمشبّه به تدرك ببساطة، وتقوم على القياس والاستنتاج المباشر،باعتبار التّشبيه« مستدع طرفين مشبّها ومشبها به واشترك فيهما من وجه ،وافترقا من آخر»[1]،ووجه التّأثير فيه هو أنّ المتكلّم يحمل المتلقّي على الاستنتاج ،وذلك مناط الحجاج ،فالتّشبيه « منه ما يحتاج إلى قدر من التأمّل ومنه ما يدقّ، ويغمض حتّى يحتاج في استخراجه إلى فضل روية، ،ولطف فكرة»[2] ،فالأخذ بالذّوق في تلمّس جمال التّشبيه ضروريّ، باعتبار التّركيب التّشبيهي في حدّ ذاته يهدف إلى إخراج الأغمض إلى الأظهر، ليكتسب وضوحا ، وبيانا وتوكيدا، وإيجازا ،وهي قيمته التّداولية وقد استخدم ابن نباتة التّشبيه في خطب ديوانه ،ومن أمثلة ذلك قوله :**«واعلَمُوا أَنَّه لَا يَصلُح الجهادُ بغيرِ اجتهاد ،كَما لا يَصلُح السَّفرُ بِغيرِ زَاد ،فقَدِّمُوا مُجاهدَة القُلوبِ قبلَ مُشاهَدةِ الحُروبِ ،ومُغالبَة الأهواءِ قَبلَ مُحاربَة الأَعدَاءِ»**[3] .

نلحظ أن ابن نباتة قد شبّه الجهاد بالسّفر الطّويل ،وأراد من خلال هذا التّشبيه أن يربط نتيجة السّفر النّاقص بنتيجة الجهاد النّاقص ،فالسّفر النّاقص الذي لم يستعد له المسافر بالزّاد الذي يعينه على سفر يؤدّي به إلى الهلاك لا محال،والنتيجة نفسها تكون مع الجهاد النّاقص، ويمكن أن نمثّل لهذا التّشبيه كالتّالي :

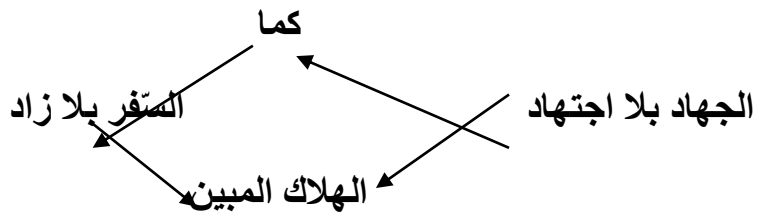

ومن ، جتهدا في
دينه،م ي به إلى
هلاك فعلي يخسر فيه دنياه وآخرته ،وهذا الهلاك يختلف عن هلاك المجاهد الحقيقي لأنّه حينئذ يكون في عالم آخر حي يرزق ،مع الشّهداء والصالحين،فلم يكن بذلك هذا التشبيه اعتباطيا ،بل كان حركة استباقيّة ،واستشرافا مستقبليا دفع بالعملية الإقناعية إلى الأمام وأثبت حجيّة القول ،وزاد من درجة اعتقاد المتلقّي بكلامه.

ويقول في موضع آخر: **«أيُّهَا النَّاس:إنَّ الفِتنَة نَارٌ شَديدٌ ضِرامُها ،بعيدٌ مَرامُها،جَائرةٌ أحكَامُها ،دَامرةٌ أَعلامُها مَسمُومةٌ سِهامُها،مَذمُومةٌ أيَّامُهَا تُغيّرُ النِّعمَ ،وتُعجّل النِّقمَ،وتَقطَع وَشايِج التَّواصُل فَتصِير بِأهلِها إلى البَغضَاء والتَّخاذُل»**[4]. لقد خلقت تشبيهات الخطيب جوّا نفسيّا مختلفا ،تنوّعت فيه صور التّرهيب والتّخويف خدمة للغرض البلاغي،وهو الحثّ على ترك الفتنة والابتعاد عنها:فهي كالنّار التي لا تبقي ولا تذر ،وهي كالحاكم الجائر الذي يقوم على رقاب النّاس،فيفسد في الأرض، ويهلك الحرث والنّسل ،وهي كآلة الحرب التي يستعملها الأعداء ولكن سهامها مسمومة ،وهي كالسّنين الكبيسة التي تمرّ على النّاس،مذمومة أيّامها، ونجد ابن نباتة في هذه التشبيهات قد اتّكأ على مقوّمات عديدة

[1]- أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي ،مفتاح العلوم، ص 157
[2]- عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ، أسرار البلاغة في علم البيان ، ص 73
[3] - ديوان خطب ابن نباتة، ص 300
[4]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 283-284

في ذاكرة المتلقّي من أجل إقناعه والتأثير عليه،فاعتمد على ذاكرة المتلقّي الثّقافية التي تشي بما تخلق الفتنة من حروب ،ودمار وتنافس ،واقتتال بين المتخاصمين ،وعلى ذاكرة المتلقّي السّياسية التي تشي بما يكون في زمن السّلطان الجائر من اضطراب ،وعدم الحكم بما أنزل الله ،وعلى ذاكرة المتلقّي التّاريخيّة التي تشي بما خلقت الفتنة من نزاعات بين الأقوام والقبائل يكره ذكرها. يذمّ

الخطيب واصفا الدنيا:«**واحذرُوا الدُّنيَا فإنَّها دارُ ظمنٍ لا شكَّ فيها ،وقَرارُ حزن لمُصطَفيهَا ،ومَدارُ مِحن جَامعَة على مُقتفِيها ،ومَحارُ فِتنٍ وَاقعَة بمعتفيها ،ومَتجَر أَرباحٍ لعَارفِيها ،ومَصدَر فلاح لِعائِفِيهَا**»[1].

اعتمد الخطيب في هذا الوصف على التّشبيه ،وقد جاء بصورة مكثّفة ،فتارة يشبّه الدّنيا بالدّار التي لا تضمن ،ومرّة بالقرار،وهو المكان العميق الذي تجتمع فيه الأحزان عند كلّ من اختارها ،ومدارا للمحن والمصاعب لكلّ من اتبع أثرها ،ومحارا لاجتماع الفتن ،وتارة أخرى بالمتجر المربح ،حينما يستغلّها المؤمن بالعمل الصّالح كطريق للآخرة ،ومصدرا للنّجاح لكلّ من عفّ عن ملذّاتها ،والغاية من كل ذلك هو التّأثير في المتلقّي ،ودفعه إلى عمل معين أو حثّه على إعادة التّفكير في مواقفه ،وتعديل سلوكه في الحياة الدّنيا ،واختيار ما فيه صلاح له فيها ،وقد دفع هذا التّشبيه بالمتلقّي إلى التّحليل ،والبحث عن المعنى المراد ،وهذا ما يسعى إليه الحجاج بالدّرجة الأولى.

2-1: الاستعارة: أمّا

الاستعارة فقد عرّفها الجرجاني بقوله:« اعلم أنّ الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللّغوي معروفا تدلّ على الشّواهد على أنّه اختص به حين وضع ، ثم يستعمله الشّاعر، أو غير الشّاعر في غير ذلك الأصل ،وينقله إليه نقل غير لازم ،فيكون كالعارية»[2]، فالاستعارة من منظور الجرجاني هي انتقال اللّفظ من أصله اللّغوي ، ويجري على ما يوضع له ، فهي تؤدّي معنى جديد، دون التّخلي عن المعنى الأصلي ، وبيانيّا هي ضرب من المجاز اللغوي علاقته المشابهة ، تعدّ أقوى الصّور البيانيّة بلاغة، فإذا كان«التّشبيه البليغ أبلغ من التّشبيه المرسل ،والمجمل بكونه مختزلا في الطّرفين فقط،فإنّ الاستعارة أبلغ من التّشبيه البليغ ،لأنّها استغنت بلفتة فنيّة عن أحد الطرفين»[3] ،ولكن بعد ظهور ما يسمّى بالبلاغة الجديدة، تحوّل النّظر إليها من مجرّد وسيلة تزيينيّة إلى كونها آليات حجاجيّة ،تحمل قيمة تداوليّة بقيامها على عنصر الاستنتاج بدفع المتلقّي للتّأويل وفهم نوايا، وقصود المتكلّم المراد منها من جهة ،والاقتناع بها من جهة ثانية، فهي«أدعى من الحقيقة لتحريك همّة المستمع إلى الاقتناع بها ،والالتزام بقيمها»[4]، سواء كانت مكنيّة، أم تصريحيّة.

وقد حفلت خطب ابن نباتة باستعارات كثيرة [5]،اطّلعت بدور حجاجي مهمّ، وساهمت في دفع العمليّة الإقناعيّة ،وأعطى ابن نباتة زخما عاليا لمتلقّيه ،من خلال إخفاء المستعار ليعطي

---

[1]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 187

[2]- عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ، أسرار البلاغة في علم البيان ، ص24

[3]- علي محمد علي سمان، كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج – رسائله نموذجا، ط1، دار فارس للنشر و التوزيع الأردن، 2010م،ص273

[4]- طه عبد الرحمن ،اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي ، ص 312

[5]- ينظر: باسم خيري خضير ،الحجاج وتوجيه الخطاب،ص

للفكر دوره الحقيقي في التّخيّل ،وبناء صورة تتكامل تدريجيّا بالتّعاون مع المنتج، ففي خطبة له في الحثّ على الجهاد:«**أَيُّهَا النَّاس: إنَّ اللهَ أَيَّه بِكُم ،فهَل أَنتُم سَامعُون؟،ونَدبَكُم إلى طَاعتِه فهَل أَنتُم إلَيْهَا مُسارِعُون ،وزَجرَكمُ عَن مَعصِيتِه ،فهَل أَنتم عَنهَا رَاجعُون وسَاومَكُم بنُفوسِكم فهَل أَنتُم لَها بَائعُون ،وجَعلَ أَثمَانهَا جَنَّتهُ فهَل أَنتُم إليها نَازعُون وأَنبَت لَكم مِن الحبَّة سبعمَائة فهَل أَنتُم لَها زَارعُون**»[1] . هنا استعمل الخطيب لوحة بلاغيّة عالية ،تنوّعت فنون بلاغتها خدمة لغرض أساس ،وهو حثّ النّاس ،ودفعهم نحو الجهاد ،والتّأثير في نفوسهم ،فاستعمل استعارات من قبيل **"وساومكم بنفوسكم فهل لها أنتم بائعون،وجعل أثمانها جنته فهل أنتم إليها نازعون"** ،فشبّه النّفوس بالبضاعة ،لكن عمليّة البيع والشّراء هنا تختلف عن عمليّات البيع والشّراء، فهي عمليّة ربحها أكيد ،ومضمون فاشتغلت الاستعارة على القصد من وراء الخطاب ،وهو الحثّ على الجهاد، وما يتبعه من أذى محتمل ،فقدّمت الضّمان ،والنتيجة لذلك الهلاك المحتمل كونه تمّ وفق عمليّة مساومة بين المرء وربّه، يحصل بموجبها ثمن غال جدّا ،وهو الجنّة فدفعت تلك الاستعارة بالعمليّة الإقناعيّة باتّجاه القبول بفحوى الخطاب ومراد الخطيب، ثم عاد بعد ذلك ليذكر الجانب الآخر،وهو حجاج عكسي لمن خالف ،وعزف عن تلك المساومة وهو العذاب الأليم ،وبعد أن قدّم الخطيب المقدّمات المطلوبة في سبيل إنجاح عملية الإقناع وصل إلى الغاية التي يريد أن يصل إليها ،ووجّه المتلقّي نحو القبول بها[2]؛إذ يقول في الخطبة نفسها:**«فانفُرُوا رَحمكُم الله جَميعًا،وثُباتٍ ،وشُنُّوا عَلى أَعدَائكُم الغَاراتِ ،وتمسَّكُوا بعِصمِ الأَقدامِ ،ومَعاصِم الثَّباتِ ،وأخلِصُوا في جِهادِ عَدُوّكُم حَقائِق النِّيَّات»**[3]. لقد استعار ابن نباتة في عمليّة المنفعة المتبادلة في الشّراء،آخذا بعين الاعتبار المتلقّي الإنسان الذي يحكم كل شيء في مفهوم الرّبح والخسارة ،وهي قيم قويّة استعملها الخطيب لأنّ الاستعارة دائما ترتكز على المستعار منه ،سواء أصرّح به ،أو لم يصرّح ،وغالبا ما يقترن هذا الطّرف بالقيم العليا ، إذ ينزل منزلة الشّاهد الأمثل ،والدليل الأفضل ،فتكون الاستعارة بذلك أدعى من الحقيقة؛ لتحريك همّة المستمع إلى الاقتناع بها والالتزام بقيمها[4]،ومن استعاراته أيضا خطبة له يذمّ فيها الدّنيا ،ويدعو إلى الحذر من غرورها[5]: **«أَيُّهَا النَّاسُ: فَضَحَ المَوتُ الدُّنيَا فازدَرُوها لفَضيحَتِها ،ونَصحَتكُم حَوادثُها فاحذَرُوهَا لِنصيحَتهَا،فكفَاكُم بها مُنذِرا ،وبِسابِقِها عن لَاحِقِها مُخبِرا،أو مَا رَأيتُم إفسَادهَا مَن أَصلَحهَا وغِشَّها مَن نَصحَها،مِمَّن اتّخَذَها وظَنَّ غِطاءَها غُنمًا»**[6]. شبّه الخطيب الدّنيا بالمرأة سيئة الصّيت، ثم حذف المشبّه به ،وأبقى المشبّه ،ثم بين أن الموت فضح الدنيا من خلال سلب حياة من اغتر بها ،وأبطل مزاعم من غرته ببقائها وديمومتها،ثم طلب بازدرائها واستصغارها واستحقارها نتيجة افتضاح عيوبها ،وهي استعارة خدمت الغرض من الحدث الكلامي ،ودفعت عمليّة الإقناع ،لا سيما أن لا أبلغ من الابتعاد عن المرأة سيّئة الصّيت ،واحتقارها بعد فضح عيوبها ،وهو أبلغ وأكثر تأثيرا لو جيء باللفظ الحقيقي،وتكمن فعّاليتها هنا بالتّناسب مع ما يطلبه

---

[1]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 299

[2]باسم خيري خضير ،الحجاج وتوجيه الخطاب،ص100

[3]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 299

[4] - ينظر: طه عبد الرحمن ،اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي ، ص 312

[5]باسم خيري خضير ،الحجاج وتوجيه الخطاب،ص103

[6] - ديوان خطب ابن نباتة ، ص 33

السّياق«فيظهر التوجه العملي لها في الارتكاز على المستعار منه،إذ تكون بذلك أدعى من الحقيقة ؛لتحريك همّة المخاطب إلى الإقناع ،إذ يهدف إلى تغيير المقاييس التي يعتمدها المخاطب في تقويم الواقع والسلوك،وأن يعترف على ذلك المخاطب؛ليكون سبب القبول والتّسليم،وليس التّخييل أوالصّنعة اللفظية»[1] ومن استعاراته أيضا خطبة له يقول فيها: « **أَيُّهَا النَّاسُ:أكرهُوا النُّفوسَ علَى مُخالفَة الأهواء، ونَاجزُوها في أداءِ حَقّ الله مُناجَزَة الأعدَاءِ،واعلَمُوا أنَّ الدُّنيَا دارٌ مَعدُومَة السّراء(...) أَينَ مَن كَان قَبلَكم مِن القُدمَاء مِن الجَبابِرة والمُلوكِ العُظمَاء؟(...) أَينَ مَن نَازعَ الله رِداءَ الكِبريَاء(...)انظُرُوا كَيف تَقضْقَضَت عَليهِم الحَادثَات تَقضقُض الشَّعوَاء وصَرعَتْهُم الأيَّامُ بِسيفِ المَنيَّة الغَلبَاء**»[2].

غاية الخطبة حثّ النّاس على مجابهة أهواء النّفس ،وإيفائها حقّ الله من الواجبات وغيرها وقد استعار لفظة ناجزوها ،والمناجزة هي القتال،وعليه شبّه ترويض النّفس وحثّها على العمل الصّالح بمقاتلة الأعداء ،فعملت الاستعارة على تكثيف المعنى؛ ليتلاءم والغرض الذي سيقت إليه ،فالاستعارة لا يراد بها المعنى الحقيقي ،وإنّما لها معنى أعلى وأقوى ،تساق له الألفاظ المستعارة ،ولا يؤدى بغيرها ،وثمّة استعارة أخرى في قوله:" **أين من نازع الله رداء الكبرياء"** فشبّه الكبرياء بما له رداء وهي حق لله قال تعالى:﴿ ↖📖♦🖉◆❐ ↓↗🖉♦③❸⇗↬⇦▤⇘↬ ❼×

◆❑➔♎◆❐ ☎ ⇦➘⇗❻☞❀ ◆❐ ◆❑🕓⏢☺○○↬ ❶❽③❽➔⇘↬ ❽⑩⇦▤❑♦⇘💻 ↓❽③❽⏢➔⇘↬ -﴿⇦ -(الجاثية:37)

فالكبرياء ملك لله على الاختصاص،ولكن أولئك المتكبّرون نازعوا الله في صفاته الخاصّة ،وحاولوا سَلبَها، فأعطت الاستعارة أعلى درجات الذمّ والتّقريح ،وساهمت في حثّ المتلقي على الاتّعاظ بسنن الأوّلين الذين طغوا في الأرض وثمّة استعارة أخرى في قوله:" **وصرعتهم الأيام بسيف المنيّة الغلباء"** فشبه المنية بالعدو الذي يمتلك سيفا ثم حذف المشبه به وأبقى على المشبه ،وهي نتيجة للاستعارة والحديث السّابق حول المتكبرين الذين نازعوا الله في رداء الكبرياء ،وغرّهم في الله الغرور ،وكانت نهايتهم أن قضت عليهم حوادث الأيّام والدّهور؛وعليه يتبيّن أنّ الاستعارة خلقت صورا في تقلّب الزّمان ،وزوال النّعم على الذين يتكبرون على الله،دافعة بذلك نحو الهَدف المراد من الإقناع ،وهو أن يبتعد الإنسان عن التّكبّر و،يخالف أهواءه،ويكون من عباد الله الصّالحين[3]. **1-3: الكناية:**

تعدّ الكناية من الآليات الحجاجيّة المهمّة ، إذ تطلع بدو فعّال في خدمة العملية التّواصلية بين المتخاطبين ،وهي تشترك مع الاستعارة في احتوائها على معنى حرفي ظاهر في اللفظ وآخر ضمني* يرمي إليه المتكلّم ،وينبغي أن يدركه السّامع ، فهي عند أهلها« ترك الصّريح بذكر الشّيء إلى ذكر ما هو ملزومه لينتقل من المذكور إلى المتروك»[4]،فالمتكلّم يعتقد بدور المعنى الكنائي في إقناع المخاطب؛لذلك يعتمد كثيرا على الكفاءة المعرفيّة له ،ودورها الكبير في استنباط المعنى ودفعه للاقتناع،وهنا تكمن

---

[1]- عبد الهادي بن ظافر الشهري ،استراتيجيات الخطاب، 496

[2]- ديوان خطب ابن نباتة ،ص 202-203

[3]باسم خيري خضير ،الحجاج وتوجيه الخطاب،ص101

* كقولنا : "رجع فلان فارغ اليدين "، فالمعنى الحرفي الظاهر هو أن هذا الرجل لا يحمل معه شيء في يديه ، و لكن هذا المعنى ليس هو المقصود بل معنى ضمني حمله المعنى الحرفي وهو خيبة الرجل بعدم تحصله على غايته التي يرجوها.

[4]- أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي ، مفتاح العلوم، ص 189

طاقتها الحجاجيّة في تركها للذّهن مجالا ،لإقامة علاقات تؤدّي في النّهاية إلى الإقناع العقلي بالحقيقة التي يريد المتكلّم إثباتها ،فيوردها بوصفها وسيلة إقناعيّة تسهم في اتّساع الأفق الإقناعي وحصول الإقناع فيورد الكناية كطرح فلسفي ،ومتى ما اكتشفها القارئ أقرّ بصحّة الطرح ،ومن كنايات ابن نباتة[1] خطبة له يذكر فيها الموت:« **أَيُّهَا النَّاسُ: تَجهَّزوا فَقد ضُرب فِيكم بُوق الرَّحِيل، وأَبرِزُوا فقد قَربَت لكُم نُوق التَّحوِيل ،ودَعُوا التَّمسُّك بِخدَع الأبَاطِيل والرُّكونِ إلى التّسوِيفِ والتَّعلِيلِ**»[2].

فـ**(بوق الرحيل)** هنا كناية عن الموت ،فشبهه بعملية سير الجيوش والقوافل سابقا ،فعندما يجهز المسافرون يضرب بوق ،دلالة على ابتداء عملية السير فتتمظهر حجاجية أسلوب الكناية هنا في أنه أعطى للخطاب معينين،إحداهما قريب مقصود وآخر يختفي خلف النص وهو الذي يسعى إليه الباث؛لما له من تأثير قوي في المتلقي ولما يمتلكه من قوة راسخة في الخلفيات المعرفية للمتلقي بغية تحقيق الهدف الإقناعي ،فالمعنى الظاهر هو الرحيل ،لكن المعنى الذي يرومه الخطيب هو الموت،الذي جعله أمرا واقعا لا محالة وجعل بداياته متحققة عندما نفخ بوق الرحيل[3].ومن كناياته أيضا قوله في خطبة يذكر فيها يوم القيامة:« **أَيُّهَا النَّاسُ:اهتفُوا بالقُلوبِ لَعلَّهَا تَهِب مِن وَسَنِ رُقادِها ،واصْرِفُوا أَعنَّة أَهواءِ النَّفسِ عَن مَوارِد إبعَادِها ،واعرَفُوا آجِلَ إصدارِ الأُمورِ بعَاجِلِ إيرَادِها ،واقْتفُوا فِي دَار النَّقلَة ،والزّوال آثارَ زُهَّادهَا ،فقد لَاحت الدُّنيَا على أَهلِها بألسُن انقِلابِها**»[4] .

استعمل ابن نباتة في هذا المقطع كنايتين الأولى في قوله:**(تهب من وسن رقادها)** ،وهي كناية عن غفلة القلوب ،والوسن هو ثقلة النوم ،وقيل: النّعاس ؛فكنّى به عن غفلة القلوب وعدم اكتراثها بما ينتظرها في الحياة الآخرة ،ومن شدّة غفلتها ونومها ؛فإنّها لا تصحو إلا عندما يهتف فيها بصوت عال ،وفي ذلك دلالة على التغلغل في الأهواء التي مثّلت موارد الإلهاء والابتعاد عن الحقائق ،فجسدت الكناية هنا وسيلة إقناع من خلال توسيع أفق المخاَطَب على الحقائق، وطرحت النتيجة المقدمة وهي الغفلة بداية ،ثمّ طرحت مقدّمات وأسبابا لها ،وهي التّمسّك بموارد الأهواء،والكناية الثّانية في قوله: **(فقد ناحت الدنيا على أهلها)** ،وهي كناية عن تقلّب حوادث الزّمان على أهل الدّنيا وتغيّر حالها من الرّخاء والنّعيم إلى الشدّة والعناء على النحو التالي:

النتيجة : الاتّعاظ والاستيقاظ من حال الغفلة

1- تهب من وسن رقادها	الإنسان غير مكترث
2- ناحت الدنيا على أهلها	حوادث الزمان تتغير على أهل الدنيا
(أ) كناية	**(ب) كلام مباشر**

شحنت الكناية (أ) بحمولة حجاجية كبيرة لأنّها أجبرت المتلقي على التّخييل ،وإمعان الذّهن حتى يتّضح المعنى المقود من القول ،في المقابل تنعدم الحجاجيّة في الكلام المباشر (ب) لأنّه عاري من محفّزات الإقناع ،والتّأثير،وبالتّالي تكون الكنايتين السّابقتين قد مثّلتا دفعا حقيقيّا في عمليّة الإقناع ،وحثّ المخاطَب على النّهوض بالغرض من الحدث الكلامي،وهو الاتّعاظ

[1] - ينظر: باسم خيري خضير ،الحجاج وتوجيه الخطاب،ص

[2]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 219

[3]باسم خيري خضير ،الحجاج وتوجيه الخطاب،ص112

[4] - ديوان خطب ابن نباتة ، ص 254

والتّنبّه لحاله ،والاسيقاظ من الغفلة التي وقعوا فيها نتيجة كثرة الذّنوب وتعاظم الخطايا ،ولقد تفادى ابن نباتة التّصريح ،وأقبل على التّلميح بالقضايا التي أراد توصيلها للمخاطَب ،وراهن على فطنة المتكلّم وبراعة تلقّيه وحدّة ذهنه،وسرعة فهمه للدّلالات الباطنيّة المختفية وراء ألفاظه الظّاهرة ،فاتّكأ على المحلّ الضّمني الذي يوجب على المخاطَب ملأَه؛ ممّا يؤدي إلى الخضوع والتّسليم بالإقناع.

ومن كناياته خطبة له في ذمّ الدنيا[1] يقول فيها:« **أَمَا فِي ذَلِكَ عِبادُ الله مَا أَنذَر بالرَّحِيل وذَلَّ على التَّحوِيل ،وقَلقَل القُلوبَ عَن القَرار، وشَغل عن غُرور هَذه الدَّار،فَكيفَ ،وهُو أقرَب مَنازِل السَّفر الطَّويل،وأعذب مَناهِل اليوم الثَّقيل،وذَلك يومُ فِرار الخَليل مِن الخَليلِ**»[2].

استعمل ابن نباتة كنايتين الأولى في قوله:**(منازل السفر الطويل)** ،وهي كناية عن منازل الموت التي ينزلها الإنسان بعد يوم مماته فأقرب هذه المنازل هو الموت الدّنيوي ،لكن السّفر طويل ،وثمّة منازل طويلة في الآخرة ،على الإنسان الاستعداد لها بالعدّة والمُؤن ؛ نظرا لطول السّفر ،وتعدّد محطّاته ، وقد حشد الخطيب هذه الكناية للتّأثير على السّامع ،وحثّه على ترك غرور الدّنيا ،والجدّ والعمل في الاستعداد للسّفر الطّويل كون الحياة الدّنيا محطّة من محطّاته الكثيرة ، ثم جاء بكناية ثانية في قوله: **(وأعذب مناهل اليوم الثقيل)** ،وهي كناية عن يوم القيامة ذلك اليوم الثّقيل الطويل في ساعاته ،ولحظاته وأحداثه ،وقد قدّم من خلالها حقيقة مصحوبة بدليها ؛أدّت بعقل المتلقّي إلى التأمّل والانتقال من معنى إلى آخر، والرّبط بينها حتى يتثبّت ،ويترسّخ في ذهنه بمحاولة منه الوقوف من المعنى المذكور فيها إلى لازم هذا المعنى،وهو المقصود ،والّتنقل من المعطى إلى المسكوت عنه ،فلا يفارقه بغية إقناعه بهول يوم الحِساب فـ«الكناية كالاستعارة استعمال للّفظ في غير ما هو معهود له من المعنى على الرّغم من أنّ الانتقال فيهما ،من المعنى المجازي إلى المعنى الصّريح يختلف... ومدار الصّواب في ذلك الفهم ،و الإفهام الذي يحدث به التّأثير، والاقناع»[3] .

2- البديع:

يسود اعتقاد بأنّ الأشكال اللغوية التي تنتمي إلى المستوى البديعي يقف دورها عند الوظيفة الشّكلية التي تستهدف التّحسين والزخرفة ،لكن هذا الرأي مغلوط ،فإنّ لها دورا حجاجيّا واضحا ،بهدف الإقناع والبلوغ بالأثر مبلغه الأبعد كالمقابلة والجناس والطباق[4] .

فللأشكال الموسيقية دور كبير في عمليّة الإقناع النّصي،بوصفها نشاطا يحفّز المخاطب ويكون قادرا على توليد المعاني ،وتأويلات وتمتاز بقدرتها على إقناع النّفوس واستمالتها.

يستعمل المتكلّم أشكالا تصنّف بأنّها بديعيّة ،ولها دور حجاجي «لا على سبيل الزخرفة ولكن بهدف الإقناع ،حتّى لو تخيّل النّاس غير ذلك ،بيد أنّ البلاغة العربيّة مليئة بهذه الصّور والإمكانات ،ومليئة بالشّواهد التي تثبت أنّ الحجاج من وظائف هذه الصّور،وليس وجودها على سبيل الصّنعة في أصلها ،وإن كان لا يمنع المخاطب من أن يبدع كيفما يشاء»[5] ،فتستعمل الآليات البديعية في إحداث تغيير في وجهة نظر المخاطَب وإحداث الإفهام المطلوب ،وحينئذ تكتسب صفتها الحجاجيّة فإذا أدركنا «أن الآليّات الحجاجيّة القياسيّة التي

---

[1] باسم خيري خضير ،الحجاج وتوجيه الخطاب،ص115

[2] - ديوان خطب ابن نباتة ، ص 125

[3]- ليلى جغام ، الحجاج في كتاب البيان و التبيين للجاحظ ، ص 158

[4]- ينظر: عبد الجليل العشراوي، الحجاج في الخطابة النبوية،ط1، عالم الكتب الحديث ،2012م ، ص 156

[5]- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استرتيجيات الخطاب دراسة لغوية تداولية ، ص 497-498

تتحكّم في بناء الخطاب الطّبيعي تقوم في عمليّات الفريق والإثبات والإلحاق،وإنّ هذه الآليات الاحتجاجية هدفها الإفهام ،تبيّن أنّ أساليب البيان مثل المقابلة والجناس والطباق ،وغيرها ليست اصطناعا للتّحسين والبديع ،وإنما هي أصلا أساليب للإبلاغ والتبليغ»[1]

2-1: الطّباق: الطباق من المحسّنات البديعيّة ،ويعدّ فن أسلوبي اشتهر في الأدب العربي، وشاع على ألسنة العامة، والخاصة قديماً وحديثاً بتسمياته المتعددة، فقد سمي المطابقة، والتكافؤ ،وقد عرّفه أبو الهلال العسكري بقوله:«المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشّيء وضدّه في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو البيت من بيوت القصيدة ،مثل الجمع بين البياض والسّواد والليل والنّهار والحرّ والبرد»[2] وقد استند الخطيب عليه في مواضع عدّة من خطب ديوانه ،ومن أمثلتها[3] قوله:**«أُوصِيكُم عِبادَ اللهِ ،وإيَّايَ بِتقوَى الله ،فإنَّ تَقوَاه تُوجِب كَرِيم المَآبِ ،وجَزِيلَ الثَّوابِ ،وإنّ مُخَالفَتهُ تُحلُّ أَليمَ العِقَاب ،ووَبيلَ العَذابِ»**[4] . لقد استعمل الخطيب الضّدين **(العذاب والثواب)** ،ولكن المتمعّن لهذا الاستعمال لا يعدم البعد الحجاجي له فلا يمكن لنا أن نعده من قبيل الصفة المعنوية التي توخاها ،لقد قارب بين الضّدين كي يعطي الخطاب مسارا ضِديّا متناقضا احتماليّا تبعا لخطوات المتلقّي ،وهي حجّية التّناقض ،حينما يعرض مسارين متناقضين دافعا باتجاه ترك أحدهما ،وتبنّي الآخر،وكان خطابه إستشرافيّا للمستقبل ،حاول قراءة البعد المستقبلي للمتلقّي،فمن كان تقيّا ورعا مجانبا للمحرّمات التي فرضها سبحانه كان مآبه كريما ،وثوابه جزيلا ،ومن سار عكس هذا السّير كان عقابه أليما ،وعذابه وبيلا،هذه المقابلة دفعت بالمسار الإقناعي للمتلقّي وحاولت فرض خارطة طريق عليه. ومن طباقاته خطبة له في الموت:**«أَيُّها النَّاسُ:استَدرِكُوا سَوابِق الحَوبَات بِلوَاحِق التَّوبَات»**[5]،وهو من الطّباق اللّفظي إذ ذكر الخطيب اللفظ ،وضدّه فالحوبة هي الذنب وضدها التوبة ،ولا يمكن لنا أن نعد هذا النّوع مجرّدا من التّوجيه الحجاجي الذي أراده الخطيب،بل إن الحجيّة واضحة في تلاحق الألفاظ وتتابعها؛ كي تعطي دافعا تأثيريّا وتوجيهيّا للمتلقّي للسّير في المسار الذي رسمه الباث[6]. ومن أمثلة الطّباق أيضا خطبة له يذكر فيها احتباس المطر:**« أَيُّها النَّاسُ: مَا أَفضَع الفَقر بَعدَ الثَّراءِ ،وأَشنَعَ العُسرَ بعد الرَّخاءِ، وأَبشَعَ البُؤسَ بَعد النَّعمَاء، وأَوجَعَ المَنعَ بعد العَطاءِ،أَمَا تَرونَ نَتائجَ الغَدرِ بَعد الوَفاءِ ،وعَواقِب إتِّباعِ مُضِلَّاتِ الأَهوَاءِ»**[7]. لم تكن مطابقة الخطيب مطابقة عادية ؛بل توخّى فيها أن يطابق بين الفقر والرخاء ولكن الطّباق لا يصلح حتّى يؤتى بدلالة أخرى ،وهي كون الفقر بعد الثّراء ،وهذا أعظم الفقر وأشنع العسر ما كان بعد الرخاء ،وكذلك فأبشع البؤس ما كان بعد نعماء مّرت على الإنسان فحاكى الطّباق في مقابلاته الحالة النفسية التي تمرّ على الفرد الذي يمرّ بالعناء بعد ترف

---

[1]- طه عبد الرحمن،مراتب الحجاج وقياس التمثيل،مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية،جامعة سيدي محمد بن عبد الله،المغرب، العدد9، 1989م،ص 18

[2]-أبو الهلال العسكري،كتاب الصناعتين(الكتابة والشعر)،تحقيق:محمد أمين الخانجي،مطبعة محمود بك،الأستانة ص238

[3] باسم خيري خضير ،الحجاج وتوجيه الخطاب،ص119

[4]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 23

[5]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 238

[6]باسم خيري خضير ،الحجاج وتوجيه الخطاب،ص120

[7]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 289

العيش ،وكانت المقابلات الضديّة في الإطار الإقناعي الذي رسمه الخطيبُ ،وكانت ثمّة نتيجة أراد أن يُقنع المتلقّي بها بأنَّ كلّ القحط وضيق العيش وحجب السماء قطرها بسبب ارتكاب الفحشاء واللهو بعيدا عن دروب التّقوى التي رُسمت لهم.

2-2: الجناس :

هو من الألوان البديعيّة الأخرى التي تزخر بها لغة الخطابات ،والتي تحقق قيما موسيقية عالية ،وتكمن أهميّته في إحداث الأثر في المتلقّي صوتياً ودلالياً ؛لذا فهو اتفاق اللفظتين في وجه من الوجوه مع اختلاف معنييهما[1]، كما أنّه لا يمكن الفصل بين الخصائص الإيقاعيّة والدّلالية للجناس نظرا لما يحدثه بين أجزاء القول ،وما يشيعه من قرابة بين مدلول اللّفظ وصورته في السّياق الذي يرد فيه اللفظ مجانسا لآخر، وبذلك يتحقّق شرط التّحسين والتكوين في المجانسة بين الألفاظ،إذ أنّ توظيف الجناس يرد داعما جوهريا في بناء المعنى ،وتبليغه بطريقة مؤثّرة؛ إذ يجعل الخطيب من التمّاثل بين الألفاظ دعامة قويّة لتقوية المعنى الذي يروم إيصاله إلى المتلقّي ،ومن ثم تثبيته في ذهنه . ومن شواهده[2] قوله في وصف رسول الله –صلى الله عليه وسلم- :**«أَرسَلَهُ مِن أَبعَد البَريّة هِممًا ،وأَحمدُها أمما ،وأعصمُها ذِممًا، وأكرمُها لُمعا، وأعدلها أمما»**[3]. يتجسّد الجناس في الألفاظ:(**همما،أمما،ذمما،لمعا،أمما**) فالمستوى السّطحي لها يقدم التّكرارية والمستوى العميق يعتمد المخالفة ،فالمتلقي يقف على التباين الحاصل بين مدلولها رغم تجانس حروفها،وهذه الخاصيّة هي جوهر القوة في الجناس ؛لأنّه يشرك المخاطب في اكتشاف المعنى، وعقد مقارنات بين الكلمات ،ثم الوقوف على القصد من القول من خلال ربط الكلمات المتجانسة بالمقام ،وهذا الربط هو الذي يؤكد المعنى ويقوّيه. ومن مواضع تجنيس الاشتقاق ،-وهو أن تجيء بألفاظ يجمعها أصل واحد في اللغة[4] قوله في وصف المتصوفة « **رمَقُوا العَواقِبَ بِالبصَائِرِ البَصيرَة ،وجَنَّبوا الجنوبِ مهادَ الفُرشِ الوَثِيرة ،وعَقَلُوا القُلوبَ بِعُقلِ الصّبرِ المَريرَة ،وآثَرُوا المَحبُوب بِنَفائسِ الأَنفُسِ الأَثيرَة فَأَقَرَّهُم قُررَ العَينِ القَريرَة ،وتَوَّجَهم بِتِيجانِ الكَرامَة»**[5]. استغلّ ابن نباتة زاده المعجمي لتنويع الجناس ،مستندا في ذلك إلى ظاهرة الاشتقاق اللّغوي مع الإكثار من الألفاظ التي تتقارب في مخارج الأصوات، ممّا ساعد على حضور المعنى وتأكيده ،وهي الغاية التي يرومها الحجاج ،والمتمثّل في حثّ الخطيب على سلوك سبل العباد ،والطّائعين الذين رفضوا الدنيا،وأقبلوا على الآخرة فبواهم الله جنّته ،فعناية المتكلّم بالجناس عنايته بالمحسّنات البديعيّة الأخرى نظرا للأثر الذي يتركه في المتلقّي من شحنات عاطفيّة يعزّزها الجرس الموسيقي .

ويقول في خطبة أخرى له:**« فَتأَهَّبُوا رَحِمكُم اللهُ للصَّوتِ السَّميعِ والمَوتِ الذَّريعِ والخَطبِ**

---

[1]- ينظر: أبو محمد القاسم الانصاري السجلماسي،المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع،ط1،تحقيق وتقديم : جلال الغازي ،مكتبة المعارف ، الرباط،1980م،ص 482

[2] ينظر: باسم خيري خضير ،الحجاج وتوجيه الخطاب،ص

[3]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 119

[4]-ينظر: ضياء الدين بن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،ص229

[5]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 261

الفَضيع ،والحِسابِ السَّريع ،إذا انشقَّت السَّماءُ فمَارَت ،وتمزَّقت الجِبَال فَسارَت، وبُعثِرت الضَّرائِع فَثارَت ،ونُشرَت الصُّحفُ فطَارت، وشَخصَت الأبصار فحارت»[1]

اختار الخطيب ألفاظا توحي بالقوّة ،وتبعث على الخوف من يوم القيامة ،ووجد في الجناس أسلوبا ناجعا في وصف مشاهده والأهوال التي تصاحبه ،وذلك من خلال الأصوات التي انتقَاها بعناية ،أجبرت ذهن المتلقّي على استحضار معاني الألفاظ بالإضافة إلى إيقاع الجملة الذي زاد من جرس الألفاظ ،فتحول الجناس إلى آليّة إقناعيّة تساعد استمالة المتلقّي وتشدّ انتباهه.

3-2: السجع: هو من المحسّنات البديعيّة التي عدّت من المزخرفات اللّفظية ،ويقصد به: تواطؤ الفواصل في النّثر والشّعر على حرف واحد ،والأصل فيه الاعتدال في مقاطع الكلام[2] ،وهو يطّلع أيضا بدور حجاجي مهمّ في تشجيع النّفوس ،وتهيئتها للاقتناع ،وقد وردت معظم خطب ابن نباتة مسجوعة[3] ؛غاية في تهيئة النفوس للقبول بالفكرة اللّاحقة طرحها، ومن أسجاعه في خطبة له في وفاة الرّسول الله يقول فيها : «**أيُّهَا النَّاسُ:إنّه ليس أحد أكرم على الله من نبيّه ،ولا أشرف عنده من محمّد نجيّه وصفيّه ،وإنّه لم يؤخّر عند انقضاء مدّته ولم يعمّر عند حضور منيّته**»[4] .

فكان للقافية المشتركة وصوت اللين والهاء بخاصة وقع على أنفس المتلقين ،ولا سيما ما لسلاسة الصّوتين وجريانهما ،وهدوء وقعها مما يتلاءم مع سياق الخطبة في إقناع المتلقّي وما ذكر وفاة الرسول إلّا للتّأثير في المستمعين بحتمية الموت لمن كان غافلا عنه، كما أنّ السّجع يولد رنّة صوتيّة تحبّبها الأسماع ،وتلتقطها الأنفس ،وترد على العقول بخفّة وسهولة كما في قوله في عيد النحر:«**وهذا يوم محضره زكاة ولصالح عملكم منماة،ولسوالف ذنوبكم ممحاة ومن مؤتنف آثامكم منجاة...**»[5] .

فالاحتفاء بالجرس الصّوتي عبر المجاورة بين المقاطع يلعب دورا في خلق إيقاع يترك المخاطب متحرّكا ضمن فضاء صوتي تتعالق ملفوظاته بما يجرّ المخاطب أو السامع نحو الشّبكة الدّلاليّة للخطاب»[6] ؛لذا عدّ من بين العوامل المساعدة على لفت انتباه المستمع وبالتّالي دفعه لمتابعة الخطاب،وفهم الحقيقة التي وضع لأجلها عيد النّحر،ومن ثم الاقتناع . والسّجع لا يقف عند حدود التأنّق في العبارة بل يؤدّي وظيفة حجاجيّة إذ يضعط المعنى ويرسّخ الدّلالة في نفسيّة المخاطب ،وعقله نحو قوله:« **أيُّهَا النَّاسُ: إنَّ تَقوَى الله سَببٌ برضاه متّصل ،ورِضاهُ غَايَة يُحرِّرُهَا العَمل ،والعَملُ مُمكُن يُرجِئُه الأمَل ،والأملُ مَطيَّة مَيدَانِها المَهَل ،والمَهل لذَّة يُهدِّمُها الأجل ،والأجل بَاغت تضيق بدفعه الحِيل**»[7] . فقد حاول الخطيب من خلال هذه الجمل المسجوعة إمّا ترسيخ سلوكات (نيل رضا الله بالعمل الصالح) ،أو الابتعاد عن أخرى (طول الأمل يؤخر العمل) ،وإمّا تثبيت بعض الحقائق(التّمهّل في أداء

---

[1]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 122

[2]- ينظر: ضياء الدين بن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ص 193-196

[3] ينظر: باسم خيري خضير ،الحجاج وتوجيه الخطاب،ص

[4]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 271

[5]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 329

[6]-ينظر: محمد مشبال ،بلاغة النص التراثي،مقاربات بلاغية حجاجية ،دار العين للنشر، الإسكندرية،2013م، ص 142

[7]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 260

الواجبات يهدمه الموت ،والموت لا راد له إن أقبل) ،وعليه يتبيّن أن السّجع يمثّل حجّة بالمعنى العقلي المنطقي ،وله أثر ظاهر على المتلقّي شأنه في ذلك شأن المستوى التّوقيعي في الأقاويل الحكميّة ،فيحقّق بذلك قيمة حجاجيّة جديدة تعضُد القوّة الحجاجيّة الأصليّة الكامنة في مضامين الخطابات.

رابعا: السّلّم الحجاجي:

يلجأ المتكلّم في طريقه لإحداث الإقناع في المواقف الفكرية والعقدية في فكر المتلقّي إلى مجموعة من الحجج تتنامى في إطار فكريّ معيّن بحيث تكون كل حجّة أقوى من الحجة التي تسبقها وأضعف من الحجّة التي تليها ،فالسلّم الحجاجي يمثّل« علاقة تراتبيّة للحجج»[1] ويُرمز لهذا التّراتب بالآتي[2]:

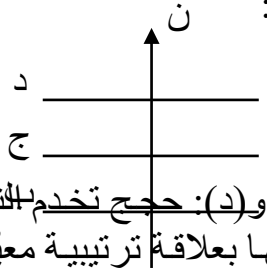

(ن) = النتيجة، (ب) و(ج) و(د): حجج تخدم النتيجة (ن).

فالحجج المترابطة فيما بينَها بعلاقة ترتيبية معيّنة تنتمي إلى السّلم الحجاجي نفسه.

ويتّصف السّلم الحجاجي بالسّمتين الآتيتينِ:[3]

* كلّ قول يرد في درجة ما من السّلم يكون القول الذي يعلوه دليلاً أقوى منه بالنسبة لـ(ن).

*إذا كان القول (ب) يؤدّي إلى النّتيجة (ن) فهذا يستلزم أن (ج) أو (د) الذي يعلوه درجة يؤدّي إليها ،والعكس غير صحيح.

ويضرب الأستاذ أبو بكر العزاوي مثالاً للتّراتب في السّلم الحجاجي، بما يأتي:[4]

1.حصل زيدٌ على الشّهادة الثّانوية. 2.حصل زيدٌ على شهادةِ الإجازة. 3.حصل زيدٌ على شهادة الدّكتوراه. فهذهِ الجمل تتضمّن حججا تنتمي إلى الفئة الحجاجيّة نفسها، وتنتمي كذلك إلى السّلم الحجاجي نفسه ،وكلّها تؤدّي إلى نتيجة مضمرة تمثل(كفاية زيد)، أو(مكانته العلميّة)، ويرمز لها بما يأتي:[5]

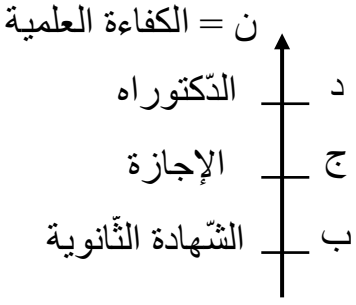

[1]- أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 20

[2]- المرجع نفسه، ص ن

[3]- حمُّو النَّقاري وآخرون،التحاجج، طبيعته ومجالاته ووظائفه،ط1، تنسيق حمُّو النَّقاري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، المملكة المغربية،2006م، ص 60

[4]- أبو بكر العزاوي ،اللغة والحجاج، ص 21

[5]- أبو بكر العزاوي ،اللغة والحجاج، ص21

والملاحظ أنَّ البحث في السّلالم الحجاجيّة اتّخذ أشكالا ثلاثة،هي:[1] ***المراتب المتضادّة:** فيها تكون الألفاظ دالّة على معانٍ يمكن ترتيبها بين طرفينِ متباينينِ مثل جملة الألفاظ المرتبة الآتية:[الرّمضاء، الحرّ، الدّفء، الفتور، البرد، القَرَس]، فهذهِ الجملة تتضمّن اللّفظينِ: الرّمضاء، والقَرَس اللذينِ هما بمنزلةِ طرفين أعلى وأسفل متباينين بينهما مراتب أربع.

***المراتب الموجَّهة توجيها كميّا:**

يوجد هذا الضّرب من المراتب في الألفاظ الدّالة على معان تقبلُ التّدرّج في اتّجاه واحد، إمّا على مقتضى التزايد أوعلى مقتضى التّناقص، مثل أسماء معايير الوزن الآتية: <درهم، مثقال، أوقية، رطل> على سبيل الزّيادة، واستقلّ بهذا النوع من اللّسانيات الأمريكي (هورن) والفرنسي(فوكويني).

***المراتب الموجَّهة توجيها قصديّا:** قد تدخل المراتب الحجاجيّة لا على الألفاظ وحدها؛ بل على الجمل كذلك، فيكونُ قصدُ المتكلّم عاملاً في تحديد اتّجاه المراتب التي تنزلها هذهِ الجمل، مثال ذلك أن يقصد المتكلّم التّوقّف عن العمل متى شعرَ بالملل، أو متى غلبَ عليهِ النوم؛ فالقولان:(شعر المتكلّم بالملل)، و(غلبَ على المتكلّم النّوم) هما بمثابة مرتبتينِ متفاوتينِ بموجب القصد الذي للمتكلّم في التّوقّف عن العمل، واختصَّ بالنّظر في هذا النّوع من المراتب اللّسانيان الفرنسيّان(ديكرو، وانسكومبر).

والقسم الأخير هو الأوسع أفقا في الاستعمال اللّغوي، والخطاب الحجاجي ،وتنطلق هذه النّظريّة من إقرار للتّلازم في عمل الحجاج بين الحجَّة، والنّتيجة، ومعنى التّلازم هو« أنَّ الحجّة لا تكون حجّة بالنّسبة إلى المتكلّم إلّا بإضافتها إلى النّتيجة مع الإشارة إلى أنَّ النّتيجة قد يُصرّح بها، وقد تبقى ضمنيّة»[2] ،وتكمن أهميّة السّلالم الحجاجيّة بحسب(ديكرو) في إخراج قيمة القول الحجاجي من حيّز المحتوى الخبري للقول، وهذا يعني أنَّ قيمة الملفوظات حجاجيا لا تخضع لشروط الصدق والكذب ؛بل تعتمد القوّة والضّعف بملاحظة التّدرّج فيها[3] وتحكم السّلالم الحجاجيّة قوانين، أهمها:[4]

***قانون الخفض:** ويقصد به أنّه إذا صدق القول في مراتب معينة من السّلّم، فإنّ نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها.

***قانون تبديل السّلم(النّفي):** ويقصد به أنّه إذا كان القول دليلاً على مدلول معين، فإنّ نفيه سيكون حجّة لصالح النّتيجة المضادّة.

***قانون القلب:**إذا كانت إحدى الحجّتين أقوى في التّدليل على النّتيجة في السلّم الحجاجي فإنّ نقيض الحجّة الثّانية أقوى من نقيض الحجّة الأولى في النّتيجة المضادّة.

لا يخلو الخطاب الحجاجي عند ابن نباتة في خطبه من المحاججة بالسّلالم الحجاجيّة المحكومة بقرائن حجاجيّة،موظّفة لخدمة غاياته الدينية من أجل إقناع المتلقي ومن ذلك قوله في خطبة يذكر فيها الموت وحقيقة البعث بعده :**«فَكيفَ بكَ أيُّهَا الإنسَان إذَا قُمتَ مِن سَكرِ المُنونِ ثَملًا ،فأَجبتُ دَاعيَ الحقّ عَجلًا ،وبَرزتَ للّذي خَلقَكَ مِن تُراب ثمَّ مِن نُطفَة ،ثمَّ من عَلقَة ثمّ سوّاك رجلا...»**[5] .

---

[1]-طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 274- 275

[2]- حمادي صمود وآخرون،أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ،ص 363

[3]- - ينظر: المرجع نفسه، ص 370

[4]- ينظر :طه عبد الرحمان اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 277-278

[5]-ديوان خطب ابن نباتة، ص 226

يتحدّث الخطيب في هذا المقطع عن قدرة الله في إعادة بعث الخلق من جديد ،بعد موتهم للحساب والمخاطَب هنا يعلم هذه الأمور؛ باعتباره مؤمنا بالغيب وذلك ؛لأنّ قضية البعث وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى﴿ ﴾-(الحج6-7)- ،والغاية من ذلك هي إبراز قدرة الله عزّ وجلّ على البعث والخلق ،ولتأكيد ذلك ذكّر الخطيب مخاطبه بحقيقة يقينيّة ،لا يمكن إنكارها تتجلّى فيها مظاهر قدرة الله عزّ وجلّ ،وهي خلق الإنسان ،والقائمة على التّدرّج بمراحل تسبق الاكتمال ،والاستواء فبدأ **(من تراب)** إشارة إلى خلق آدم ،ونحن فرع منه ،ثمّ **(من نطفة)** ،وهو المني الذي يخرج من الرجل ويصب في رحم المرأة ،ثم **(من علقة)** ،وهي الدّم المتجمّد ،ويختم هذه المراحل بقوله ، **(ثمّ سوّاك رجلا)** لتصل إلى نتيجة ،وهي**(قدرة الله على خلق الإنسان)** ،وزاد من حجاجيّة السّلم استخدام الرابط(ثم) الذي أفاد التّراخي الزمني ،والتراتبية والانتقالية الحجاجيّة ، وتمثّل بالسّلم التّالي :

(ن= قدرة الله على خلق الإنسان)

ح4 - سواك رجلا

ح3 - من علقة

ح2 - من نطفة

ح1 - من تراب

ويقول الخطيب في خطبة أخرى له في الموت والمعاد« **لَقد صَدقَكُم المَوتُ عَن الخَبرِ وَأراكُم تَصارِيفَ الغيرِ ،وآذَنكُم بالرّحِيل ،وقَدَّمكُم جِيلًا بَعدَ جِيلٍ ،فمَا للقُلوبِ لا تَتصَدَّع خُشوعًا ،ومَا للدُّموعِ لا تَجرِي بَدلَ الدُّمُوعِ نَجيعًا.**

أَ تَحسِبون أنَّ الأمرَ صَغير، أم تَتوهَّمُون أنَّ الخَطْبَ يَسير،كَلّا لتَرِدُنَّ الصِّمَّة الصَّماءَ والدَّاهيَة الدَّهيَاءَ...»[1] .

استعمل الخطيب سلّما حجاجيّا يحوي مجموعة من المقدّمات التي تتراصف في نتيجة واحدة ،ولكنّها وفق قانون الخفض بعد ذلك عندما يقول : لقد صدقكم الموت عن الخبر**(مقولة1)** ،أراكم تصاريف الغير **(مقولة 2)** ،آذنكم بالرّحيل **(مقولة3)**، قدّمكم جيلا بعد جيل**(مقولة4)** ،وهذه المقولات الأربعة التي ذكرها الخطيب قد اتّسقت ،وترابطت باتّجاه تقوية النّتيجة المطروحة ودعمها، وذلك بفعل الرّابط الحجاجي" الواو" الذي يستعمل لترتيب الحجج ووصل بعضها ببعض ؛بل وتُقوى كلّ واحدة منها الأخرى،[2] ،وقد كانت هذه المقولات متكاملة لتؤدّي إلى نتيجة مفادها تصدع القلوب خشية ،وجريان الدّم بدل الدموع خوفا ،لكن الذي حصل هو نتيجة غير التي كانت متوقعة ،وأستفيد ذلك من الرّابط(ما-لا) الذي عكس النتيجة عدم تصدع القلوب ،وعدم بكاء وانخفضت توقعاتها.

(ما-لا) **(ن= تصدع القلوب/ بكاء العيون /ترحمون)**

[1]- ديوان خطب ابن نباتة ،ص 139-140

[2] - ينظر :عبد الهادي بن ظافر الشهري، استرتيجيات الخطاب دراسة لغوية تداولية، ص472

- قدمكم جيلا بعد جيل
- آذنكم بالرحيل
- أراكم تصاريف الغير
- صدقكم الموت عن الخبر

(عدم تصدع القلوب/عدم بكاء العيون/ لا ترحمون)

ثم استعمل الخطيب رابطا حجاجيا آخر وهو **(كلّا)** إذ عمل على الفصل بين حجتين ثم تقوية حجة أخرى ، بغية الوصول إلى النّتيجة بأسرع طريقة ،وذلك في قوله:(**أَ تَحسِبون أنَّ الأمرَ صَغير، أم تَتوهَّمُون أنَّ الخَطْبَ يَسير،كَلّا لتَرِدُنَّ الصّمَّة الصَّماءَ والدَّاهيَة الدَّهيَاءَ)** فربط العامل الحجاجي بين حجة الكافرين ،والغاوين الذين يرون أن الأمر أمر الحياة وابتلاءها يسيرا ،ثمّ ذكر حجته بأنّها داهية كبيرة ،وساعة عظيمة ،وأمر جلل عظيم،ليس كما رأوه ،فقام الرّابط برفض الحجّة التي قبله ،وتقوية الحجّة التي بعده ،ومن ثم رفض نتيجة حجّتهم بأنّهم لن يعذبوا ،ولن يؤاخذوا على أفعالهم ،وتقوية نتيجة الحجّة التي بعده بأنّهم سيؤاخذون على أفعالهم ،وصولا إلى غاية إقناعية مفادها ردعهم ،وتذكيرهم بأفعالهم وبما سيؤول إليه حالهم.

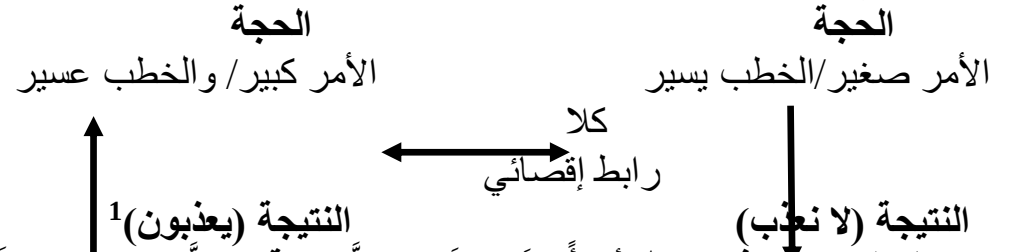

أمّا في قول الخطيب:«**فرَحِمَ الله أمرأً مَحَّضَ نَفسَه النَّصِيحَة ،وجَنَّبَها العارَ ،والفَضيحَة قَبلَ سُلوكِ سُبُلِ الأوَّلينَ ،والحُصولِ فِي جَرائِد الرَّاحِلين ،الذين عَمَّرُوا الدُّنيَا زَمانًا ،واتَّخذُوها أوطانًا ،واعتقدُوا منهَا أَموَالًا وأَعوَانًا ،فَأخرجُوا منهَا وُحدَانًا ،وزَوَّدُوا مِن مَتاعِها أَكفَانًا وبَدَّلُوا بعِزِّهَا هَوانًا،ولَم يَجدُوا مِن خَوفِها أَمانًا، أُسكِنُوا بُطونَ الأَرضِ بَعدَ ظُهُورِها ،وعُوّضُوا قُبورَها مِن قُصورِها ،فَهم فِي مَواضِع الهَلكَات رَاقدُون ،وفِي بَلاقِع الفَلوَات خَامدُونَ**»[2] فنجد فيه قد قدّم حججا تسير في البداية باتجاه واحد ،وتخدم نتيجة ظاهرة ،وهي رحمة الله لعبده الذي يراجع نفسه ،والتي تقوم على سلسلة من الأفعال ،وتكون التزام النّفس النّصح**(ح1)** ،وتجنّبها العار والفضيحة**(ح2)** ،قبل**(ح3)**، الرحيل عن الدنيا**(ح4)** ، وبعد فراغه ينتقل إلى رصف مجموعة من الحجج ؛تؤدّي إلى نتيجة مناقضة للنّتيجة الأولى في: أولئك الذين عمّروا الدنيا**(ح1)**،اتخذوها أوطانا **(ح2)** ،واعتقدوا منها أموالا**(ح3)** ،وأخرجوا منها وحدانا **(ح4)** ،لم يجدوا من خوفها أمانا **(ح5)** ،وهي عدم رحمة الله لعباده للإنسان الذي يهمل مراجعة نفسه، ويمكن تمثيل تلك السّلالم الحجاجية بالمخطط التالي :

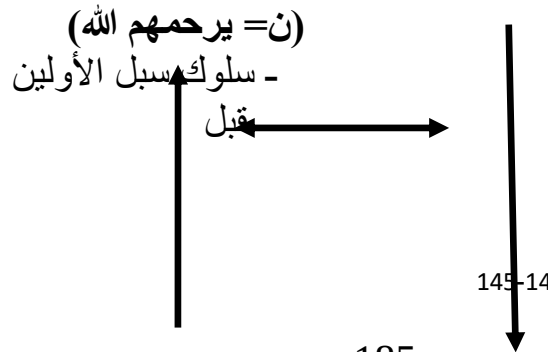

[1] باسم خيري خضير ،الحجاج وتوجيه الخطاب،ص144-145
[2] - ديوان خطب ابن نباتة ، ص 156

أخرجوا منها وحدانا - ـ جنبها العار و الفضيحة لم يجدوا من خوفها أمانا - ـ محض نفسه النصيحة

(ن= لم يرحمهم الله)

نلحظ من خلال المخطّط السّابق اشتغال قوانين السّلم الحجاجي ،وخصوصا قانون الخفض في هذه السّلالم ،فقد صدقت الحجج بالسلّم الأيسر ،وأدّت إلى نتيجة معيّنة (رحمة الله للعباد) ،بينما نقيض تلك الحجج في السّلم الأيمن أدّت إلى نتيجة مناقضة للنّتيجة الأولى(عدم رحمة الله للعباد) ،وكذلك قانون القلب فالحجج في السّلم الأيسر أقوى من الحجج في السّلم الأيمن؛ لذلك كانت نتيجتها موجبة ،بينما نتيجة الأخرى سالبة[1].

4-1: أدوات السّلم الحجاجي: يقتضي

الحجاج تسلسلات خطابيّة معيّنة ،وأشكالا من التّتابع، تقود إلى استنتاجات ومفهوم التّوجيه الحجاجي إسناد اتّجاه معيّن لقول ما؛ لغاية بلوغ نتائج محدّدة ، وهذا التّوجيه يوسّع الاحتمالات تارة ،وأخرى يضيقها؛ ليقودها في اتّجاه معيّن ،تحدّده البنية اللغوية للخطاب التي تضمن قرائن حجاجيّة ،يوظّفها المتكلّم لتوجيه خطابه، ومن أهمّ تلك القرائن العوامل ،والرّوابط الحجاجيّة هذه الأخيرة هي ألفاظ:« تربط بين قولين، أو بين حجّتينِ على الأصحّ أو أكثر، وتسند لكلّ قول دورا محدّدا داخل الاستراتيجيّة الحجاجيّة العامة»[2] .

ومن أمثلة الرّوابط الحجاجية: بل، لكن، حتى، لاسيما، لأن وغيرها[3] ،وهي تشكّل موضوعا أساسيّا في تحديد بنية الخطاب باعتبارها «مكوّنات لغويّة تداولية تربط بين قولين (أو أكثر) داخلين في استراتيجية حجاجيّة واحدة ، بحيث تسمح بالرّبط بين المتغيّرات الحجاجيّة ، بين حجّة ونتيجة أو بين مجموعة من الحجج»[4] ،وتؤسّس تلك الرّوابط جملة من العلاقات الحجاجيّة كالتّتابع، والسّببيّة، والاستنتاج، والاقتضاء[5] .

ولهذه الروابط الحجاجية وظيفتان رئيسيتان أولهما أنها «تربط بين وحدتين دلاليتين أو أكثر –وثانيهما- تخدم دورا حجاجيا للوحدات الدلالية التي تربط بينها»[6] ،وتتفرّع عن «وظيفة الرّبط التي تؤدّيها الرّوابط وظائف أخرى مثل توجيه التّعليمات المتعلّقة بطريقة التّأليف بين الوحدات ،وكذا إتاحة الفرصة لاستخلاص بعض النتائج»[7]، ومن ذلك نستخلص أنّ الرّوابط الحجاجيّة التّداوليّة آليّة مهمّة في عمليّة الرّبط داخل النّسق المقول ،وتشارك في إنجاز الأغراض اللّغويّة المباشرة ،وغير المباشرة؛ ذلك لكونها إطارا شاملا لمواصفات الرّبط الاستدلالي التّداولي ؛ بوصفها قرائن تعين على فهم المعنى الظاهر والخفيّ ،كما أنّها تعين على فهم المعاني التي تنجزها ملفوظاتها. وقد

وظّف ابن نباتة في ديوانه جملة من الرّوابط الحجاجية إذ يقول في خطبة له يصف فيها يوم القيامة:« **واعلَمُوا أنَّ وَراءكُم طَالبًا لا يَغفَلُ ،وسَالِبًا لا يُمهِلُ ،ونَارًا تَلفَح ،ومَقَامًا يَفضَح**

---

[1]ينظر: باسم خيري خضير ،الحجاج وتوجيه الخطاب،ص149

[2]-حافظ إسماعيل عليوي، الحجاج، مفهومه ومجالاته، ص63.

[3]- ينظر: أبو بكر العزاوي ،اللغة والحجاج، ص 27.

[4]-عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ط1،دار الأمان،الرباط، منشورات ضفضاف، بيروت،2013م،ص 100

[5]- ينظر: عمران قدور ،البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني الموجه إلى بني إسرائيل،ط1،عالم الكتب الحديث ، إربد، الأردن،2012م، ص43-44.

[6]- المرجع نفسه ، ص 37

[7]- جواد ختام ، التداولية أصولها واتجاهاتها،ط1، دار كنوز المعرفة،عمان، 2016م، ص 151

،وقَضاءً فَصلًا ،وحُكمًا عَدلاً، وكِتَابًا لا يُغادِرُ صَغيرَةً ،ولا كَبيرَةً إلَّا أَحصَاهَا ودَيَّانًا لا يَدعُ ظُلامَـةً إلّا رَدّهَـا واسْتَقْصَـاهَا»[1] .

قدّم الخطيب من خلال هذا المقطع تذكرة تنبيهيّة لمتلقيّه ،وقد صاغها بمجموعة من الحجج تتضافر فيما بينها ،لتؤدّي إلى نتيجة ألا وهي الإقلاع عن الذّنوب ،والإسراع في التّوبة ،وقد عمل الرّابط الحجاجي "الواو" على الوصل بين الحجّة والحجّة،وهولا يقتصر على ترتيب الحجج والرّبط بينها؛بل عمل على جعل كلّ حجّة تقوّي الحجّة الأخرى.وفق ربط نسقي عكس السّلم الحجاجي[2] لتقوية النتيجة المطروحة،وقد رتّب حججها ترتيبا أفقيا كالآتي

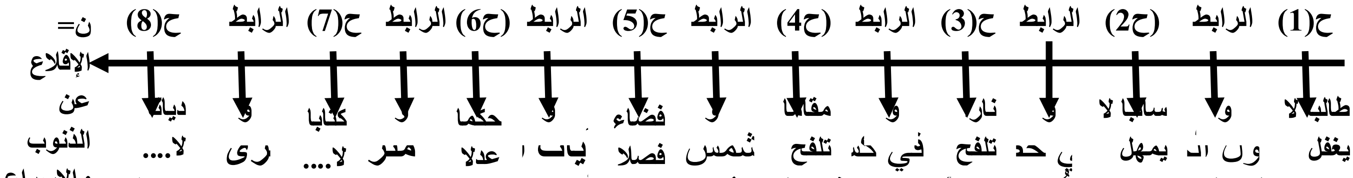

الجَوهَر،تَتَبَع وَاحدةٌ مِنهَا الأخرَى، فَلا تَزالُ عِظامَهَا تَنسِيكم الصغرَى ،حتى يَختِمهَا اللهُ بالطَّامَةِ الكُبرَى،فَمَا فَعلَت العِبرَة التي رَأيتُموهَا بالأمسِ مِن ظُهورِ الكَواكِب نَهارًا واسْودَادِ الشَّمسِ (...)، فَلا تَحسِبوا-عبادَ الله- إظهَارَه لكُم الآياتِ لَعبًا، لَكن لِتجرأُوا إليه رَغبًا ورَهبًا، وتَجعلُوا التَّوبَة إلى رِضاهِ سَببًا»[3].

يتحدّث الخطيب في هذه الخطبة عن ظاهرة طبيعيّة هي كسوف الشّمس ،ويدعو من خلالها إلى الاعتبار ،والتَّدبّر ،وفي خضمّ هذه الخطبة يتحدّث ابن نباتة عن علامات قيام السّاعة التي تسبق يوم القيامة، وهي ما استأثر الله -عزّ وجلّ- به في علم الغيب ،ولكن من رحمة الله -تعالى- وفضله على عباده أن جعل ليوم القيامة علامات تدلّ على قربه والمخاطب على علم بذلك ؛لأنّه مؤمن بما ذكر في القرآن الكريم: ﴿ [illegible] ﴾ -(محمد:18)- وصاغ الخطيب ذلك في قول تضمّن مجموعة من الحجج التي تنتمي إلى باب حجاجي واحد ،ولفائدة نتيجة ضمنيّة (قيام الساعة للحساب) ،وهذه الحجج هي: آيات السّاعة مترادفة تترى (ح1)، تتبع واحدة منها الأخرى(ح2)، لا تزال عظامها تنسيكم الصغرى(ح3)، يختمها الله بالطّامة الكبرى (ح4)، وقد جاء الرّابط "حتى "ليزيد في قوة الحجّة الأخيرة التي أتت بعده (الطّامة الكبرى) على اعتبارها النفخة الثانية ، التي يكون معها البعث ،وهي التي تطمّ على كلّ هائلة من الأمور، فتغمر ما سواها بعظيم هولها ،وهي الحجة الأقوى في هذه المجموعة وقد كانت آخر حجّة يمكن تقديمها لصالح النّتيجة المقصودة ، ويمكن تمثيلها في السّلم الحجاجي التّالي:

(ن= قيام الساعة للحساب)

ح4 - يختمها الله بالطامة الكبرى

- **(حتى) رابط حجاجي**

ح3 - لاتزال عظامها تنسيكم الصغرى

---

[1]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 80

[2]- ينظر : عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب دراسة لغوية تداولية ، ص 472

[3]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 344-345

ح2 - تتبع واحدة منها الأخرى
ح1 - آيات الساعة مترادفة تترى

وعليه يتبيّن أن الرّابط" حتى" من الرّوابط المتساوقة حجاجيا ،المدرجة للحجج القوية والحجة التي ترد بعد هذا الرابط تكون هي الأقوى ،كما أن القول المشتمل على الأداة "حتى" لا يقبل الإبطال والتّعارض الحجاجي[1] ،ومقصد الخطيب من وصف هذه الظاهرة الطبيعية - التي تراءت آياتها للمتلقّي من ظهور الكواكب نهارا واسوداد الشّمس- هوعظة وخوف من قيام السّاعة قبل التوبة ،لذا فالخطيب ذكر ذلك حينما اعتبر هذه الآيات الكونية ليست لعبا بل سببا في الخوف من الحساب ،والإسراع في التّوبة وذلك في قوله: **(فلا تحسبوا-عباد الله- إظهاره لكم الآيات لعبا لكن لتجرأوا إليه رغبا ورهبا، وتجعلوا التوبة إلى رضاه سببا)**

وقد أفاد الرّابط الحجاجي"لكن" تعارضا حجاجيّا في هذا القول بين حجّتين فالأولى هي اعتقاد المؤمن بأنّ الله عزوجل جعل هذه الآيات الكونية لهوا ولعبا ،وهذه الحجّة تخدم نتيجة (ن) ،وهي عدم اكتراث المؤمن بيوم الحساب والبقاء في غفلة ،أمّا الحجّة الثّانية فهي الواردة بعد الرّابط "لكن" ،وهي التّدبر في هذه الآيات الكونية ،والخوف والإسراع في التّوبة ،وهذه الحجّة تخدم نتيجة مضادة (لا-ن) ،وهي تنبه المؤمن من غفلته ،والإيمان بيوم الحساب ويمكن توضيح هذا التّعارض الحجاجي في المخطّط التّالي:

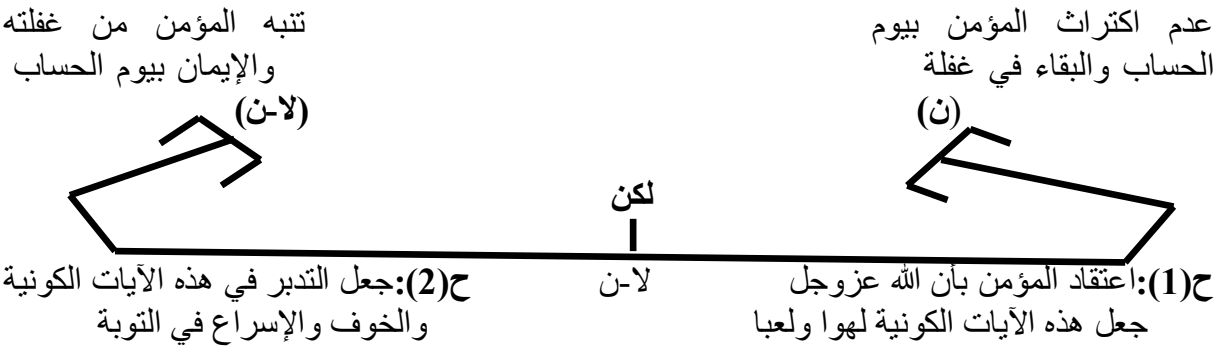

فنلاحظ من خلال ما تقدّم أنّ الرّابط الحجاجي "لكن" يمكن المحاجج من« استدراك الكلام الذي سبق لإثبات خلافه ،وهذا إضراب عن الحكم الأول، ليؤدّي إلى نتيجة مناقضة للنّتيجة الأولى»[2] ؛حيث تقوم "لكن " بإحداث تعارض حجاجي بين ما يتقدّم الرّابط وما يتلوه ، حيث ح1 وح2 حجتان، و(ن) النتيجة و(لا-ن) النتيجة المضادة التي تتوجه إليها الحجة الأقوى وهي (ح2) الواردة بعد الرابط الحجاجي (لكن) ،إذ هي الحجّة التي توجّه الخطاب برمّته[3].

أما العوامل الحجاجية فقد وصفت بأنها« العماد في عملية التّواصل ؛لأنّها محرّك رئيسيّ من ضمن المحرّكات التي تقوم عليها عملية التخاطب »[4] ،وتختلف عن الرّوابط الحجاجيّة في أنّها «لا تربط بين متغيّرات حجاجيّة، أي بين حجّة ،ونتيجة أو بين مجموعة حجج ولكنها تقوم بحصر ،وتقييد الإمكانات الحجاجيّة التي تكوّن لقول ما»[1] ،و«تضمّ مقولات العوامل

[1] - ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 73
[2]- عباس حشاني، خطاب الحجاج والتداولية دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي،ط1،عالم الكتب الحديث، الأردن،2014م ص 198
[3]- ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 58
[4]- عز الدين الناجح ، العوامل الحجاجية في اللغة العربية،ط1،مكتبة علاء الدين،صفاقس، تونس،2011م، ص 17

أدوات من قبيل: ربّما تقريبا،كاد، قليلا، كثيرا، ما...إلا،وجلّ أدوات القصر»[2] . فالعامل الحجاجي يزيد من القوّة الحجاجيّة للخطاب ؛لأنّها « مورفيمات إذا وجدت في ملفوظ تحوّل ،وتوجّه الإمكانات الحجاجيّة لهذا الملفوظ»[3] ،فهي تتعالق مع مكوّنات النّص لتوجيه الخطاب نحو التّأثير في المتلقّي للوصول إلى الإقناع ؛لأنّ هذه العوامل تدعّم قضيّة مطروحة، وهذه القضيّة تتمتّع عند المتلقّي بكونها حدثا ، ويسمح هذا الحدث للمرسل باستعمال العامل الحجاجي ، ببناء حجّة تسند إلى علاقة ترتكز إلى مشتركات بين المرسل والمتلقّي ، ممّا يعطي للقول قيمة حجاجيّة بسبب دعم العامل له، فيكون منشّطا للقضيّة المراد الاحتجاج بها [4]

.

ومن أمثلة العوامل الحجاجيّة في خطب ابن نباتة قوله:«**أيُّهَا النَّاسُ: إنَّ الدَّهرَ ذُو عَجبٍ يَتقلَّبُ بأهلِه كلَّ مُنقلَب،عِداتُه خدَع ،وهباتُه لُمعٌ منه ،وآفَاتُه دفعٌ ،وكَرَّاته قُرعٌ ،لا يَدع جَديدًا إلّا أَخلقَه، ولَا عَتيدًا إلّا أنفَقَهُ، ولا مَريدًا إلّا وهقه ،ولا عَديدًا إلّا فرَّقَه**»[5].

يتعجّب الخطيب من الدّهر ،وكيف ينقل النّاس من حال إلى حال ،وقد قدّم الخطيب في ذلك مجموعة من الحجج ؛ليؤكّد كلامه ،وقد وردت البِنية الحجاجيّة القائمة على الحصر **(لا...إلّا)** لتؤكّد القضية الجوهريّة التي وضع لأجلها الخطاب –تقلب الدّهر مع العباد- وهذا الحصر هو من العوامل الحجاجي ؛لأنّه يجعل المتقبّل مباشرة في مواجهة حجاجيّة ،وأمام نتيجة واحدة ،وهي أن هذا المتحدّث يروم بالحصر إقناع المخاطب بما يريده[6]،لذا فقد قام هذا العامل في النّص بحصر الإمكانات الحجاجيّة للملفوظات ،وقد تضمّن مجموعة من الحجج وكلّ حجّة تخدم نتيجة خاصّة بها ويمكن تمثيلها كالآتي :

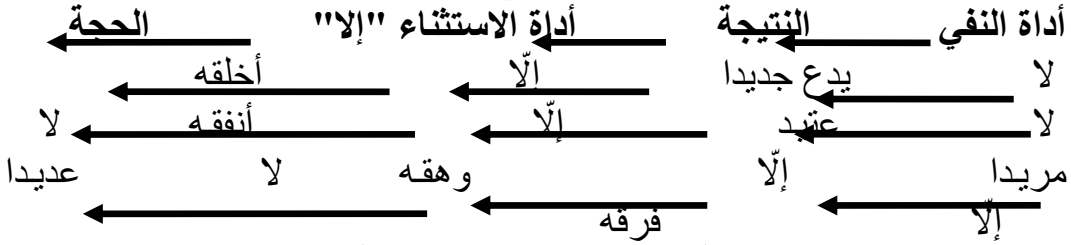

فما نلاحظه في هذا المخطّط أن الحملة الحصريّة ،ولّدت دعامة يستند إليها المخاطب في بناء خطابه الإقناعي ،وهذا من شأنه أن يوجد التّفاعل، ويشدّ انتباه المخَاطب وحصره في مقاصد الخطاب ومراميه ،إذ جاءت دعوته تّأكيدا وإقرارا بهذه الحقيقة- تقلّب الدّهر مع العباد- التي جاءت في بنية قصديّة حتى تكون موغلة في الحجاج ،وهذا القصر له وقع حجاجي على نفسيّة المتلقّي ،ومحفّزًا له على الاقتناع بقصد المتكلّم المصرّح به ؛لأنّه يعمل على حصر اعتقاد المتلقي بفعل الدّهر ،وتقلّباته مع العباد، وبهذا يوظّف الإقناع عند المخاطَب في توجيه سلوكه الإنساني المتمثّل في عدم جعل الدنيا كل همّه وأن لا يَأمَن لها.

أمّا في قوله :« **أيُّهَا النَّاسُ: مَن نَظر إلى الدّنيا بِحقيقَة عَينهَا أومَض له صِدق عَواقبِها**

---

[1]- عمران قدور ،البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني الموجه إلى بني إسرائيل ، ص 36

[2]- أبو بكر العزاوي ،اللغة والحجاج، ص27

[3]- عمران قدور ،البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني الموجه إلى بني إسرائيل ، ص 36

[4]- مثنى كاظم صادق ، أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي.(تنظير وتطبيق على السور المكية) ،ط1،منشورات ضفاف تونس،2015م، ص 103

[5]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 112

[6]- ينظر: عز الدين الناجح ، العوامل الحجاجية في اللغة العربية ، ص 64

من غمام مينها...وإنَّما زهَد في دُنياكُم الزَّاهدُون، لرَغبتِهم فيمَا هُم فِيه غَدًا خالدون اختبرُوهـا ؛فكـانُوا علـى حَـذرٍ مِنهَـا ،واستَصـغَروهَا؛ فَـأكبُروا نُفوسَـهم عَنهَـا ... »[1] .

بيّن الخطيب نعيم الدّنيا الزّائف ،فالمتأمّل في حوادثها يدرك تمام الإدراك كذبها ،وذلك ليدعو متلقّيه لترك ملذّاتها ،وقد لعب العامل الحجاجي **"إنّما"** دورا مؤثّرا في إثبات وجهة الخطاب وحقّق غاية حجاجيّة من خلال تقيّد النّص ،واهتمامه بمعنى واحد فيه ،وجعله محور النّص ؛لأنّه يقوم بحصر ،وتقييد النّتيجة التي يريد المخاطب إقناع المخاطَب بها ليس لأنّه منكر لها ،وإنّما تنبيهه على هذا الأمر ،وتأكيده في نفسه أثناء الحوار ممّا يندرج ضمن مبدأ الإقناع عموما ،وعلى هذا تظهر النّتيجة الحجاجية[2] ،حين حصر فعل ترك ملذّات الدّنيا على فئة معينة ،وهم الزّاهدون دون غيرهم أولئك الذين بعزّة نفسهم تركوا ملذّات الدنيا وكبحوا أنفسهم عن شهواتها ؛لأجل نعيم دائم ،وهو نعيم الجنّة ،وبذلك يكون هذا العامل الحجاجي قد ولّد دعوى موجّهة تهدف إلى إحداث تغيير في سلوك المخَاطب بتباعه سبل الزاهدين ،ومحاكاة أفعالهم وأخلاقهم.

تعدّدت الرّوابط والعوامل الحجاجيّة في خطب ابن نباتة ،وكذا السّلالم الحجاجيّة واختلفت نظرا لما تطلّع به من أدوار فعّالة في انسجام الخطاب من ناحية ،وفي توجيه الخطاب من ناحية أخرى وجهة قويّة ،ومؤثّرة بحيث تلغي تعدّد الاحتمالات ،وتسوق الخطاب ،وتوجّهه نحو وجهة منفردة وواضحة ذات بعد ديني.

---

[1]- ديوان خطب ابن نباتة ، ص 42-43

[2]- ينظر: محمود طلحة ،القيمة الحجاجية لأسلوب القصر في اللغة العربية،مجلة الخطاب،جامعة ملود معمري ، تيزي وزو ، الجزائر، العدد10،2008/05/03م، ص 115-116

خاتمة

سعينا من خلال هذا البحث إلى مقاربة تداوليّة في الخطاب الديني من خلال دراسة لخطيب ،يعدّ واحدا من خطباء القرن الرّابع هجري ،وهو خطيب الخطباء أبو يحيى عبد الرّحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباته الحذاقي الفارقي ،الذي لم يحظ من اهتمام الكتّاب والباحثين بدراسة منفردة تفيه قدره،ولقد كشفت لنا هذه المقاربة التّداولية بعض الملامح العامّة التي وُسم بها الخطاب الديني عند ابن نباتة من خلال خطبه ،ويمكن أن نحدّدها فيما يلي:

– جاءت خطب الدّيوان قصيرة وقد حفلت بموضوعات متعددة تهدف إلى وعظ النّاس وإرشادهم ،ودعوتهم إلى التّمسك بطاعة الله ،وحثّهم على العمل للآخرة ،والتزام آداب الإسلام وأخلاقه ،وتحذيرهم من الغفلة والمعاصي ،ودعوتهم إلى الجهاد في سبيل الله ، وقد عمد الخطيب إلى تنظيم موضوعات خطبهفي ثلاثة اتجاهات:الاتّجاه السّياسي ،والاتّجاه الدّيني والاتّجاه الاجتماعي ،وتبين أن الخطيب كان مراعيا لواقع الأمة وحالها آنذاك.

– يعدّ الاتجاه الدّيني هو الاتّجاه العام السّائد في خطب الدّيوان ،وقد شغلت موضوعاته الحيز الأكبر ،وتشابكت معه في سلسلة متصلة يؤدي بعضها إلى الآخر،كما ارتبطت بموضوعات الدّيوان في الاتّجاهات الأخرى السّياسية والاجتماعيّة ،ولم يعدم الخطيب وسيلة أو فرصة إلا وأشار إليها في سياق كلامه .

– كانت خطب ابن نباتة الفارقي مسجديّة المكان ،يلقى غالبها في يوم الجمعة ،وهذا ما جعل الخطيب يلتزم فنيّا بخصائص الخُطبة الدّينية إذا كانت المقدّمة تتضمّن الحمد والثناء على الله تعالى بما هو أهل له ،ثمّ الشّهادتان والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه ثم يأتي العرض الذي يتضمّن الموضوع ،والغرض الذي تتحدّث عنه الخطبة ،وأخيرا الخاتمة التي تتكوّن من الدعاء والاستغفار ،وبذلك يكون الخطيب قد التزم بسنّة الخطباء السّابقين الذين تعلموا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

– يتحسس قاريء الخطاب الصدق في كلام الخطيب من خلال خطب الدّيوان وكان صدقا فنّيا وواقعيّا في الأساليب ،والألفاظ التي استعملها في التّعريض بالمتخاذلين ،والتنبيه إلى أمراض الأمّة ،وحالها المتردّي،والدّعوة إلى الجهاد،وتسجيل الهزائم ،وبيان أسبابها وغير ذلك وألفاظه بجزالتها وفخامتها جاءت متناسبة مع الموضوعات التي طرحها وطبيعة ما اتّسم به الأدب والثّقافة في عصره .

– برزت في خطب الديّوان سمة التّكرار في المعاني والألفاظ والتراكيب ،ممّا قلّل الابتكار ولم يجعل له حظّا من الإبداع ؛لأنّ ما جاء فيها كان مستلهما من كتاب الله تعالى ،وحديث نبيّه الكريم ،إضافة إلى أنّ موضوعاته ليست جديدة فقد عرض لها الأدباء من قبل في نتاجهم الذي تركوه لنا،فلا نجد له إضافة إلّا في تخصيص فصول محدّدة للصّلاة على رسول الله في الخطب الثواني ،أو تخصيص خطب صالحة لأيّام الجمع طوال شهور السنة وهي إضافات في مجملها شكليّة لا جوهريّة .

أمّا النتائج المتوصّل إليها في فصول البحث فهي كالآتي:

– تميّز الخطاب الدّيني عند ابن نباتة ببعده عن التكلف وأساليب الصنعة ،فهو خطاب عفوي بلغة الحياة اليوميّة اللّغة الفصيحة البسيطة ،وهذا ما جعله يأخذ بعدا تداوليّا ؛لأنه راعى فيه قدرات مخاطبيه اللغوية والعقلية ،والاستدلالية ،و ظروف الخطاب وسياقه المقامي.

– عبّرت الإشاريات عن مقاصد الخطيب المختلفة ،وتبيّن من خلال استقرائها لاستعمالاتها في خطب الدّيوان ، أبعاد العلاقة التّخاطبيّة بينه ،وبين متلقّيه ، وتطوّر تلك العلاقة والضّمائر باعتبارها أحد العناصر الإشاريّة بالرّغم من أنّها مبهمة ،لكن باستعمالها داخل السّياق أصبحت لكلّ واحدة منها قيمة تداوليّة تختلف عن الأخرى باختلاف المقام والحال التي يكون عليها المتلقّي،إذ كشف ضمير المتكلّم المفرد عن المذهب العقائدي الإسلامي للخطيب ،ومارس الخطيب من خلال الضّمائر الأخرى نقدا اجتماعيا وأخلاقيا ودينيا لأفراد مجتمعه ؛لتحقيق هدفه السّامي المتمثّل في الإصلاح الاجتماعي لأمته بغية النّهوض بها حتى تتبوّأ المكانة التي تستحقّها ،باعتبارها خير أمّة أخرجت للنّاس ،أمّا الإشاريّات الزمانيّة فقد اقتصرت في الدّيوان على ما يسمّى بالزّمان الكوني ،وكان لها دور فعّال في عمليّة التّخاطب ،حين اعتبرها الخطيب مقادير للعباد وجب تعميرها بالطّاعة ،والعمل الصّالح ،في حين لعبت الإشاريّات المكانيّة دورا مهمّا في تجلية قصد الخطيب ابن نباتة ،وفي تأثير الخطاب على المتلقّي من جهة أخرى ،وقد ارتبطت هي الأخرى بمقاصد دينيّة .

– تعبّر الافتراضات المسبقة عن قصديّة إنسانيّة أنتج لأجلها الملفوظ ،وهذه القصديّة لا تستغني عن السّياق في فهمها، والافتراضات المسبقة في خطب الديوان بُنيت على الواقع الذي عاشه ابن نباتة مع أبناء مجتمعه في تلك الفترة الزمنية والبقعة المكانية التي أمضى

حياته فيها ،وتجلّى من خلالها خطاب ابن نباتة الدّيني الذي أنتجه إنتاجاً تداولياً ، وفي سياقات مختلفة أخذت بعدا سياسيّا ،وآخرا دينيّا ،وهذا إن دلّ على شيء ،فإنّما يدلّ على أنّ خطاب ابن نباتة الدّيني قائم على القصديّة ،فهو خطاب مخطّط له ،وهو مؤشّر على كفايته التّداولية.

– كلّ حوار يقوم على مبدأ عامّ يخضع له كلّ المتحاورون، وي وصف ظاهرة الاستلزام الحواري، يسمّى بمبدأ التّعاون له قواعد أربع ، يرتكز عليها المرسل للتّعبير عن قصده مع ضمانه قدرة المرسل إليه على فهمه ،وتأويله، ،وبخرق هذه القواعد يتولّد الاستلزام الذي لجأ إليه الخطيب في مواضع متعدّدة من خطبه ،وتبيّن أنّ خرق ابن نباتة لأيّ من مبادئ التّعاون،ما هو إلّا محطّة ترميزيّة تقع على عاتق المتلقّي تفكيكها ،وهذا ما ينم عن درايته بقدرة مخاطبيه الاستدلالية ،وإمكانيتهم على فكّ التّرميز ؛على اعتبار أنّ خطابه يحمل معان متعدّدة ،غير التي تقولها ظاهر الكلمات ،وربّما تكون ذات صدى أبعد من متلقّيه المباشر.

– برز في خطب ابن نباتة تمظهر الأفعال الكلاميّة بمختلف أنواعها ،وبدرجات متفاوتة (إخباريّة، توجيهيّة،وعديّة، تعبيريّة،إيقاعية)، إذ غلبت الإخباريّات والتّوجيهيات على بقية أصناف الأفعال الكلاميّة ،وقد وظفت الأفعال الكلامية بمختلف أنواعها كإستراتيجية أسلوبيّة في الخطاب الديني عند الخطيب لتأدية مجموعة من الوظائف ،غايتها التّأثير في المخاطب، وتغيير واقعه الإنساني ،فلا يخلو خطاب الإمام من الفعل التّأثيري ،الذي يهدف من ورائه إلى الإصلاح ،وعلى جميع الأصعدة ،الدّينيّة ،والاجتماعيّة، والسّياسيّة بالإضافة إلى بناء الإنسان عقليّاً وروحيّاً على وفق الثّقافة الإسلاميّة الصّحيحة.

– اتكأ الخطيب على مجموعة من التّقنيات الحجاجيّة ؛ليدعم بها خطابه ،ويدفع المتلقي إلى الاقتناع ،وذلك من خلال الوقوف أوّلا على مقدّمات حجاجية تشكّل نقطة انطلاق الاستدلال وابن نباتة الفارقي عكف على اختيار ما يجعل خطبه ذات فاعلية حجاجية ،بانتقاء طريقة العرض لكل محاججة بهدف التّأثير في جمهور المتلقّين، بتهيئتهم للقيام بسلوك معيّن وتوجيه أذهانهم نحو وجهة معيّنة من النّاحية الفكريّة،مع الاستناد إلى مجموعة من الطّرائق الاتّصالية والانفصاليّة استخدمها ابن نباتة لتعزيز حجاجيّة خطابه الدّيني،وكان لها دور

فعّال في جعل الحجج مقبولة من طرف المتلقّي .

– وظّف ابن نباتة مجموعة من الآليات البلاغيّة من أجل توجيه خطابه ،والتّأثير في المتلقّي وتتمثّل في الصّور البيانيّة ،وفنون البديع ،فقد عملت مجتمعة على تحريك وجدان المتلقّي واستمالته للسّير في المسار المُخطّط له من قبل الخطيب فساعدت الصّور البيانيّة (التشبيه، الاستعارة،الكناية) من خلال تتبّعنا للطّاقة الحجاجيّة التي حملتها في إثبات دعاوى قال بها الخطيب ؛إذ قام باستحضار مشاهدها المعنويّة بأخرى حسيّة لزيادة درجة الإقناع والإذعان وكان للثانية (طباق ،جناس، سجع) دور في إحداث تغيير في وجهة نظر المخاطَب وإحداث الإفهام المطلوب ،وذلك عن طريق تلاحق ألفاظها وتتابعها ،والتي أعطت حافزا للمخاطَب ودافعا تأثيريّا في محاولته توليد معانيها وتأويلها ومن ثَمّ التسليم بها.

– تعدّدت الرّوابط والعوامل الحجاجيّة في خطب ابن نباتة ،وكان لها دور فعّال في انسجام الخطاب من ناحية ،وفي توجيه الخطاب من ناحية أخرى وجهة قويّة ومؤثّرة ؛بحيث تلغي تعدّد الاحتمالات ،وتسوق الخطاب وتوجّهه نحو وجهة منفردة وواضحة ،وقد كانت ذات بعد ديني ،كما تدرّجت الحجج في خطب الدّيوان وفق سلّم حجاجي ،فقد كانت الأفكار فيها تسير باتّجاه أفقي حتّى تصل إلى أقوى حجّة في أعلى السّلم ، وكانت محكومة بقرائن حجاجيّة موظّفة لخدمة غايات دينيّة من جهة ،ومن أخرى إقناع المتلقّي بها ،وقد أُشتغل فيها على بعض قوانين السّلم الحجاجي ،وخصوصا قانون الخفض.

وفي الأخير نرجو أن يكون بحثنا لبنة طيّبة ،وإضافة مفيدة في ميدان البحث العلمي نبغي من وراءه المنفعة العلميّة ،والأجر والثواب ،ونحن لا ندّعي الكمال والتّميز فيه، وإنّما يكفينا شرف القصد وإخلاص النيّة في تقديم الفائدة بما تسنّى لنا من المعرفة والجهد ،والله أعلم بهذا القصد ،وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

قائمة المصادر و المراجع

القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع

أوّلا: الكتب العربية :

1- أحمد حسن كنون، التداولية بين النظرية والتطبيق ، ط1،دار النابغة للنشر والتوزيع القاهرة ،2015م

2- أحمد المتوكل :

- دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي،دار الثقافة للنشر والتوزيع،الدار البيضاء المغرب 1986 م .

- قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية.بنية الخطاب من الجملة إلى النص، دار الأمانات للنشر والتوزيع ، الرباط.

- المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي الأصول والامتداد،ط1 ، دار الأمانات ،الرباط 2008م .

3- أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين (ت360هـ) ،معجم مقاييس اللغة ، ط2 ،تحقيق: عبد السلام محمد هارون،دار الجيل، 1991م، ج 2.

4- أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (ت681هـ)،وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس دار صادر بيروت،1397هـ،ج3 .

5- أحمد عبد الرحمن حماد، العلاقة بين الفكر واللغة ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية 1985م .

6- أحمد عدوان ، الدولة الحمدانية، ط1، منشورات المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان والمطابع،الجماهرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية ، 1982م.

7- أحمد كشك،اللغة و الكلام، أبحاث في التداخل و التعريب ،دار غريب، القاهرة ،مصر 2004م .

8- أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة،ط3، دار نهضة، مصر،القاهرة.

9- إلهام المتمسك،الخطاب الديني عند الدكتور عباس الجراري المرجع و البنية، ط1 منشورات النادي الجراري، الرباط 2008م.

10- إلياس أنطون إلياس، قاموس إلياس العصري، دار الجليل، بيروت،1972م .

11- أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي،أبو البقاء الحنفي (ت1094هـ)، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية،،ط2،تحقيق،عدنان درويش،محمد المصري مؤسسة الرسالة ، بيروت،1998م .
12- بسام علي سلامة العموش،الإيمان بالغيب،ط1،دار المأمون ، عمّان،2010م .
13- أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر(ت 180هـ)، الكتاب كتاب سبويه،ط3، تحقيق :عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي ، القاهرة ،1988م، ج1 .
14- أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش موفق الدين (ت643هـ) ،شرح المفصل،عالم الكتب ، بيروت، مكتبة المتبني – القاهرة، المجلد الأول،ج 2.
15- أبو بكر العزاوي ،اللغة و الحجاج ،ط1، العمدة في الطبع ،الدار البيضاء، المغرب ،2006م .
16- أبو بكر بن دريد (ت231هـ)،جمهرة اللغة،ط 1 ،تحقيق:مزي منير بعلبكي،دار الملايين،بيروت،لبنان،1987م .
17- بهاء الدين محمد مزيد ،تبسيط التداولية (من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي) ط1، دار شمش للنشر و التوزيع، القاهرة ، 2010م .
18- تمام حسان ، اللغة العربية معناها و مبناها ، ط1،دار الثقافة ،الدار البيضاء المغرب 1994 م.
19- الجليل العشراوي، الحجاج في الخطابة النبوية،ط1، عالم الكتب الحديث ،2012م.
20- جواد ختام ، التداولية أصولها واتجاهاتها،ط1، دار كنوز المعرفة،عمان، 2016م.
21- حافظ إسماعيل علوي :
- التداوليات "علم استعمال اللغة" ، عالم الكتب الحديث ،الأردن، 2011م.
- الحجاج مفهومه ومجالاته،عالم الكتب الحديث،إربد ، الأردن،2010م.
22- الحافظ محمد بن عيسى بن سوره الترمذي ،سنن الترمذي،ط1، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع،الرياض.
23- حمادي صمود وآخرون،أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم إشراف حمادي صمود،سلسلة آداب،جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية،كلية الآداب منوبة، تونس ،دت.

24- حمُّو النَّقاري وآخرون،التحاجج، طبيعته ومجالاته ووظائفه،ط1، تنسيق حمُّو النَّقاري منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، المملكة المغربية،2006م.
25- عبد الحميد السيد،دراسات في اللسانيات العربية بنية الجملة العربية،ط1،دار الحامد ،عمّان الأردن،2004م .
26- عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي (ت 1089هـ)، أبو الفلاح شذرات الذهب في أخبار من ذهب،ط1، تحقيق : محمود الأرناؤوط ،دار الفكر، بيروت 1986م،ج 3 .
27- خليفة بوجادي،في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ط1،بيت الحكمة للنشر والتوزيع العلمة الجزائر، 2009م.
28- الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت170هـ) ،العين،ط1، تحقيق:عبد الحميد هنداوي ،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،2003م ج1 .
29- ذهبية حمو الحاج :
- التداولية واستراتيجية التواصل،ط1، رؤية للنشر والتوزيع ،القاهرة،2015م .
-لسانيات التلفظ و تداولية الخطاب، ط2،دار الأمل،تيزي وزو، 2012م .
30- عبد الرحمان حسن حبكه الميداني،البلاغة العربية أسسها وعلومها،وفنونها، ج1،دار القلم، دمشق،1996م .
31- عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد (جلال الدين السيوطي) (ت 911هـ) :
- الدر النثير في تلخيص نهاية ابن الأثير تحقيق: محمد نزار تميم ،هيثم نزار تميم، دار الأرقم للطباعة .
- الإتقان في علوم القرآن،ط1، المطبعة الأزهرية،مصر،1979م ، ج2 .
32- عبد الرحيم بن محمد بن نباتة،ديوان خطب ابن نباتة، ط1، تحقيق: ياسر محمد خير المقداد، مجلة الوعي الإسلامي الكويت، 2012م ناصر .
33- أبو الرشتة عطا، تيسير الوصول إلى الأصول،ط1،دار الأمة،بيروت،لبنان،1990م .
34- رشيد الإدريسي، سيمياء التأويل (الحريري بين العبارة و الإشارة)، ط1، شركة النشر و التوزيع المدارس الدار البيضاء المغرب،2000م.
35- زكي مبارك،النثر الفني في القرن الرابع،ط2،مطبعة السعادة، مصر،ج2 .

36- سامية دريدي،الحجاج في الشعر العربي القديم ، ط1،عالم الكتب الحديث للنشر ،الأردن، 2008م .
37- سعيد يقطين،تحليل الخطاب الروائي،ط 3 ،المركز الثقافي العربي بيروت،1983 م.
38- عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية،ط2،الدار العربية للكتاب، 1986م .
39- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي(ت748 هـ) ،سير أعلام النبلاء ،تحقيق: جماعة من العلماء بإشراف:شعيب الأرناؤوط،ط3، مؤسسة الرسالة ، بيروت،1985م،ج 16 .
40- صابر حباشة، التداولية و الحجاج مداخل و نصوص،ط1، سورية ،2008م .
41- صلاح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد ،ط1،دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان 1993م .
42- صلاح إسماعيل،نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس،الدار المصرية ، السعدية للطباعة والنشر والتوزيع،القاهرة 2005م .
43- ضياء الدين بن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر(ت637 هـ)، ط2 تحقيق: أحمد الحوفي و بدوي طبانة، دار النهضة مصر للطباعة و النشر القسم2، القاهرة 1962م .
44- طاهر بن صالح الجزائري شرح خطب ابن نباتة،ط1، دار الكتب العلمية ،بيروت ، لبنان ،2007م .
45- الطاهر بومزبر ، التواصل اللساني و الشعرية ، ط1، مشورات الاختلاف، الجزائر.
46- طه عبد الرحمن :
- في أصول الحوار و تجديد علم الكلام ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب
- اللسان والميزان والتكوثر العقلي، ط1،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،بيروت، 1988 م .
47- عباس حسن، النحو الوافي ، ط3،دار المعارف،مصر،ج1 .
48- عباس حشاني، خطاب الحجاج والتداولية دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي،ط1،عالم الكتب الحديث، الأردن،2014م .

49- عز الدين الخطابي ،حجاج الفلسفة و بلاغتها،مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث الرباط، 26 /2017/09م .
50- عز الدين الناحج ، العوامل الحجاجية في اللغة العربية،ط1،مكتبة علاء الدين، صفاقس، تونس،2011م .
51- عز الدين علي السّيد ،التكرير بين المثير والتأثير ، ط1،دار المحمدية ، 1978م .
52- علي الشبعان، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل،ط1،دار الكتاب الجديد،بنغازي، ليبيا 2011م .
53- علي آيت أوشان،السياق و النص الشعري من البنية إلى القراءة، ط1،دار الثقافة للنشر و التوزيع، الدار البيضاء، المغرب،2000م .
54- علي بن محمد التغلبي الآمدي سيف الدين أبو الحسن (ت631هـ) ، الأحكام في أصول الأحكام، دار الكتب العلمية ، بيروت 1982م.
55- علي محمد علي سلمان،كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج،"رسائله أنموذجا"، ط1،دار الفارس للنشر والتوزيع، الأردن ، 2010م.
56- علي محمد علي سمان، كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج – رسائله نموذجا، ط1، دار فارس للنشر و التوزيع الأردن، 2010م.
57- عمر بلخير :
- مقالات في التداولية ، دار الأمل ، تيزي وزو، الجزائر، 2013 م.
- تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية،ط1،منشورات الاختلاف،الجزائر 2003م .
58- عمران قدور ،البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني الموجه إلى بني إسرائيل ،ط1،عالم الكتب الحديث ، إربد، الأردن،2012م .
59- العياشي أدراوي،الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ط1، منشورات الاختلاف الجزائر، 2011م .
60- عياض بن نامي السلمي، تجديد الخطاب الديني(مفهومه وضوابطه)، مركز التميز البحثي في فقه القضايا المعاصرة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية،مجموعة من المحاضرات .

61- فايز الداية، علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق(دراسة تأريخية تأصيلية نقدية)،دار الفكر المعاصر،بيروت، دار الفكر المعاصر ، دمشق ،1996م .
62- عمار ساسي، منهج الجواب في آليات تحليل الخطاب، الم الكتب الحديث ، أربد الأردن ، 2011 م .
63- عبد الفتاح أحمد يوسف ،لسانيات الخطاب وانساق الثقافة ، ط1، الدار العربية للعلوم،2010م .
64- عبد القادر الغزالي، اللسانيات ونظرية التواصل ، ط 1 ، دار الحوار ،2003م.
65- أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد،الزمخشري جار الله(ت538ه) ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ،ط3، تحقيق : خليل مأمون شيحا،دار المعرفة للطباعة للنشر، والتوزيع ، بيروت ، لبنان ،2009م .
66- عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت471ه)،أسرار البلاغة في علم البيان، دار الكتب العلمية ،بيروت لبنان ،1998م .
67- قدور عمران،البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني،ط1،عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع ، إربد الإردن،2012م .
68- كاظم جاسم منصور ،التداولية في الفكر النقدي،ط1،دار العرب للنشر و التوزيع
69- الكريم العقل، مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة موقف الحركات الإسلامية المعاصرة منها،ط1،دار الوطن للنشر، 1992 م .
70- عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ط1،دار الأمان،الرباط، منشورات ضفضاف، بيروت،2013م .
71-عبد الله صولة :
- الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط2، دار الفارابي،بيروت لبنان
- في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات،ط1،ميسكيلياني للنشر والتوزيع،تونس،2011م.
72- لويس معلوف،المنجد في اللغة و الأدب والعلوم،ط18، المطبعة الكاثوليكية، بيروت.
73- مثنى كاظم صادق ، أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي.(تنظير وتطبيق على السور المكية) ،ط1،منشورات ضفاف تونس،2015م .
74- محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي(ت1393ه)، التحرير

و التنوير،ط1،مؤسسة التاريخ العربي،بيروت، لبنان،2000م، ج2 .
75- أبو محمد القاسم الانصاري السجلماسي،المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع،ط1، تحقيق وتقديم : جلال الغازي ،مكتبة المعارف ، الرباط،1980م.
76- محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري جمال الدين أبو الفضل (ت711هـ) ، لسان العرب، ط3،دار صادر بيروت،المجلد11، 1994م.
77- محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، بحث في بلاغة النقد المعاصر ،ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت، لبنان ، 2008م.
78- محمد علي التهاوني ،كشاف اصطلاح الفنون والعلوم،ط2، تحقيق :لطفي عبد البديع،عبد النعيم محمد حسين،المؤسسة المصرية للكتاب،مصر،القاهرة ،1982م،ج2 .
79- محمد محي ّالدين عبد الحميد، شرح ابن عقيل ومعه كتاب منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل ،دار الطلائع للنشر والتوزيع، القاهرة،2009م، ج 1 .
80- محمد مشبال :
- بلاغة النص التراثي،مقاربات بلاغية حجاجية ،دار العين للنشر، الإسكندرية،2013م .
- بلاغة الخطاب الديني،ط1،منشورات الاختلاف،الرباط، 2015م.
81- محمود أحمد نحْلة،آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر،دار المعرفة المصرية 2006م .
82- محمود عكاشة،النظرية البرجمانية اللسانية(التداولية)"دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ "ط1،مكتبة الآداب،القاهرة .
83- مريم فرنسيس،في بناء النص دلالته "محاور الإحالة الكلامية" منشورات وزارة الثقافة ،دمشق 1998م .
84- مسعود صحراوي،التداولية عند العلماء العرب،ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر ،بيروت،لبنان، 2005م .
85- مصطفى الشير قط،مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم،دار البازوري للنشر،الأردن،2009م .
86- منذر عياشي، مقالات في الأسلوبية، اتحاد الكتاب العرب،سوريا،1990م .
87- نرجس باديس ،المشيرات المقامية مركز النشر الجامعي،2009م .

88- نصيرة محمد غماري، النظرية التداولية عند الأصوليين دراسة في تفسير الرازي ط1 عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع ، أربد ، الأردن، 2014م.
89- نواري سعودي أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي،ط1،بيت الحكمة ،سطيف الجزائر،2009م
90- عبد الهادي بن ظافر الشهري،استراتيجات الخطاب مقاربة تداولية،ط1، دار الكتاب الجديدة المتحدة،بيروت،2004م .
91-هشام عبد الله خليفة ،نظرية الفعل الكلامي،ط1، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان،2008م .
92- أبو الهلال العسكري، كتاب الصناعتين(الكتابة والشعر)،تحقيق:محمد أمين الخانجي ،مطبعة محمود بك،الأستانة .
93- هناء حلاسة ، بلاغة الحجة في خطاب الخلفاء الراشدين " دراسة وصفية لنماذج خطابية،ط1، مركز الكتاب الأكاديمي عمان، 2016م.
94- أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي(ت626هـ) ، مفتاح العلوم، ط1، تحقيق : نعيم زرزور، دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان ،1983م .
95- يوسف بكار،عصر أبي فراس الحمداني، مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطين للإبداع الشعري،2000 م .
96- يوسف بن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن(ت874هـ) ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، 1963م ،ج4.

ثانيا- الكتب المترجمة :

1- أ.مولر،ك .زيلتمان ،ك .أوريكيوني، في التداولية المعاصرة والتواصل،ترجمة:محمد نظيف،ط1، فصول مختارة أفريقيا الشرق ، المغرب، 2014 م .
2- آن روبول ، جاك موشلار،التداولية علم جديد في التواصل ،ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، ط1، دار الطليعة ، 2003م .
3- بول ريكور، نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى ،ترجمة :سعيد الغانمي، ط 2 المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب،2006م .
4- روبرت دي بوجراند، النص والخطاب الإجراء، ط1، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب 1998م .

5- جاك موشلر،آن ربيول ،القاموس الموسوعي عن التداولية، ترجمة:مجموعة من الأساتذة والباحثين،إشراف:عز الدين المجدوب،مراجعة :خالد ميلاد، المركز الوطني للترجمة ، تونس.
6- جورج يول ،التداولية،ترجمة: قصي العتابي ، ط1، دار العربية للعلوم ،الرباط ،2010م.
7- جوزيف فندريس ، اللغة ، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص ، مكتبة الأنجلو المصرية – مطبعة لجنة البيان العربي ، 2014م.
8- جون ليونز،اللغة والمعنى والسياق،ترجمة عباس صادق الوهاب، ط1 ،دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد العراق 1987م.
9-جون أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة، ترجمة:عبد القادر قينيني،(دط)، مطابع إفريقيا الشرق،الدار البيضاء المغرب 1991م.
10- الجيلالي دلاش،مدخل إلى اللسانيات التداولية،ترجمة:محمد يحياتن،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر ،1992م .
11- فرنسواز أرمينيكو،المقاربة التداولية،ترجمة:سعيد علوش،الرباط،المغرب،1986م.
12- فليب بلانشيه ، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة،ط1، دار الحوار السورية .
13- كاترين كيريرات أركيوني،المضمر، ترجمة: ريتا خاطر، ط1،مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، ديسمبر 2008م.
14- كلاوس برينكر،التحليل اللغوي للنص،ترجمة سعيد حسين بحري، ط2 ،مؤسسة المختار للنشر والتوزيع،القاهرة 2010م.
15- ماري نوال غاري بريور ، المصطلحات المفاتيح في اللسانيات ،ترجمة:عبد القادر فهم الشيباني ،ط1، سيدي بلعباس الجزائر ،2008 م.

ثالثا : الرّسائل الجامعيّة :

1- إحسان محمود سليمان ،شعراء ومفكرون حول سيف الدولة ، بحث مقدم لنيل شهادة دكتوراه،إشراف الدكتور:صالح آدم بيلو،جامعة أم درمان الإسلامية،2009م.
2- شيتر رحيمة ، تداولية النص الشعري جمهرة أشعار العرب أنموذجا، رسالة دكتوراه ، إشراف : عبد القادر دامخي جامعة الحاج لخضر باتنة ، السنة الجامعية : 2008-2009

3- ليلى جغام، الحجاج في كتاب"البيان و التبيين" للجاحظ، رسالة دكتوراه، إشراف : محمد خان ، جامعة محمد خيضر بسكرة،السنة الجامعية: 2012-2013م.

4- هاني يوسف أبو غليون ،الحجاج في النص القرآني "سورة الحواميم أنموذجا،رسالة ماجستير ،إشراف:زهير المنصور ،جامعة مؤته،2018م.

5- نورة قطوش،بنية الخطاب الشعري في العهد الحفصي خلال القرن السابع الهجري،رسالة ماجستير ،بإشراف الدكتور كمال عجالي ، جامعة الحاج الخضر باتنة، الجزائر ،2010م.

رابعا : المجلّات و الدّوريات :

1- إبتسام بن خراف ،أفعال الكلام في قصة كليم الرحمن موسى عليه السلام، ، مجلة كلية الآداب واللغات ، جامعة محمد خيضر بسكرة ، الجزائر ،ع12 .

2- باديس لهويمل ،السياق ومقتضى الحال في مفتاح العلوم -متابعة تداولية - ،مجلة المخبر ،أبحاث في اللغة و الأدب الجزائري ،جامعة بسكرة ، العدد 9، 2013م .

3- حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي،عناصر استقصاء نظري، مجلة عالم الفكر الكويت، ع 1 ، يوليو سبتمبر ،2001 م .

4- حسين عبد العالي اللهيبي، الخطابة العربية في العصر العباسي الأول دراسة موضوعية فنية،مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية ،العددان 3،4، المجلد 7، 2008م .

5- حكيمة بوقرومة،نظرية الأفعال الكلامية عند" أوستين"و" سيرل "و دورها في البحث التداولي،المجلة العلمية حوليات الآداب واللغات ، كلية الآداب و اللغات، جامعة المسيلة ، الجزائر ، العدد الأول ، 2013م .

6- خالد بن محمد الجديع،خطب ابن نباتة الفارقي:الرؤية والفن،العدد5، عالم الكتب،مصر 2006م،المجلد27 .

7- دندوقة فوزية ، التأويل و تعدد المعنى ، مجلة كلية الآداب و اللغات و العلوم الانسانية والاجتماعية ، العدد4، جامعة محمد خيضر ،بسكرة ، جانفي 2009م .

8- ذهبية حمو الحاج ، قوانين الخطاب في التواصل الخطابي، مجلة الخطاب، جامعة ملود معمري، تيزي وزو، العدد2 ماي2007 .

9- زهراء جياد البرقعاوي،الأفعال الكلامية في خطب الإمام الحسين دراسة تداولية،مجلة

الكلية الإسلامية الجامعة النجف الأشرف، العدد43،ج2 .
10- سعد محمد علي التميمي،الاشاريات الشخصية في نهج البلاغة الضمائر أنموذجا، مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد،العدد 47، 2016م.
11- طه عبد الرحمن،مراتب الحجاج وقياس التمثيل،مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة سيدي محمد بن عبد الله،المغرب، العدد9، 1989م .
12- عبد الحليم بن عيسى ،البيان الحجاجي في إعجاز القرآن الكريم "سورة الأنبياء نموذجا" العدد102، مجلة التراث العربي اتحاد الكتاب العرب –دمشق، العدد26 ،نيسان 2006م.
13- عبد العزيز لحويدق،الأسس النظرية لبناء شبكات قرائية للنصوص الحجاجية ، مجلة الحجاج مفهومه ومجالاته،دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، ط1، ج 3، 2012م
14- عبد الفتاح يوسف،التداولية و تنوع مرجعية الخطاب ،جامعة المنصورة،مصر، أعمال مؤتمر النقد الدولي الثالث عشر –جامعة اليرموك- الأردن ،2010م.
15- كاظم جاسم منصور العزاوي ، التعبير الإشاري في (الخَصيبيّ) مقاربة تداولية،مجلة العلوم الإنسانية، جامعةبابل/ كلية الآداب، العدد 01، 2016م.
16- لطيف عبد الصاحب الزاملي ،إشارية البنى المطلقة ،مجلة القادسية في الأدب و العلوم التربوية ،العدد 1، المجلد8، 2009م.
17- عبد الحكيم سحالية، التداولية امتداد شرعي للسيميائية ، المركز الجامعي الطارف الملتقى الدولي الخامس السيمياء والنص الأدبي،جامعة محمد خيضر بسكرة،15-17 نوفمبر2008م .
18- محمد سالم ولد محمد الأمين،مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة مجلة عالم الفكر،ع2 ، يناير /مارس ، 2000 م .
19- محمود طلحة ،القيمة الحجاجية لأسلوب القصر في اللغة العربية،مجلة الخطاب جامعة ملود معمري ، تيزي وزو ، الجزائر، العدد10،2008/05/03م .
20- هاجر مدقن،آليات تشكل الخطاب الحجاجي بين نظرية البيان ونظرية البرهان،الأثر، مجلة الآداب واللغات،جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، العدد الخامس، مارس 2009م

خامسا: المواقع الإلكترونية:

1- خالد رُوشه،الخطاب الإسلامي .. مقاربة منهجية، مقال منشور على موقع المسلم ، 20 محرم 1428، تاريخ الزيارة 2018/04/12،في الساعة 15:29 :
http://almoslim.net/node/83776

2- عبد السلام حمود غالب،مفهوم الخطاب الديني،مقال منشور على موقع السكينة 2013/09/11، تاريخ الزيارة 2018/04/06، في الساعة 18:31:
https://www.assakina.com/news/news1/27831.html

3- مرشد الحيالي، ديوان ابن نباتة في الميزان، مقال منشور على موقع شبكة الألوكة ،2010/06/19م، تاريخ الزيارة 2019/03/23، في الساعة 21:51 ،
https://www.alukah.net/sharia/0/22791

فهرس الموضوعات

فهـــــــــرس الموضوعـــــــــات

الموضوع	
الشّكر و العرفان	
مقدمة	أ - ز
المدخل : المجال المفاهيمي لمصطلحات الدراسة	
أولا: التّداولية النّشأة والمفهوم	14-10
ثانيا: في ماهية الخطاب والخطاب الديني	23-14
ثالثا: ابن نباتة الفارقي خطيبا	27-23
الفصل الأول: الإشاريّات التداولية في ديوان خطب ابن نباتة	
أولا : تعريف الإشاريّات	31-29
ثانيا : أنواع الإشاريّات	34-31
2 -1: الإشاريّات الشّخصيّة	35-34
2-1-1: ضمائر المتكلّم	42-35
2-1-2: ضمائر المخاطب	48-42
2-1-3: ضمائر الغائب	54-48
2-2 : الإشاريّات الزّمانيّة	64-54
2-3 : الإشاريّات المكانيّة	69-64
الفصل الثاني:الافتراض المسبق والاستلزام الحواري في ديوان خطب ابن نباتة	
أوّلا: تجليّات الافتراض المسبق في خُطب الدّيوان	71
1-1: مفهوم الافتراض المُسبق	74-71

1-2: أنواع الافتراض المسبق	76-74
1-3: الافتراضات المسبقة في خطب الديوان	90-76
ثانيا: الاستلزام التّخاطبي في خطب الديوان	90
2-1: مفهوم الاستلزام التخاطبي	97-90
2-2:انتهاك قواعد التعاون في خطب ابن نباتة "	97
2-2-1: خرق قاعدة الكم	101-97
2-2-2: خرق مبدأ الكيف	105-101
2-2-3: خرق مبدأ العلاقة أو المناسبة	109-105
2-2-4: خرق مبدأ الخبر أوالطريقة	112-109
الفصل الثالث: الأفعال الكلامية في ديوان خطب ابن نباتة	
أوّلا – نظريّة أفعال الكلام	117-115
1-1: الفعل الكلامي عند أوستين	123-117
1-2: الفعل الكلامي عند سورل	127-123
ثانيا–أفعال الكلام وقوتها الانجازية في الديوان	127
2-1: الإخباريّات:Assertives	134-127
2-2: التوجيهيات Directives	142-134
2-3: الوعديات Commissives	147-142
3-4: التّعبيريات Expressives	152-147
3-5: الإيقاعيات Déclarations	156-152
الفصل الرّابع:الحجاج وآلياتة الإقناعية في خطب ابن نباتة	
أولا: مفهوم الحجاج	162-158
ثانيا: آليات الحجاج الإقناعية وتطبيقاتها في خطب ابن نباتة	-162

2-1: مقدّمات الحجاج	167-162
2-2: تقنيّات الحجاج وطرائقه	177-167
ثالثا: آليات الحجاج البلاغي	178-177
3-1: الصور البيانية	179-178
3-1-1: التشبيه	181-179
3-1-2: الاستعارة	184-181
3-1-3: الكناية	187-184
3-2: البديع	188-187
3-2-1: الطباق	189-188
3-2-2: الجناس	191-189
3-2-3: السجع	192-191
رابعا: السلم الحجاجي	198-192
4-1: أدوات السلم الحجاجي	204-198
خاتمة	209-206
قائمة المصادر و المراجع	222-211
فهرس الموضوعات	226-224

الملخّص:

التداولية علم جديد في مجال التواصل الإنساني ،وظيفته دراسة الظواهر اللغوية في الاستعمال لذلك سمي بعلم الاستعمال اللغوي ، أي أنه يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه ، وكيفية استخدام اللغة، ويبحث عن العوامل التي تجعل من الخطاب رسالة واضحة وناجحة ضمن السياقات المختلفة.

وتهدف هذه الأطروحة إلى تحليل الخطاب الديّني تداوليّا بدراسة تطبيقية في ديوان خطب ابن نباتة الفارقي (335هـ-374هـ)"،وكان موضوع البحث فيها في طريقة استعمال اللغة عن طريق الآليات التداولية التي وظفها الخطيب في ديوانه متمثلة في الإشاريات،الافتراض المسبق والاستلزام الحواري، الحجاج، وأفعال الكلام ؛ من أجل تبليغ مقصده والوصول إلى ذهن المتلقي والتأثير فيه ،ودفعه إلى الإقناع وإنجاز فعل ما.

Résumé :

La Pragmatique est une nouvelle science (une nouvelle compétence) dans le domaine de la communication humaine discursive, sa fonction principale est d'une part, étudier les différents phénomènes linguistiques en usage; autrement dit, les sciences de la langue qui s'intéressent à la relation de la langue(objet primordial dans le discours) aux usagers (locuteurs d'unemême communauté et utilisant le même code linguistique).

D'autre part , elle vise l'utilisation adéquate de la langue dans différentes situations de communication à savoir de rendre simple et clair son message pour la masse de ses usagers.

Le but de cette thèse est d'analyser la pragmatique du discours religieux et qui consiste en l'étude appliquée sur l'oeuvre des discours de Ibn Nabata el Fariki (335h-374h), l'objet de la recherche était de connaître la manière d'exploiter la langue via les procédés pragmatiques que l'orateur a utilisés dans son oeuvre et qui sont l'Indexicaux, les pré-suppositions, l'implication conversationnelle, l'argumentation et les actes de parole dans le but de faire parvenir ses intentions et pouvoir toucher le récepteur, de l'influencer et l'inciter à agir en conséquence.